

بين الأنهار الخمسة (أربعة أشهر في باكستان)



ناصر الوليدي

بين الأناهار الخمسة

أربعة أشهر في باكستان

ناصر الوليدى



مؤسسة روائع للثقافة والفنون والنشر

(الطبعة الأولى 2021)



00201064655421

00201140178144

مراجعة لغوية

د . نادر العمري

د . عبد الرزاق الفحة

تصميم غلاف

إيمان الفقيه

إهداء..

إلى رفيقة الدرب العابدة التقية
النقية المتبتلة شريكة هذا الإنجاز
أم زين صفية الوليدي.

فقد جرت هذه الرحلة في ظروف
بالغة التعقيد كانت تعيشها عدن
فكانت هي خير معين على تجاوز كل
تلك العقبات.

كلمة الشيخ طارق جميل

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله، وبعد..
فإن الأخ الأستاذ ناصر الوليدي عرفته وعرفت فيه رجلاً يحب العلم وأهله، يحب نشر الدين في صورة سليمة؛ دعوة، وتبليغاً، وتأليفاً، وتصنيفاً. يملك قلباً يخفق بحب الإسلام والمسلمين. زارنا قبل سنوات خلال خروجه في باكستان بصفة الدعوة والتبليغ، فزار رجال الدين والعلم، ومراكز الدعوة والمدارس الدينية. لم ألتق به طويلاً، ولكن الأثر الذي خلفته زيارته في المدارس التي تعمل تحت إشرافي؛ كان طيباً ومباركاً.

وأنا لم أستطع مطالعة الكتاب «بين الأنهار الخمسة» لشدة ما أعاني من المرض، ولكنني أرجو الله - سبحانه وتعالى - أن يكون الأستاذ قد وفق تماماً في التعبير عما في الضمير.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

طارق جميل

رسالة الأستاذ بسام الحامد

بسم الله، وبعد..

فإلى أخي العزيز الأستاذ ناصر الوليدي - سلمه الله -

لقد كنت - الليلة - منغمساً في ظلمة الأحداث، حتى أشرقت في وجهي رسالة الشيخ المبارك طارق جميل لتلقي عليّ هذا الخبر الجميل؛ ولادة كتابكم «بين الأنهار الخمسة».

وإني أثني على كل كلمة قالها الشيخ فيكم، وأشهد الله وملائكته وجميع خلقه؛ أن بين جنبيكم قلباً ينبض حباً للإسلام وأهله، وبين أصابعكم صارماً - لا قلماً - تصولون به في ميادين الفكر، وساحات الحوار، ومساحات الثقافة الشاسعة.

سرّني - والله - خبر المولود الفكري الجديد لكم، والذي لا أشك أنه سيجد موقعاً مهماً في قلوب وعقول الكثيرين المؤمنين بكم وبقضيتكم، الوثائقين من براعتكم ورشاقة بنانكم، (وأنا منهم - إن رضيت -).

وكيف لا يجد ذلك الموقع؟! ولكم قدم السبق في الثقيف والتفكير، وفي التأليف والتنوير، وقد بذلتم دوماً،

ولم تنتظروا العطاء يوماً.

وإني لأرى مقامكم في جيلنا مقام الرافي الأديب في جيله، وتيمناً
بذلك سأدعو الله لكم بدعوة الشيخ محمد عبده للرافي - رحمهما
الله تعالى :-

«أسأل الله أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل، وأن
يقيمك في الأواخر مقام (الرافي) في الأوائل».

سيأتي يوم - يا أبا زين - إذا ذكر فيه ناصر الوليدي؛ قال الناس: هو
الثقافة والأدب والفقه، في أجمل قالب من البيان.
هنيئاً لنا بكم، وهنيئاً لنا كتابكم.

محبكم:

بسام بن علي الحامد

«الرحلة»

الطريق إلى سيؤون (٢ أكتوبر ٢٠١٨م)

في محطة الباصات قرب جولة السفينة، ومع بدايات طلوع يوم جديد على مدينة عدن، كان الجو يميل إلى الاعتدال، والمسافرون يتوافدون إلى باصات شركة (الأولى)، هناك من هو متكئ على الحافلة الكبيرة التي ستقلنا إلى سيؤون، وهناك من يدور حولها، وآخرون يدخلون ويخرجون إلى مكتب الشركة، أما أنا فقد جلست على دكة قريبة من باب المكتب، وعن يميني ولداي محمد وأسامة، فلم نلبث قليلاً حتى جاءنا المودعون الذين سيودعونني وصحبي في رحلتنا هذه إلى باكستان، كان من المودعين فهمي بلفقيه، الذي قدّم لنا الشاي والخمير وجلس معنا، فضلاً عن عبدالقادر العززي، وابن الشيخ أبي بكر بلفقيه، أما رفاق الرحلة التي ستمتد أربعة أشهر فهم الشيخ أبو بكر بلفقيه، ومحمد السعدي، ورشيد عبد الذي ينتظرنا في الكود بأبين.

بدأ صوت محرك الحافلة يزأر، وسائقها يدوس على البنزين، وكأنها إشارة للركاب ليأخذ كل واحد منهم مكانه بعد أن استكملنا حشر أمتعتنا في بطن الحافلة. انطلقت بنا الحافلة وأخذ المودعون

يلوِّحون لنا بأيديهم، وفي جولة السفينة ألقى نظرة وداع لحارتنا، فإذا فندق الكمسري يقف أمامي وكأنه شيخ وقور يشيعني بدعواته المبحوحة وعينه الفاترتين، وإذا الجالس بجانبني الشيخ أبو بكر بلفقيه يذكرني بدعاء السفر، والحافلة تنهب الطريق وكأنها تعاني ضيقاً شديداً يدفعها للهروب من شوارع عدن المكتظة بالسيارات والسائرين.

حديث الشيخ أبي بكر يقطع عليّ حبل تفكيري، حيث بدأ يسألني عن زيارتي إلى مصر وعمن لقيتهم هناك، وكأنه يريد أن يفتح لي حديثاً نقطع به الطريق، كنت أجيبه إجابات مقتضبة، فلا يزال الطريق من عدن إلى سيئون طويلاً، إذ إن المسافة تزيد بينهما على ثمانمائة كيلو متر. حينما لم يجد الشيخ أبو بكر لي مزاجاً للحديث أخذ هو يتحدث عن بداية فكرة رحلة سفرنا هذه، وكنت أسمع بعض كلماته، بينما يتساقط الكثير منها بجانب أذني، فلا تزال صورة أبنائي وهم يودعونني تتقاذز أمام عينيّ، وتسكب آثارها في وجداني. كان الشيخ أبو بكر يقول: هذه أول مرة أخرج فيها إلى باكستان، بينما كان لي خروج قبلها إلى الهند وبنغلادش وماليزيا، ولكني فضلت هذه المرة أن يكون خروجي إلى باكستان؛ لكثرة أحاديث الإخوة عنها، رغم أن مجرد ذكر باكستان هذه الأيام يثير أحاديث

الإرهاب والحرب والجهاد، ولهذا السبب حينما اتصلت بك أول مرة قلت لك: إن سفرنا سيكون إلى الهند مع علمي أن سفرنا إلى باكستان، ولكني أريدك تنشط للسفر، والحقيقة أنني لم أتوقع سرعة استجابتك ونشاطك للسفر، حتى بعد أن أخبرتك أن وجهتنا ستكون إلى باكستان، بل إني حينما اتصلت عليك كنت أظنك لا تزال في مصر، فكنت أقول: هل سيلاقينا ناصر إلى سيئون قادمًا من القاهرة، أم سيسافر مباشرة من القاهرة إلى باكستان؟

هذا الحديث لم أسمعه كله من الشيخ أبي بكر في تلك اللحظات لكنني حفظته عنه لأنه قد كرره عليّ من قبل.

كان الشيخ أبو بكر قد تجاوز الستين من عمره، رجل طيب القلب، سمح الطباع، لطيف المشاعر، طاهر النفس، مدني، يحمل روح الأديب، وقلب الطفل، وقد صحبته مدة هذه الرحلة كلها، وتنقلنا معًا في الكثير من المدن الباكستانية، فوجدته هكذا كما لمست ذلك أول مرة.

تجاوزنا العَلَمَ باتجاه أبين، فألقى الشيخ أبو بكر رأسه على الكرسي، وأغمض عينيه محاولاً النوم، أما أنا فقد تلبّستني حالة من التأمل والتفكير، كنت أنظر إلى البحر عن يميني وهو يقذف الرّبَدَ على رمال الشاطئ، وأمواجه تتراقص إلى ما لا نهاية، وعن يساري

الرمال الممتدة، فكنت أتلفت بين سطح الماء عن يميني، والرمال عن يساري، وكأني في برزخ بينهما، أقف بين الماء واليابسة، ففي البحر أمم لا تنتهي من الأحياء، وفي الرمال ببداء مهلكة مقفرة، لا أثر للحياة فيها، وكأني أقف بين الحياة والموت. كانت بعض الطيور تقف على الشاطئ تلتقط رزقها من رمال الساحل، والبحر يبدو هادئًا، وفي السماء قطع متفرقة من سحب بيضاء تشبه الدخان الأبيض، تبدو ممزقة وكسولة، كلما مررت بهذا الطريق لا أدري لِمَ أشعر أن المسافة من العلم إلى زنجبار غنية بفرص الاستثمار، لو كانت هناك دولة تحسن استغلالها؛ فهذا الساحل الممتد وهذه المساحات الخالية مهيأة لتقام عليها المدن السكنية، والكورنيشات، والمصانع، والطرق الجميلة، والحدائق البهيجة، كلما مررت هنا تتراءى لي مدينة جميلة تمتد من أطراف عدن الشرقية إلى زنجبار. في مقدم الحافلة شاشة تلفزيونية تعرض قناة للقرآن الكريم من محطة انطلاقنا حتى تجاوزنا العلم، ثم غير السائق تلك القناة إلى قناة أخرى تعرض كرتون (توم وجيري)، كنت مستسلمًا لهذه الرحلة، وأعدّها استكشافًا جديدًا ورحلة جديدة إلى عالم مجهول، فكنت ما بين التأمل والتفكير وأحلام تلك المدينة، وربما رميت ببصري إلى الشاشة لمتابعة (توم وجيري) فتجتاحني ضحكة

مكتومة من بعض لقطاتها، مع محاولات مستمرة وفاشلة لإغماض عينيّ والاسترخاء على الكرسي، وكلمات متقطعة للشيخ أبي بكر، وهو ما بين نوم واستيقاظ.

بدأت لنا مدينة (الكود) بأشجارها وبيوتها البسيطة، ونقاط عسكرية للجان الشعبية، وفي الكود توقفت الحافلة لينضم إلى رحلتنا أخونا رشيد عبد الشحيري؛ إمام جامع الدعوة والتبليغ في الكود وخطيبه، وهو أيضاً عضو شوري الجماعة لعدن ولحج وأبين، وأصله حضرمي من مدينة الشحير الواقعة قرب مدينة غيل باوزير، جاء أباه إلى أبين منذ أزمنة طويلة؛ نتيجة لظروف سياسية وعسكرية حلّت بمنطقتهم، وإلى دلتا أبين نزح الكثير من أبناء المحافظات الشرقية في الزمن الغابر؛ هرباً من الجذب والصراعات، وفضلوا الإقامة في دلتا أبين؛ لكثرة مياهها، وخصوبة أرضها، وكثرة خيراتها، والاستقرار النسبي الذي تمتعت به السلطنة الفضلية؛ مما وفرّ فرصاً كثيرة للاستقرار هناك.

اخترقنا مدينة زنجبار عاصمة محافظة أبين والعاصمة الأخيرة للسلطنة الفضلية وقد بدأت لنا مرهقة جريحة من آثار الحروب والدمار التي حلّت بها، سواء كان في زمن تنظيم القاعدة أو في وقت الحرب الأخيرة مع الحوثيين، تنظر عن يمينك ويسارك فترى آثار

القصف والدمار ماثلة للعيان، وقد بدت الحركة فيها قليلة؛ فبعض أهلها الذين نزحوا إلى عدن إبان الحرب طابت لهم الإقامة ولم يعودوا إليها، فقد جنحوا للاستقرار في عدن؛ بحثاً عن فرص حياة أفضل. تجاوزنا زنجبار، وكل ما فيها وما حولها ينم عن حالة بؤس، بدأ الناس يألفونه ويتعايشون معه.

زنجبار التي كانت يوماً موثلاً للقادمين من الشرق؛ بحثاً عن الماء والكأ وفرص العمل، لا سيما بعد أن اتخذها السلطان حسين بن أحمد الفضلي عاصمة للسلطنة الفضلية في الوقت الذي شرع الإنجليز في تأسيس مشروع زراعة القطن، فزرعوا مساحات شاسعة بأجود أنواع القطن والذي يصدر الجزء الأكبر منه إلى بريطانيا.

غادرت زنجبار وخلفتها ورائي، ومشاهد الخراب والحرب، والمياه، والمزارع، وأصوات المضخات، وذكرى المحلج، والقطن، والإنجليز، والسلطنة الفضلية، والاستقلال وما بعده، كل تلك الصور تمتزج في خيالي الذي تشوشه اهتزازات سير الحافلة في طريق مزقته قذائف الطائرات.

لعل من سوء حظ أبين أنها لا تبعد كثيراً عن عدن، وهذا أسهم من نواح عدّة في إضعافها، بل ساعد على تعرضها للكثير من المشاكل والكوارث.

كان الشيخ أبوبكر يحدثني حديثاً متقطعاً ينمُّ عن روحه الرومانسية وحسّه الشعاري؛ فقد كان في مطلع شبابه أديباً، يكتب القصة القصيرة، ويعيش في أجواء أدبية قبل أن يغادر مقعده في كلية التربية جامعة عدن عام ١٩٧٨م إلى جيبوتي. وحدثني أنه كان يكتب المسرحية في تلك الأيام، ذكره بذلك عرض لقناة السعيدة في مقدم الحافلة لمسرحية يؤديها صلاح الوافي وآخرون، كنت أتابع بعض مشاهدتها، فيظهر لي ضعف محتواها وضعف الإخراج والأداء، ربما أنها ليست كذلك، ولعل موجات الحموضة التي تمور في معدتي وتهيج الغثيان جعلها تبدو كذلك.

وفي الجانب الأيمن من الحافلة كان يجلس شاب أسمر، خفيف اللحم، مضطرب النظرات، كثير التلفت، مهلهل الثياب، أخذ يصرخ بأعلى صوته: غيراً هذه المسرحية، أما وجدتم غيرها؟، وأخذ يكرّر ذلك مراراً حتى استجاب له طاقم الحافلة ليعرض على أسماعنا مسرحية إذاعية باللهجة العدنية لا تقل سخافة عن مسرحية قناة السعيدة.

كانت صرخات ذلك الشاب تزعج أذني، وسخافات المسرحيات تهيج الشاي والخمير والحموضة في معدتي، فلم يكن عندي أحب من أن تتوقف الحافلة لأتقيأ ما في جوفي؛ عسى أن أشعر بالهدوء.

بدأت لنا أطراف مدينة شُقرة الساحلية، حاضرة السلطنة الفضلية لمئات السنين، التي كان لها دورها في إرسال الحملات العسكرية منذ وصول الكابتن (هينز) عام ١٨٣٩م وما بعدها، وقد تعرّضت مرارًا لقصف الطائرات الحربية البريطانية، هذه المدينة الصغيرة الواقعة على البحر كانت لها أحاديث وأخبار وسُمار، ولكنها اليوم أشبه بقرية زحف عليها النسيان، وقد كانت لنا عنها أحاديث في قاهرة عمرو بن العاص في حي الهرم في بيت الشيخ أحمد بن حسين الفضلي قائد الحرس السلطاني وابن نائب السلطنة حسين بن عبد الله الفضلي، ويكفي أنها كانت عاصمة للسلطنة لمئات السنين.

توقفنا قرب مطعم خارج مدينة شُقرة في الطريق المؤدي إلى أحور، فتفرق الركاب في المطعم لتناول وجبة الإفطار، بينما وجدتُها أنا فرصة لإفراغ ما في معدتي من الأحماض، واشترت ماء فشربت منه وغسلت وجهي، وصببتُ منه على شعري، وآويت إلى ظل أحد الجدران، واسترخيت على كرسي، وأغمضت عيني؛ فشعرت بالراحة...

تنبّهت على صوت بوق الحافلة، فإذا الركاب يتسابقون إلى مقاعدهم، فانطلقنا في طريقنا الساحلي مسرعين، فما أن مشت الحافلة حتى عرض لنا السائق فيلمًا مصريًا عن الإرهاب والقاعدة

وداعش وجبهة النصره وليبيا، فإذا الركاب منهمكون في المتابعة بعد أن أنعشهم تناول الإفطار، وبين الحين والآخر تملأ ضحكاتهم الحافلة، وهكذا حتى وصلنا مدينة (أحور)، وهي حاضرة سلطنة العواتق السفلى قبل الاستقلال، ولم أرها تختلف كثيراً عن شقرة؛ فقد أصبحت مدينة أو قرية مهملة، وما بين اليقظة والمنام والحديث تجاوزنا الكثير من القرى، وكان البحر رفيق رحلتنا. ومع الساعة الواحدة ظهراً وصلنا منطقة (عين بامعبد)، تلك البلدة الصغيرة التي لا تزيد عن تجمّع للبقالات والمطاعم ومسجد وسوق للقات، فهبطنا إلى ذلك المجمع فنفرق المسافرون بين المطاعم والبقالات وسوق القات والمسجد، فولجت المسجد فصليت الظهر والعصر جمعاً وقصراً، ومنعت نفسي من الغداء كما منعتها من الفطور؛ حذراً من الغثيان، فالطريق لا يزال طويلاً، خرجت من المسجد فواجهني ولد أحسب عمره لا يتجاوز ثلاث عشرة سنة، ولكن الفقر والعوز وسوء التغذية وحرارة الشمس رسمت في وجهه خارطة من الأوجاع، غلام يلبس إزاراً (معوزاً) بالياً و(جرماً) ممزقاً، ويلف رأسه بعمامة صغيرة، تُبرز ابتسامته المتواصلة أسنانه البيضاء، ولكنها تُخفي عينيه الصغيرتين الغائرتين، بدا أسمر نحيلاً لدرجة أن أعلى ظهره يبدو محدباً، كان يحمل في يده اليمنى حزمة

من المساويك يبيعها للمسافرين .

وضعت يدي على كتفه وابتسمت له وقلت :

- ما اسمك يا بطل ؟

- محمد فتيني .

- من أي مدينة أنت ؟

- من حيس .

- ما الذي جاء بك إلى هذا المكان ؟

- نحن نازحون من الحرب، جئنا هنا؛ طلباً للأمان، ونسترزق الله .

آه من الحرب! أما يكفي هذا الغلام ما هو فيه من العوز والحاجة؟

هل كان يحتاج فوق ذلك إلى حرب اشتعلت بين فرقاء لا يدور

في حساباتهم مثل هؤلاء الأطفال؟ وبالتأكيد أنه ترك المدرسة

ليبيع هذه المساويك عليها توفر لعائلته النازحة الحد الأدنى من

متطلبات البقاء على قيد الحياة، كان غيره من الأولاد يعرضون على

المسافرين بضاعتهم من المساويك، ولكن أحداً منهم لم يقترب

مني، لعلهم شعروا أنني محجوز لصالح محمد فتيني .

رفع ابتسامته نحوي وقال: يا عم خذ هذه الحزمة كلها بـ ٣٠٠

ريال فقط، مساويك طازجة أخرجتها البارحة، خذها يا عم بـ ٣٠٠

ريال فقط والله رخيص، ولكنني أردت أن أساومه فقلت: بعنيها بـ

٢٠٠ ريال، فابتسم ونكس رأسه وقال: لا يا عم ٢٠٠ ريال قليل، ثم سحب كتفه من يدي يريد أن يبحث عن زبون آخر فأنا ضيقت وقته وفوت عليه فرصة بيع هذه الحزمة المتبقية معه، ولكنني قبضت على كتفه بقوة وقلت: بعنيها بألف ريال.

قال: كيف بألف؟ وأنت تقول بمائتين، وأنا أقول بثلاثمائة.

فقلت له مبتسمًا: مساويكك طرية وممتازة وتستحق الألف ريال، فتناولها والابتسامة تبرز بياض أسنانه وتخفي عينيه البريئتين، أخذ الألف فدهسه في خاصرته مع أوراق مالية أخرى من فئات مختلفة، وقبل أن ينصرف قال: شكرًا يا عم، فقلت بل الشكر لك أنت يا ولدي إذ وفرت لي هذه الحزمة الطرية الجميلة، وأنت يا محمد رجل، تعمل وتبيع حتى تنفع نفسك وأهلك بدلًا من أن تسأل الناس، فتكلم بكلمات خجولة بلهجته المحلية، ثم انصرف مبتسمًا يربط الشال الممزق على رأسه، انصرف هو إلى عائلة نازحة مزقتها الحرب وطحنها الفقر، وانصرفت أنا إلى أقرب بقالة؛ لأشتري علبة ماء، وبطاقة اتصال يمن موبايل؛ لأتصل بعائتي في عدن، أما هذه الحزمة فقد سافرت معي إلى باكستان لتكون من نصيب عدد من الإخوة الإندونيسيين.

انطلقت بنا الحافلة مسرعة مع محاولات مني متكررة للنوم يمنعها

ضجيج الركاب وأصوات التلفاز، فتبادل الحديث أنا والشيخ أبو بكر حتى وصلنا مدينة المكلا الساعة الرابعة عصرًا.

ومدينة المكلا هي عاصمة محافظة حضرموت قبل أن تقسم المحافظة بعد الوحدة إلى وحدتين إداريتين (الساحل والوادي)، وقد كانت قبل عام ١٩٦٧م عاصمة السلطنة القعيطية التي استولت بدعم من الإنجليز على الكثير من أملاك السلطنة الكثيرة التي كانت تبسط نفوذها على جميع حضرموت منذ مئات السنين، فانحسر نفوذ الكثيرين على الوادي، واتخذوا مدينة سيئون عاصمة لهم.

وقفنا في ظل عمارة في أحد شوارع المكلا، ونزل بعض الركاب، ونزلت أنا فتناولت بعض العصائر الطازجة وبعض الفاكهة تعويضًا عن الفطور والغداء، فلم نلبث قليلاً حتى واصلنا رحلتنا، فمررنا بمنقطة وادي عين ثم القطن وبدأ الليل يهبط على حضرموت، حتى إذا وصلنا إلى مدينة شبام أخذ الشيخ أبوبكر يشير إلى المدينة ويقول: هذه مدينتي، ولدتُ هنا وتريت، ثم أخذ يقص لي بعض الحكايات الجميلة عن غزوات القبائل الهمجية لمدينة التجار هذه، وما زلت أستمع إليه مستمتعاً بحديثه وقصصه ولهجته الحضرمية؛ حتى وصلنا إلى مدينة (الغرفة)، وهنا قال لي الشيخ أبوبكر: هذه المنطقة هي آخر حدود القعيطيين، وما وراءها يبدأ نفوذ الكثيرين.

وقد نصبت هنا غرفة للتفتيش والضرائب والجمارك، ومن هنا سميت مدينة الغرفة، وقيل: إن رجلاً من آل باعباد بنى في سفح الجبل غرفة وحفر في السهل بئراً وأخذ منها الاسم. تجاوزنا الغرفة لتبرز أمامنا أضواء مدينة سيؤون، بينما كانت أصوات المآذن تهتف بالتوحيد، منادية لصلاة العشاء؛ حي على الصلاة حي على الفلاح.

أربعة أيام في سيؤون

بعد سفر مضمّن ورحلة شاقة؛ وصلنا إلى سيؤون، فنزلنا في مركز التبليغ قرب المطار، فصلينا المغرب والعشاء جمع تأخير، وكان في استقبالنا عدد من الإخوة الفضلاء، أذكر منهم الأخ ناصر صيدة، والدكتور شكري باعباد -رحمه الله- وله قصة، سيأتي ذكرها.

وسيؤون هي مدينة العلامة عبد الرحمن بن عبيد الله السقاف صاحب العود الهندي، وهي الآن عاصمة وادي حضرموت، وكانت من قبل عاصمة السلطنة الكثيرة، يقال: إنها تنسب إلى امرأة كان لها عريش في هذا المكان، وحوله نشأت هذه المدينة، وقيل: إنه بمعنى (صهيون)، أي أن أول من سكنها رجل يهودي يدعى صهيون أو سيؤون. ولقد كانت هذه المدينة زاخرة بالعلماء

والصالحين والعباد من أزمان طويلة.

بتنا ليلتنا تلك في المركز، وفي الصباح تقرر أن نقضي عدة أيام في منطقة بور؛ انتظاراً للإخوة القادمين من صنعاء، فانطلقنا مع الشروق إلى وادي بور، وفي الطريق مررنا بعدد من المزارع والنخيل، في سهل ريفي تشعر فيه بالهدوء والسلام والسكينة، زاده الشروق وظلال الجبال جمالاً إلى جماله، فمررنا على بعض القرى، حتى كان نزولنا في قرية (بير المدني)، وهي قرية أخينا (باجري) الذي نقلنا في سيارته، وأحسب أن القرية هذه هي قرية آل باجري، فقضينا هناك يوم الأربعاء والخميس والجمعة، وصلينا الجمعة في مسجد عبدالله بن أحمد بن عيسى المهاجر، وكانت خطبة جيدة عن الدعاء مدعمة بأدلة من الكتاب والسنة، وكان الخطيب شاباً سلفياً أسمى اسمه عبدالله، وبعد الصلاة أخذنا إلى بيت جميل مبني بالطين، فكان الغداء في ضيافة الأخ محسن باجري، الذي بالغ في إكرامنا، وكان في المجلس رجل كبير السن، كان يتحدث عن ولده الطبيب الذي سافر إلى فرنسا، وحصل على الجنسية الفرنسية هناك. وهذا الرجل هو الذي أخذنا بسيارته صبيحة السبت إلى مركز الدعوة سيئون.

زيارة تريم

في الثلاثة الأيام التي قضيناها في بور استأذنت صحبي لأقوم بزيارة إلى مدينة تريم، وبصحبة رفيقي الشاب محمد، كان برنامج الانطلاق إلى تريم، ومن مسجد عمر بن عبد العزيز في قرية (بير المدني) بمنطقة (بور) كانت نقطة انطلاقنا، حيث مشينا على أقدامنا في الطريق المسفلت؛ رجاء أن تأتي سيارة تأخذنا إلى الخط العام الرابط بين سيئون وتريم، وبعد مسافة من المشي جاءت سيارة (ميتسويشي) فصعدنا في حوضها حتى أوصلتنا إلى الخط العام. في واجهتك حين تصل الخط الرئيس وفي أسفل الجبل تجد مبنىً ضخماً أبيض يبعد حوالي ثلاثمائة متر من الخط، يصله بالخط طريق مسفلت، هذا هو مبنى (الكلية الوسطية الشرعية للعلوم الإسلامية)، التي أسسها ويديرها العلامة أبو بكر المشهور، وفيها أيضاً رباط (أحمد بن عيسى المهاجر)، وقبره هناك بجانب الكلية. وأحمد بن عيسى هذا هو جد العلامة المشهور وجد آل باعلوي الهاشميين في حضرموت، ويقولون إنه أول من هبط وادي حضرموت من ذرية سيدنا علي، وقد هرب من العراق بسبب ثورة القرامطة إلى

مكة، ومنها استقدمه الحضارم إلى واديهم لنشر المذهب السني ومواجهة المذهب الإباضي الذي كان هو السائد في ذلك الوقت، وعند الفتحة التي تؤدي إلى الكلية نُصِبَت لوحة كبيرة تشير إلى اسم الكلية والرباط، وفي ظل هذه اللوحة كان يقف عدد من الطلاب الإندونيسيين الذين يتتسبون إلى هذه الكلية، حيث وقفوا مثلنا ينتظرون سيارة تقلهم إلى تريم، فأقبلت نحوهم وسلّمت عليهم فردوا التحية بمثلها، ومددت يدي لأصافحهم فكانوا يختطفون يدي بحب متدفق ويستغنون بابتساماتهم وضحكات أعينهم عن الكلام العربي الذي لم يتقنوه بعد، فالتقطت معهم صوراً تذكارية ففرحوا بها كثيراً، فإذا بالأخ محمد ينادينا لنترك موقعنا في ظل اللوحة ونتجه إلى النقطة حيث يمكن للعسكر أن يوقفوا لنا سيارة تأخذنا إلى تريم أو تقربنا منها.

فلم يمض سوى وقت قصير حتى أوقف لنا العسكري سيارتين، ركب الإندونيسيون في إحدهما ونحن في الأخرى، وكانت سيارتنا (هيلكس قمارتين) فركبنا في الكرسي الخلفي، وكان يفصل بيني وبين رفيقي صندوق بلاستيك مليء بالسمك المملح الذي كانت رائحته تملأ المكان، فأخذ السائق ورفيقي يتحدثان عن نوع السمك وسعره، حيث جرّهم نوع السمك المملح هذا - وهو من الشمد - إلى

تذكر أسعار الثمد قبل الحرب، وكيف كان رخيصاً وأنواعه جيدة، ثم عرّجوا على فساد البلاد والعباد والبر والبحر، حتى قطعت عنهم حديثهم بسؤالني عن استخدام هذا الثمد المملح.

فقالا: هذا نستخدمه للشربة بدل اللحم، وهو ألد من شربة اللحم، والحضارم يحبونه حباً كبيراً. وما زلنا في حديث الأسماك حتى قطع حديثنا صاحب السيارة ليعتذر لنا بأن قريته هنا على يمين الخط العام، فشكرناه ونزلنا ننتظر سيارة أخرى، وقبل أن ينتحي جانباً صرخ فينا أن نتقدم إلى حيث (المطبخ) ليسهل علينا إيقاف سيارة، وبعد وقوف غير طويل وقفت لنا سيارة ديناً ثلاثية، وفتّح لنا الباب بصعوبة، فركبنا بجانب السائق، وقبل أن ينطلق أغلقنا الباب بالصعوبة التي فتحناه بها، كانت السيارة متجهة إلى تريم، وكنت أنا أقلب نظري يميناً وشمالاً في الوادي، حيث القرى المتناثرة والمزارع المترابطة من النخيل والذرة وبعض المزروعات الأخرى، كان صاحباي يتحدثان ويتمازحان، وأنا مشغول بالتأمل فيما حولي.

في طريقنا هذا رأيت مبنىً كبيراً على يسارنا، فسألت عنه رفيقي فقال: هذه الجامعة العليا لتعليم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية. بدأت تباشير تريم، وتلقنتنا لوحة خضراء مكتوب فيها (تريم ترحب بكم)، وعلى اليسار وعلى مرتفع من الجبل برزت لنا

قلعة قديمة مبنية من اللبن قد تساقطت أجزاء منها، فسألت رفيقي محمداً عنها فوجدها فرصة ليحدثني عن تريم ومآثرها وأخبارها، فأخذ نفساً عميقاً ثم التفت إليّ وعلامات الوله والعشق تملأ محيآه بمجرد أن تهيأ للحديث عن معشوقته (تريم).

أخذ رفيقي يحدثني عن مدينته الحبيبة تريم، حتى لتشعر أنه متيم بحبها وحب ساكنيها ومدارسها الدينية ومساجدها وزواياها ورباطها وعلمائها ومعالمها وتاريخها، وفي هذه اللحظة المفعمة بالحب لم يستطع العاشق أن يكتم سره المكنون، ففهمت أن صاحبي عميق التصوف، حتى ليخيل إليّ من حديثه أن لهذه المدينة قدسية تقارب قدسية المدن الثلاث.

بدأ يفيض وجدانه بالمكنون، وهكذا العاشق يرى في معشوقته كل حسن وجميل، بل يلبسها من الجمال والجلال ما تغذيه به عواطفه المفتونة، أشار بيده إلى الجبال التي تقف في مدخل المدينة وقال: من هاهنا زحفت جيوش قبائل الردة بقيادة الأشعث بن قيس الكندي، ولعلك تعلم يا أستاذ أن مدينة تريم هي المدينة الرابعة في الجزيرة العربية التي لم ترتد عن الإسلام.

لم أرد أن أقطع عليه تدفق مشاعره، وتركته يسترسل في التعبير عنها، لأنني فعلاً كنت بحاجة لأن أعرف أي شيء عن تريم، بغض

النظر عن دقة ما يذكره من عدمه، فأنا أعرف العشق وقوانينه، وولي بعدها الخيار في قبول بعض الأخبار أو ردّها.

- وتريم يا أستاذ بلد مقصود لذاته، وليس مجرد طريق للعبور لغيره، لهذا تجد الطريق ينتهي عندها، وعلى هذه التلال كان زياد بن لبيد -رضي الله عنه- يحشد المقاتلين للتصدي لجيوش الأشعث، وصابر ورابط حتى جاءه المدد من الصديق، فكانت هزيمة المرتدين وأسر الأشعث بن قيس وتسليمه إلى الخليفة في المدينة، وفي هذه المعارك شارك المئات من الصحابة والعشرات من أهل بدر.

قلت: هذه منقبة كبيرة للمدينة، تمنيت في نفسي أن تصح ولكن هيهات، فضربت على كتفه ضاحكًا وقلت: محمد، هنا سنطالبك بالمراجع.

فتبسم وقال: سأصحبك إلى الحبيب علي المشهور، فهو يذكر ذلك كثيرًا، ويقول إن لديه مراجع، قلت: فليكن لقاؤنا به اليوم ما دام متخصصًا ليفيدنا في تاريخ المدينة.

أراد رفيقي أن يؤكد لي معلوماته عن معشوقته الفاتنة فقال: وفي وسط السوق تقع مقبرة شهداء هذه المعارك من الصحابة وغيرهم. لم أرد أن أقطع على رفيقي لحظات التجلي تلك، وحششته على المزيد من التعريف.

فقال: وأزيدك؛ أن الصحابي الجليل عباد بن بشر مات ودفن هنا، وما زالت ذريته إلى اليوم.

ولا يزالون هم خطباء مساجد تريم إلى يوم الناس هذا وهم (آل الخطيب).

قلت: المعروف أن عبادًا -رضي الله عنه- مات في المدينة النبوية، وقد مر بي في أثناء قراءاتي أن الصحابي الجليل المهاجر ابن أبي أمية شارك في حروب الردة ووصل إلى تريم، ومما قرأته أن أول من تولّى الخطابة من ذرية عباد بن بشر هو محمد بن سليمان بن أحمد بن عباد بن بشر في القرن الثالث الهجري.

بعدها سحبت رفيقي إلى زمن ما بعد الصحابة والتابعين حتى يسترسل دون أن أقاطعه.

فسألته عن أهم المعالم التاريخية والعلمية في المدينة.

فقال: هنا الرباط الذي يزيد عمره على مائة عام، وقد أسس بمقترح من التجار الحضارم في إندونيسيا، وأسسهُ عدد من الفقهاء يرأسهم عبد الرحمن بن محمد المشهور. وكان لهذا الرباط دور كبير في تعليم المذهب الشافعي ونشره، وبث التصوف على طريقة آل باعلوي، وقد تخرج منه الآلاف من الفقهاء والمريدين.

وفي تريم كذلك دار المخطوطات، وهي تحوي عددًا ضخمًا من

المخطوطات القديمة والنادرة.

وهنا جامع تريم، ومنارة مسجد المحضار التاريخية، ومسجد باعلوي، ومسجد الحداد، ومسجد السقاف.

وعدد من الزوايا: زاوية آل بافضل، وزاوية العيدروس وغيرهما، ولم يبق من هذه الزوايا إلا القليل.

كذلك هنا جامعة الأحقاف، ومكتبة عامة.

ولا تنس دار الحبيب المصطفى التي أسسها الحبيب عمر بن حفيظ عام ١٤١٤ للهجرة.

وأرجو أن تتمكن من رؤية كل هذه المؤسسات التعليمية خلال زيارتنا هذه.

ثم سألته عن أشهر أعلام المدينة؟

فذكر أن للعلامة المشهور كتاب عن أعلام حضرموت، وهناك من ألف عن أعلام تريم خاصة، ولكن لا يمكن أن تذكر تريم دون أن يذكر أشهر أعلامها:

الفقيه المقدم، والشيخ سالم بافضل، والشيخ عمر المحضار، والشيخ عبد الرحمن السقاف

والشيخ عبد الله أبوبكر (العيدروس الأكبر) وله قبة في مقبرة زنبل.

والشيخ العيدروس الأوسط، وله قبة في المقبرة نفسها.

والعلّم الأشهر صاحب الكتب في التصوف، وناظم المولد، السيد
عبد الله بن علوي الحداد
ومن المعاصرين:

علي بن حفيظ المشهور أخو الشيخ عمر، المؤرخ والفقهاء،
ورئيس مجلس الإفتاء، ورئيس دار المصطفى.
والعلامة أبوبكر علي المشهور العدني صاحب كلية الوسطية
ورباط المهاجر.

كانت السيارة تتوغل بنا داخل المدينة وفي شوارعها القديمة
المرصوفة بالحجارة، وقد لاحظت أن معظم بيوت المدينة مبنية
بالطين، لكن عمارتها جميلة ومطرزة كأنها من تلك المخطوطات
القابعة في الدار.

وما زلنا نتبادل الحديث حتى وصلنا إلى وسط المدينة حيث تقع
محطة فرزة سيؤون عند مؤسسة العمقي للصرافة.

شكرنا صاحب السيارة على تكمه بإيصالنا إلى وسط السوق رغم
أنها لم تكن وجهته، لكن يبدو أنه من محبي دار الحبيب المصطفى
حيث تحمّس لتوصيلنا حين عرف أنه سيكون ضمن خطة زيارتنا.
ذهب رفيقي إلى بقالة قريبة ليجري بعض الاتصالات التي تسهل
لنا لقاء الشيخ المؤرخ علي المشهور، ولقاء العلامة أبي بكر العدني

المشهور، وجلست أنا على دكة في يمين السوق، وفتحت هاتفي
أطلب رقم هاتف الشيخ العلامة علي سالم بكير؛ ليكون أول
محطة لنا في هذه الزيارة.

زيارة الشيخ علي بكير

ما أن نزلنا في مدينة تريم حتى اتصلنا بالشيخ علي بكير على هاتفه
الأرضي، فرد علينا هو بنفسه، وأخبرناه أننا نود زيارته فرحّب بنا
وأخبرنا أنه ينتظرنا في بيته في (عيديد)، وعيديد اسم حي في طرف
المدينة ينسب إلى فقيه كان أول من سكنه في القرن الثالث عشر
الهجري، حاول هذا الفقيه أن يتعد عن المدينة، ولكن مع مرور
السنين زحفت المدينة إليه، خيرني رفيقي محمد بين الركوب إلى
هناك أو المشي بالأقدام، ففضلت أن نسير في المدينة نتعرف عليها
ونرى معالمها، كنت أنظر إلى البيوت في الجبل وهي معلقة يتكئ
بعضها على بعض وكأنها تتساند وتتعامد خشية أن تنزلق إلى أسفل
الجبل، بعد أن قضى بعضها دهرًا طويلًا وهو يطل على المدينة
ويراقبها من بعيد، أما الجبل فيبدو أنها سرت إليه روح الفقه ومزاج
العلم، فيبدو لك شيخًا وقورًا يقبض على لحيته الطويلة البيضاء،

وهو يرى حركة الحياة وتوالي القرون، فيسمع نواح البواكي، وأغاني الأعراس، واحتفالات الميلاد، وأحزان الموت، ويستنشق البخور من منارات المساجد.

طلب مني رفيقي أن نخرج على مقبرة (زمبل) التي تقع على الشارع مباشرة بل يقسمها الشارع نصفين، ومسيرنا كان في الاتجاه الأيسر منها، فقال هذه المقبرة دُفِن فيها الصحابة والتابعون والمحاربون الذين قُتِلوا في حروب الردة، فولجنا نسلم عليهم وندعو لهم، فرأيت في الجانب الأيمن من المقبرة عددًا من القباب والأضرحة وهو ما يشي بأثر الفكر الصوفي في المدينة من عهود طويلة.

تعبت من السير فأشرت على رفيقي بالركوب، ومع أقرب سيارة وصلنا إلى أمام بيت الشيخ علي، كان بيتًا متواضعًا قديمًا يتكون من دورين، أبواب ونوافذ بالزخرفة الحضرمية القديمة والبسيطة. وما أن طرقتنا الباب حتى أطل علينا الشيخ من نافذة غرفته في الدور الثاني أن اصعدوا، فُتح الباب واتجهنا عبر درج ضيق إلى حيث تقع غرفة الشيخ، وما أن وقفت على الباب حتى رأيت الشيخ متكئًا على فراش في ركن غرفته البسيطة يقلب كتاب (هموم داعية) للشيخ محمد الغزالي، وفي الجدار الذي واجهنا هناك صورة معلقة، علمت أنها لأبيه الراحل العالم الفقيه سالم بن سعيد بكير كبير علماء تريم.

نهض الشيخ بهدوء لاستقبالنا وهو يصلح زرار (شميزه)، صافحناه بإجلال، فأخذ يكلمنا وهو واقف ويرحب بنا، فوجدته يتكلم بغضب وعصبية، وأخذ يشكو إلينا العبث الحاصل في الفتاوى من بعض المتسلقين على العلم، يبدو أنه كان يعالج مشكلة في الهاتف قبل ولوجنا عليه، أطال القيام وهو يتكلم ويشرح لنا القضية التي هو بصددھا قبل دخولنا، فأخذ يسترجع ويحوقل ويفرك كفيھ ويحكُّ لحيته، بقينا وقوفاً نستمع إليه، وفهمت أنه لا يريد الجلوس، فوقفت أستمع إليه، فلما أكمل قصته تناول مشطاً بقربه وأخذ يمشط لحيته، ويعدل عمامته، ويصلح ثيابه، ثم رمى بسجادة أمامه ليصلي الضحى، وقبل أن يكبر ابتسم وقال: اجلسوا حتى أصلي، وكأنه شعر أنه بسبب ما أزعجه نسي أن يأذن لنا بالجلوس. أخذ الشيخ يصلي، وأنا أقلب بصري في هذه الغرفة البسيطة المتواضعة، وهذا الشيخ الذي يقيم بين جدرانها، عالم من كبار العلماء، متفنن في العلوم، ومتبحر في المذهب الشافعي، متعمق في الفقه المقارن، متضلّع في التاريخ والأدب، يا الله! كم في هذه الغرفة من شمائل تنطوي عليها جوانح هذا الشيخ النحيف! كم مر على هذه الغرفة من علماء وطلاب معارف وزوار!، كم شهدت هذه الغرفة من مباحثات ومدارسات وفضٍّ لأبكار المعاني المستصعبات! كم ورد إلى هذا

المنهل من أطراف اليمن من عشاق! كان الشيخ يركع ويسجد وأنا أكاد أضع يدي على كبدي من شدة الوجد والألم والحنين، يا الله! ما هذا الإهمال الذي يحيط بهذا العالم الجليل؟! هناك فرش ووسائد مبعثرة، وقصاصات متفرقة، وكراسات هنا وهناك، الإهمال والعشوائية هي أبرز سمات المكان، حتى الماء لم نستطع الحصول على شربة ماء نبل بها شفاهنا من الظمأ، تذكرت القول المشهور للإمام الشافعي: «الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به»، وهذا ما يحصل تمامًا مع هذا العالم الجليل _للأسف_، ليس له طلاب يلتفون حوله ويعتنون بعلمه، وليس له معاونون يرتبون أعماله، أو سكرتارية تدير برامجه. الرجل تقدم به السن، ووهن منه العظم، وزحفت عليه السنون، وزحفت معها الإهمال.

ليت وراء هذا العالم مؤسسة أو جهة توفر له كل أسباب الراحة والتفرغ والإنجاز! للأسف هكذا يهمل أهل السنة علماءهم، لاسيما حين يكونون مستقلين؛ ليس لهم حزب ولا جماعة.

سلم الشيخ، ثم وقف وأخذ يكلمني وهو واقف، فوقفت قبالته أشاركه الحديث، ثم قص لي قصة طالب علم وزوجته طالبة العلم الذين تخرجوا من المراكز العلمية، ثم حصل بينهما طلاق فتعاملوا معه علمياً بطريقة تخالف الإجماع، ثم قال: هؤلاء يهجمون على

الأدلة دون علم، ودون فهم للأصول والقواعد، ودون النظر في علم الخلاف. يبدو أن ثورة الشيخ لم تتوقف، وأن هناك مسائل كثيرة تكاثرت عليه واستفزته قبل مجيئنا.

خفتُ ثورته، فجلس متكئاً على فراشه، وأخذ يسألنا عن عدن وبعض طلاب العلم، ويسأل عن وجهتنا وزيارتنا، ثم سألته أنا بعض الأسئلة الفقهية، وقبل أن نودعه طلبنا منه أن نلتقط معه صورة، ثم ودعناه وانصرفنا

وللشيخ كتابان مطبوعان هما:

- إرشاد المتأمل إلى الفرق بين الاستغاثة والتوسل

- رجال وكتب.

تعريف بالشيخ بكير:

(لخصت هذا من ترجمة للشيخ كتبها تلميذه الدكتور نجيب لبيب العدني)

اسمه علي بن سالم بن سعيد بكير باغيثان، ولد في تريم الغناء في ١٥ / ذي الحجة / ١٣٦١ هـ الموافق ٢٣ / ١٢ / ١٩٤٢ م.

تتلمذ على عدد من الفقهاء في رباط تريم والمعهد الفقهي، ونهل العلم من والده العلامة سالم بن سعيد بكير، الذي كان رئيس مجلس الإفتاء الشرعي في تريم. ومن شيوخه أيضاً العلامة محمد بن سالم بن حفيظ، والد الشيخ عمر بن حفيظ.

تولى أمانة مكتبة الأحقاف للمخطوطات في تريم.

ودخل عدن في السبعينيات زمن قتل العلماء واضطهادهم، ودرّس في كريتر بمسجد حامد.

وهو عضو مجلس الشورى، وعضو في جمعية علماء اليمن.

له عدد من الأبحاث في الفقه والتاريخ والأدب لم يطبع منها إلا القليل.

اشتغل بالتدريس مدة طويلة، وما زال إلى يومنا منشغلاً بذلك

ويحل قضايا الناس على كبر سنه ومرضه.

يمتاز شيخنا الجليل بسعة الاطلاع، ليس على المذهب الشافعي وكتبه فقط؛ بل وعلى المذاهب والآراء الفقهية الأخرى، ولعل ما ساعده على ذلك هو ملازمته لوالده العلامة مفتي تريم، الذي كان مطلعاً على المذاهب الفقهية، يُعرف ذلك من رسالته (وضوح البطلان، في الحكم بعدم الفطر بالحقن بالإبرة في نهار رمضان). وقد حكى لي شيخنا العلامة علي سالم بكير أن والده كان أول من أدخل المغني لابن قدامة إلى تريم بحسب علمه، وقال لي أيضاً: ولا أعلم أحداً أدخل المحلى لابن حزم إلى تريم قبلي، وهذا يدل على حرصه على الاطلاع على أقوال الفقهاء، ولو من غير أهل المذاهب الأربعة،

قال: «كان والدي - رحمه الله - يقوم من الليل نحو ساعتين، وهو ما يسمى أذان الربع (أي بقي من الليل ربه)، ويصلي إلى الفجر، وكان ينام القيلولة عشرين دقيقة».

باشر شيخنا العلامة علي بن سالم بكير الإفتاء والتدريس مدة طويلة من عمره، وما زال - وفقه الله -، وذلك من أسباب قوة استحضاره للفقهِ ومسائله، وهو يفتي في عدد من المسائل بخلاف المعتمد في المذهب، هذه بعضها:

- ١) جواز إخراج النقد في زكاة الفطر، وهو مذهب الحنفية.
- ٢) قطرة الأذن لا تفتّر الصائم، وهو اختيار الغزالي وابن أبي الدم.
- ٣) جدة ليست ميقاتاً مكانياً، خلافاً لابن حجر وابن زياد ومن قلدهما من متأخري الشافعية.
- ٤) يجزئ التضحية بضأن عمره ستة أشهر كما قال الشيخ أبو إسحاق الشيرازي، وهو مذهب الحنابلة.
- ٥) جواز الأكل من الأضحية المندورة، كما هو مذهب المالكية والحنابلة.
- ٦) أن المطلق دون الثلاث إذا تزوج زوجته مرةً أخرى بعد أن تزوجت بغيره؛ ترجع إليه بالثلاث، وهو مذهب الحنفية، خلافاً للجمهور.
- ٧) أنه يفتي - أحياناً - بأنّ الطلاق المعلق، إن قصد به الزوج ربط الطلاق بأمر، وقع، وإن قصد حمل نفسه على فعل أو منعها منه، لا يقع.
- ٨) يفتي - أحياناً - أن طلاق الثلاث يقع واحدة، وهو مذهب جماعة من العلماء، وقد أطلعته على رسالة بعنوان: (تسمية المفتين بأن طلاق الثلاث يقع واحدة)، فأعجب بها.
- ٩) أن الصلاة عند قبور الأنبياء - عليهم السلام - منهي عنها؛ سداً

لذريعة اتخاذها مسجداً، كما قاله الزركشي.
 (١٠) جواز المساقاة على سائر الثمار أخذًا بالقديم، بل لو أعطى
 صاحب النحل نحله لعامل يريعه على أن له جزءاً من العسل صح
 ذلك.

(تلك عشرة كاملة)، وفيها الكفاية.

كنتُ أظنُّ أنّ شيخنا العلامة علي بن سالم بكير تتلمذ أو التقى
 بعلامة عدن محمد بن سالم البيحاني - رحمه الله -، فسألته عن
 ذلك، فأجاب أنه لم يلتق به، وأنه دخل عدن عام ١٩٧٣م، وكان
 العلامة البيحاني حينها قد توفي في تعز في فبراير ١٩٧٢م.

إلا أنّ شيخنا يحمل الكثير من الاحترام والتقدير لعلامة عدن ويثني
 على مواقفه وكتبه، وهو الذي أرشدني إلى كتابه (أشعة الأنوار) ولم
 أكن أعرفه، ثم قرأته مرتين، وهو الذي درّسنا منظومته الرائقة (تربية
 البنين) وأطنب في الثناء على (أستاذ المرأة) و (إصلاح المجتمع).
 بل سمعته أكثر من مرة يقول: «في ظني لم يتخرج أحد من رباط
 تريم أفضل من الشيخ محمد البيحاني».

صحيح لم يلتق شيخنا العلامة علي بن سالم بكير بعلامة عدن
 البيحاني؛ لكنه كان على علاقة طيبة بطلابه وتلاميذه، ومن أبرزهم
 الشيخ محمد عبد الرب جابر اليافعي تلميذ العلامة البيحاني، الذي

كان البيهاني يستخلفه للخطابة، كان شيخنا يزوره إلى بيته عندما يأتي إلى عدن، ومرّة طلب منه أن يجيزنا ففعل - رحمه الله رحمة واسعة -.

من عاداته - حفظه الله - إذا أتى إلى عدن أنه يزور أصدقاءه القدامى منهم: الأستاذ فيصل بن شملان (المرشح الرئاسي)، ومحمد عبد الرب جابر - رحمهما الله -، وثالث في مدينة الشعب نسيت اسمه. وشيخنا العلامة لا يحب أن يقرّظ الكتب إلا فيما ندر، وقد رأيت أنه اعتذر لكثيرين، ولم أجده كتبَ تقديمًا إلا لثلاثة من الأحياء، هم: الشيخ أحمد المعلم في كتابه (القبورية)، والأستاذ كرامة مبارك بامؤن في كتابه (الفكر والمجتمع في حضرموت)، والشيخ سعيد عيضة الجابري في كتابه (المجموع).

عندما تجالس الشيخ تجده يسبح في التاريخ، ويبحر في الأدب، ويتحدث عن دواوين الشعراء المتقدمين والمتأخرين.

في دار المصطفى

مع ضحى يوم الخميس ٤ أكتوبر ٢٠١٨م كنت ورفيقي محمد عند بوابة دار المصطفى للعلوم الشرعية تريم. عرّف بنا الأخ محمد، فاستقبلنا المشرفون بابتسامات ضاحكة، ورحبوا بنا بحرارة، ولجنا الدار فبدت لنا كخلية نحل، عدد الطلاب بالمئات ومن مختلف الجنسيات، فيهم مئات من الإندونيسيين وعدد من الماليزيين، حركة الطلاب ودويهم يملأ المكان، وكتب الطلاب مفرقة في النوافذ وعلى الرفوف، تلمس حماساً لطلب العلم وشغفاً بالكتب.

المكان نظيف ومنظم يدل على حسن إدارة واهتمام كبير. أخذ أحد المشرفين بأيدينا؛ ليطوف بنا على مرافق الدار ودوائرها، فهنا المكتبة، وهنا دار الأبحاث، وهذا المركز الإعلامي والإذاعة، وهناك المدرسة الأهلية الابتدائية والثانوية، وهذه العيادة... إلى غيرها من المرافق. انتهينا من الطواف في الدورين، ثم هبطنا إلى المسجد، فوجدنا عددًا من الطلاب متفرقين في باحة المسجد، جاء بعضهم يسلم علينا، وكنت أسألهم عن أسمائهم ومدنهم، فهذا السقف من رداع، وهذا الجفري من البيضاء، وهذا السفيناني من

حضر موت، وهذا...، وهذا...

كان رفيقي محمد يحدثني عن الدار بإعجاب ودهشة، وعن شيخها الشيخ عمر بن حفيظ، ومحمد تربطه علاقة متينة بالدار ومشايخها، وقد قص لي بعض القصص الدالة على عمق علاقته بالحبيب عمر بن حفيظ، وشكا لي من بعض أبناء قريته (الريدة الشرقية) الذين يعارضون تصوفه، ثم حدثني عن مناقب الشيخ عمر بن حفيظ وكراماته وزهده وتعففه عن المال.

أذن المؤذن لصلاة الظهر، وبعد الأذان وقيل الصلاة أُلقيت بعض الأوراد والأذكار بأصوات جميلة، وكذلك أُلقيت أذكار أخرى بعد الصلاة بأصوات جميلة مرتفعة، أما الصلاة فكانت خفيفة جداً، وقد صلى بنا شاب إندونيسي.

جلست بعد الصلاة في آخر المسجد على كرسي بلاستيكي، وكنت أنظر إلى مقررات الطلاب، فلمست اهتماماً بدراسة المذهب الشافعي، ودراسة الأدب واللغة، والاهتمام بالأدب شيء يميز دار المصطفى عن غيرها من المراكز العلمية، وقد كان الأدب من اهتمامات الحلقات العلمية في عصور السلف، ولهذا ظهرت اللغة الأدبية الراقية على كتاباتهم، حتى إن الشيخ محمود شاكر قال: قرأت كتاب الأم للشافعي ثلاث مرات، ليس طلباً للفقه وإنما

طلبنا للأدب، وقال الإمام الشافعي: من تعلم العربية رق طبعه. شعرت بالإرهاق فاسترخيت على الكرسي حتى زحف النعاس إلى عيني، إذ جاء محمد وأخذني إلى الديوان، وهو مكان مخصص للضيوف، فجلست هناك، وطالعت بعض المجلات التي تصدر عن الدار والأربطة المجاورة.

وفي الديوان دخل علينا شاب حسن الثياب والهيئة، طيب الأخلاق اسمه (العيدروس)، يبدو أنه مدرس في الدار، فرحب بي، ثم سألني عن أحوالي ورحلتي وزياراتي، وجلس قليلاً ثم استأذن بلطف، وبعدها جاءني محمد واستنهضنا لنتقل إلى المسجد وننام فيه إلى العصر، ولأن بيني وبين النوم خصاماً فقد تناولت كتيباً صغيراً وجدته في رف المسجد اسمه (رحلة المغربي)، فانشغلت بقراءته، بينما كان رفيقي محمد يغطُّ في نوم عميق بحيث يصلني شخيرته، فيبدو أنه كان مرهقاً من رحلتنا. والكتيب هذا يصف رحلة شاب مغربي إلى تريم.

بعد صلاة العصر قررنا زيارة أحد المدرسين في الدار إلى بيته وهو يحمل شهادة الدكتور، وفي طريقنا إلى بيته سألت محمداً عن هذه الأوراد التي تقال قبل الصلاة وبعدها، فقال إن من ابتكرها هو الإمام (عبد الله بن علوي الحداد) مجدد الطريقة الباعلوية، وصلنا بيت

الدكتور ففرح بزيارتنا إذ تربطه ببعض صحبي علاقة متينة، قدم لنا الدكتور الشاي والقهوة والتمر والمكسرات، وأخذ يكرر الترحاب بنا، ثم أخذ يحدثنا عن أخباره ودراسته حتى وصل إلى الحديث عن خلافه مع (الوهابية)، فأخذ يرتفع صوته ويتكلم بعصبية، ويشد على الحروف وربما قبض كفه وضرب به على البلاط، ثم أخذ يصف (الوهابية) بأوصاف حادة وشنيعة، ويبدو أن سنوات الصراع معهم أثرت على مواقفه، ثم أخبرنا عن بعض كرامات المشايخ في الدار، منها أن زوجة أحد مشايخه كانت حاملاً، وأن الطيبة أخبرتهم أن في بطنها بنتاً، وذلك بعد أن كرروا الكشف بالجهاز في ثلاث زيارات، بينما كان شيخه يؤكد له أن ما في بطن زوجته غلام ذكر، فلما وضعت زوجته كان كما قال الشيخ، فسمى ذلك المولود محمداً بينما كان سيسمي البنت رابعة.

كان من المفترض أن نصلي المغرب في دار المصطفى؛ لنتقي بعض المشايخ لاسيما الشيخ المؤرخ علي المشهور، وبينما كنا قريباً من المسجد تذكر محمد أن اليوم خميس وهو يوم يقام فيه المولد ومن الصعب أن نلتقي أحداً، فصلينا المغرب ثم انصرفنا متجهين إلى (بور)، فمشينا إلى محطة فرزة سيؤون ولم نجد سيارة، فركبنا إلى الجولة، ومنها إلى نقطة السويري، ثم مع سيارة أخرى

إلى المفرق، فوقفنا هناك ما يقرب من نصف ساعة لتأخذنا سيارة إلى قرية بير المديني.

تعريف موجز بدار المصطفى

تأسست دار المصطفى بتريم عام ١٤١٤هـ، أسسها الشيخ عمر بن حفيظ.

وتقوم الدار على ثلاث ركائز: فهي في المذهب الفقهي (شافعية)، وفي المذهب العقدي (أشعرية)، وفي المذهب السلوكي على الطريقة الصوفية (الباعلوية).

والطريقة الباعلوية أسسها (محمد بن علي باعلوي) الملقب بلفقيه (المقدم) المتوفى في تريم سنة ٦٥٣هـ، وهو تلقاها من بعض الحجاج المغاربة، الذين تلقوها عن أبي مدين المغربي. ويقال إن الحاج المغربي هذا جاء إلى تريم ومات في مدينة العرم بشبوة، ثم جرى تجديد الطريقة على يد (عبد الله بن علوي الحداد) المتوفى عام ١٣٢هـ، وهذه الطريقة لها انتشار في الهند وإندونيسيا وماليزيا والفلبين وسنغافورة وكينيا وماليزيا.

أقسام الدار

يدرس الطالب في الدار علوم القرآن الكريم، وعلوم السنة النبوية، والفقه، والتاريخ، والدعوة، واللغة العربية، والاعتقاد والتزكية، خلال خمس مراحل، هي:

(الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، والعالمية، والمشيخة)

وهناك قسم تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.

يتبع الدار (مدارس دار المصطفى)، وهي مدارس للبنين والبنات، تدرس مناهج وزارة التربية والتعليم مع بعض الإضافات الشرعية والالتزام ببرامج الدار، وهناك دار الزهراء للنساء، كما تتبع الدار ثمانية أربطة في اليمن وخارجها.

حادثتان

وقبل أن أعاد سَيؤون لابد أن أعرج على حادثتين:

الأولى: قصة الدكتور شكري باعباد، وقد حدثني بهذه القصة الشيخ أبو بكر بلفقيه منذ زمن، لكنني كنت حريصاً على لقاء صاحب القصة نفسه حتى أتلقاها عنه بسند عال.

فلما نزلنا في سيؤون، شاء الله تعالى أن التقى صاحب القصة نفسه. وصاحب القصة هو الدكتور الداعية شكري باعباد، فاستدرجته دون أن يشعر حتى حكى لي القصة فسمعتها منه مباشرة.

وخلاصة القصة أن الدكتور شكري باعباد - وهو حاصل على الدكتوراه في علم الإدارة من بريطانيا منذ زمن طويل - خرج في رحلة دعوية إلى باكستان لعدة أشهر، وكان يشعر من مدة بضعف ووهن واعتلال في صحته، وكان يؤجّل مراجعة الطبيب من وقت لآخر مع قلة ذات اليد، فلما كان في كراتشي ساءت حالته وضعفت رجلاه عن حمله، وشعر بوجع شديد في قلبه، فقرر الذهاب إلى أقرب مركز للقلب هناك بما معه من القليل من المال، فلما وصل إلى الطبيب وأجرى له معاينة أولية أدرك الطبيب بحكم خبرته أن

مشكلة المريض خطيرة، فكان يأخذ ويعطي معه، وكانا يتكلمان الإنجليزية، فإذا الدكتور فجأة يقول له: هل أنت شكري باعباد الذي كان يدرس علوم إدارية في لندن؟
قال: نعم.

قال الدكتور: باعباد هل عرفتني؟ أنا (طيب باشا)، كنت أدرس طب في لندن في دفعتك نفسها، وكنت أنت تدرس مع أخي (رضوان باشا).

قال: فلما ذكر أخاه تذكّرت، وفي الحال اتصل برضوان وأخذ يكلمني متعجبًا من الأقدار التي جمعتنا.

بعد الكشف والفحوصات والأجهزة تبين أن المريض يحتاج إلى عملية القلب المفتوح، وعندها تكفل الطبيب (طيب باشا) بكل تكاليف العلاج والعملية والفحوصات والأدوية والإقامة في المستشفى.

فسبحان من قاده من حضرموت إلى هذا المكان، وألهمه الدخول إلى هذا المركز ليجد عناية الله تحوطه من كل مكان.
وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

الثانية: لقد كنت حريصًا أشد الحرص على لقاء الشيخ (طالب الكثيري)، وهو من مشايخ حضرموت ودعاتها، يقيم في سيؤون،

وله فيها نشاط تعليمي ودعوي، وقد كتب الله له القبول، وكنت قد تعرفت عليه في زيارة له إلى عدن.

حصلت على رقم هاتف سائقه الخاص، فتواصلت معه وأبدت له رغبتني في زيارة الشيخ، ووعدني بأن يأتيني إلى المركز ليأخذني إلى الشيخ لنتقيه بعد المغرب، ولكنني انتظرت وانتظرت ولم يأت وحاولت الاتصال به فكان هاتفه مغلقاً، ولكن بعد أن غادرنا سيئون اتصل عليّ واعتذر بتعطل السيارة، فأخبرته أننا غادرنا، ولعل الله يكتب لنا زيارة قادمة، وحمّلته تحياتي للشيخ.

إلى الحدود العمانية

وصلت مجموعة من الإخوة من صنعاء بسيارة (هايس)، وهي ملك الأخ عبد الغني القليصي، وهؤلاء الإخوة سيصبحوننا إلى عمان ثم سينقسمون إلى مجموعتين، مجموعة ستغادر إلى ماليزيا، ومجموعة أخرى سترافقنا إلى باكستان، أمير هذه الجماعة هو الشيخ محسن المرادي من الرضمة، وفيهم ثلاثة أشقاء، أحدهم سافر معنا إلى باكستان، بينما سافر أخواه إلى ماليزيا.

جلسنا جميعاً نتشاور، فتقرر أن نغادر سيئون اليوم السبت الساعة

الثانية ظهرًا ثم نبئت في (رماة)، ومن ثم نغادر صبيحة الأحد إلى منفذ شحن، ودفع كل واحد منا أجره السيارة للأخ عبد الغني القليصي الذي سيسافر إلى ماليزيا، وكانت أجره السيارة أحد عشر ألف ريال عن كل واحد.

وهكذا انطلقت بنا السيارة إلى تريم ومنها إلى السوم، ثم صعدت جبالاً شاهقة ضمن سلسلة جبلية طويلة هي جبال (عصم وعشة وعشعش)، حتى وصلنا مع صلاة المغرب إلى أعلى الجبال، وهناك وجدنا نقطة عسكرية وبقالة ومصلى صغير هو مستطيل من (البلك) فرشت فيه قطائف زحف إليها التراب والأوساخ، فنظفنا المصلى وتوضأنا من بركة ماء هناك، وصلينا المغرب في تلك النقطة التي يسمونها نقطة (عشعش)، وبعد الصلاة بدأنا في هبوط هذه السلاسل الجبلية لنحدر إلى (ثمود)، وهي منطقة اسمها كبير وإن كانت مدينة صغيرة نائية قليلة الخدمات، وفيها قبائل المناهيل والعوامر والصيعر. والحقيقة أنني كنت حريصاً على التعرف على ثمود؛ لكثرة ما كان يذكرها أبي في قصص رحلاته عندما كان عسكرياً أيام الإنجليز ومن بعدهم.

في رماة

وصلنا إلى مدينة رماة الساعة الثامنة وعشرين دقيقة بالضبط، وهناك نزلنا في مسجد كبير، وجلسنا نتذاكر ونرسم برنامج البقاء في رماة والانطلاق، وفي الليل خرجت المدينة أتعرف عليها وأشحن هاتفي بباقة وحدات، وجدتها مدينة صغيرة تقع وسط الصحراء، تحيط بها قبائل المناهيل وصمودة، بعد طواف يسير في المدينة وشارعها الوحيد والكلام مع بعض الناس والسؤال عن المدينة رجعت إلى المسجد، فوجدت الإخوة يستعدون للنوم، فمنا هناك، قمنا الفجر يوم الأحد وصلينا ثم انتحينا جانباً لنقيم برامجنا الدعوية ونشاور في أمر انطلاقنا، وكنا ننتظر ردّاً من بعض الإخوة في المنفذ، فرأينا أن ننتظر إلى الظهر، فجاء بعض الكرماء من المدينة وأقسم ألا نغادر حتى يستضيفنا على الغداء، ولقد أكرمنا وبالغ، رغم أنه لا يعرفنا ولا نعرفه، وبعد الغداء مباشرة غادرنا رماة الساعة الواحدة وعشرين دقيقة، وهكذا مررنا بعدة قرى وآبار وبيوت للبدو، ومما لمحتة بئر اسمها (أم الصحراء) ثم مشروع (آبار ذي كوت)، والحقيقة أنه بقايا مشروع ومسجد زحف إليه الرمل وتجمعت فيه

مياه الأمطار، وقريب منه مزرعة عليها سور كبير وفيها بيت ضخم، وبراقات لمعسكر يبدو أنه رحل من المكان بسبب مشاكل ثورة ٢٠١١م. ومازلنا نخترق هذه الصحراء القاحلة والبيد المهلكة، حتى وصلنا إلى مدينة شحن الساعة الرابعة وأربعين دقيقة عصرًا.

في منفذ شحن

شحن هو ميناء بري مع عمان حوله مدينة صغيرة. يبعد عن مدينة الغيضة عاصمة المهرة مسافة ٢٣٠ كيلو متر تقريبًا. وصلنا إلى شحن ولم تخرج لنا تأشيرات الدخول إلى عمان، فنزلنا في مسجد داخل المدينة وصلينا هناك المغرب والعشاء، وتكلم بعض الإخوة وقمنا ببرامجنا الدعوية. كان في استقبالنا بعض الأكارم، فقدموا لنا عشاء مع لبن الإبل، ثم بتنا هناك، وكان من المقرر أن نستكمل برنامجنا الدعوي في المسجد بعد الفجر، ولكن ما أن سلّم الإمام من الصلاة حتى قفز شاب سلفي وأخذ الميكروفون وأخذ يتكلم عن ضرورة العلم للدعوة، ويحذر من القيام بالدعوة بدون علم، وقد اجتمع معه عدد من الإخوة السلفيين، فلما أكمل كلمته انصرف يحيط به إخوانه، ثم انتحينا نحن جانبًا نستكمل برامجنا

حتى الساعة التاسعة صباحًا، فانطلقنا من المدينة إلى المنفذ، وكنا نرجو أن نجد التأشيرات قد خرجت، وبينما كنت أتجول في المنفذ إذا بشخص يناديني .. ناصر الوليدي _ ناصر الوليدي .. فذهبت إليه، فإذا هو شاب حسن المظهر يحمل رتبته العسكرية فسلم عليّ وصافحني وعانقني، وقال أنا صلاح مسود صديق معك في الفيس بوك، عرفتكم ما أن رأيته من بعيد...

وأكد لنا الموظفون في المنفذ أن التأشيرات لم تخرج بعد، فعدنا إلى مسجد الإيمان بجانب المنفذ، وبقينا هناك أيامًا، وفي هذه الأيام كانت لنا دروس وكلمات وخروج دعوي خارج المسجد، وفي المسجد تعرفنا على مدير الجمارك، وكان رجلًا فاضلاً محافظاً، على صلاة الجماعة ويحرص على حضور الدروس والكلمات، حتى إني رأيت عينيه تذرفان من الدموع وهو يستمع لبعض القصص. وفي هذا المسجد وجدت مكتبة تحتوي على بعض الكتب الجميلة، منها الصحيحان، والسنن، والبداية والنهاية، وتفسير ابن كثير، وسيرة ابن هشام، وأحكام القرآن لابن العربي، والظلال، وفتاوى معاصرة للقرضاوي وغيرها.

كنت أقرأ في كتاب فتاوى معاصرة فكان مما قرأته كلامًا للشيخ يوسف القرضاوي بعنوان (مذهب الشيخ يوسف).

مذهب الشيخ يوسف

ولد الشيخ يوسف القرضاوي في قرية (صفت تراب) من قرى مركز المحلة الكبرى، وهذه القرية دفن فيها الصحابي الجليل عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي - رضي الله عنه - وهو آخر من مات من الصحابة بمصر.

وكان الشيخ في مطلع شبابه في تلك القرية شخصية علمية معروفة أثارت جدلاً بسبب عدم تقيده بالمذهب، فكان متأثراً بكتابات سيد سابق - رحمه الله - في الانتصار لفقهِ الدليل، ورغم معارضة الكثيرين له؛ إلا أنه وجد أنصاراً ومؤيدين، ومما يذكر في ذلك أن رجلاً لمستته زوجته غير عامدة بعد أن توضأ، فأخذت تعتذر له، فقال لها: لا عليك فلن أعيد الوضوء فأنا على مذهب الشيخ يوسف. وانتشرت مثل هذه الكلمة فكان بعضهم يقول: نحن على مذهب الشيخ يوسف.

إلى سلطنة عمان

بعد صلاة العصر دخلنا المنفذ ثم وقفنا طابورًا مع غيرنا من المسافرين لتختيم الجوازات، وطلب منا الضابط اليمني مبلغ ألف ريال عن كل جواز، فدفع البعض ورفضنا نحن، فأخذ يعطي ويأخذ في الكلام، وفي الأخير اضطر لتختيم جوازاتنا، وفي المنفذ تركنا سيارتنا ليعود لها الأخ عبد الغني القليصي عند عودته من ماليزيا.

بقينا في المنفذ العماني حتى أذان المغرب، وهناك وجدنا مسجدًا نظيفًا مكيفًا، فصلينا المغرب والعشاء. وقد استقبلنا في المنفذ العماني بحفاوة، لفت نظري حسن خلق العسكري العماني، ولباقته، ورقي معاملته، حتى إن أحد الضباط لما رأني أمشي بصعوبة؛ بسبب ثقل الحقيبة، وألم ركبتي؛ أنتزع الحقيبة من كتفي، وحملها هو حتى أوصلنا إلى المسجد.

خرجنا بعد الصلاة مع باص صغير، وركبت أنا بجانب السائق؛ حتى أسأله عن المواقع التي نمر بها، فالمسافة من شحن إلى صلاة أكثر من مائة وخمسين كيلومتر، وهذه المنطقة كلها بسهولة وجبالها الشاهقة كانت تسمى يومًا ظفار، ووصل إليها نفوذ أجدادنا

اليمنيين، بل إن هذه القبائل التي تسكنها هي قبائل يمنية يتكلمون اللغة المهرية التي يقال إن أصلها حميري، وأخبرني السائق ونحن نمر ببعض الجبال أن هذه الجبال تسكنها قبائل يمنية تتكلم اللغة الشحرية.

اللغة الشحرية

ولأني شغوف بتتبع هذه الأمور؛ فقد سألت بعض الإخوة العمانيين في صلاة منهم الأخ أحمد السنجلي وغيره فأخبروني أن الكثيرين هنا يتكلمون هذه اللغة، وهي لغة تنسب إلى قبائل الشحري القضاعية اليمنية، ويقال إن هذه اللغة هي لغة (عاد)، وهي لغة منطوقة غير مكتوبة، فيها الكثير من الكلمات العربية، يتكلم بها أكثر من خمسين ألفاً، وداخل هذه اللغة لهجات واختلافات يسيره تختلف من فخيذة إلى أخرى، كما تسمى أيضاً اللغة الجبالية نسبة لسكان الجبال من قبائل الشحري، وبعضهم يسميها اللغة الظفارية.

في صَلَاة

هبطنا من الجبال إلى صَلَاة ليلاً، فبدت لنا المدينة بأضوائها وكأنها صندوق مجوهرات تتلألأ، ثم اخترقنا شوارعها الجميلة والنظيفة، حتى وصلنا مركز الدعوة بمسجد أبي أيوب الأنصاري، وكان في استقبالنا عدد من الإخوة العمانيين، أذكر منهم الأخ أحمد سعيد، فأنزلونا في الاستقبال المخصص للضيوف، وكان ديواناً مجهزاً بكل الاحتياجات من فرش، وبطانيات، ودواليب، وثلاجات للماء، بل حتى غسالات للثياب وكاويات، وصوابين وأمشاط، ووجدتُ الأخ أوسان الفضلي ينتظري في المركز، وقد جهَّز لي شريحة عمانية، وفرح بقدمي فتعشينا معاً في الديوان، ثم انتحينا جانباً فسمرنا إلى قرب الفجر، ثم غادر هو بعد الفجر إلى المهرة.

جولة في صلاة

خرجت صباح اليوم التالي للتجول في صلاة مع الصديق العماني أحمد سعيد أحمد وكان يتابع بعض إجراءات ولده الذي يدرس الاقتصاد في مدينة (برت) بأستراليا.

فظوّف بي بسيارته (الفورشنر) في أهم شوارعها ومعالمها وأسواقها، ومررنا بجامع أحمد بن علي المعشني وهو من أخوال السلطان قابوس من قبائل الجبال، فلما حان وقت صلاة الظهر صليناها في جامع السلطان قابوس بن سعيد.

وكان من الأماكن التي زرتها (مكتبة الهداية)، وهي مكتبة خاصة تحوي الكثير من الكتب والمراجع الشرعية والأدبية والفكرية والإدارية، منها فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، وكتب ابن عبد البر، وموسوعات الفقه الإسلامي، ودواوين السنة النبوية، وكتب التاريخ كسير أعلام النبلاء وغيرها، وشروح السنة: كفتح الباري، وشرح مسلم، وكتب التفسير، وأحكام القرآن، وتفسير ابن كثير، وتفسير سيد قطب وغيرها.

وهناك رف كبير خاص بكتب العلامة يوسف القرضاوي، ورف

خاص بكتب عبد الكريم بكار، وكتب طارق السويدان.
وجناح للأدب فيه كتب العقاد والزيات والرافعي وكتب روايات
عالمية مترجمة.

بعدما غادرنا المكتبة وانتقلنا إلى الحي التجاري قلت لصديقي:
ما كنت أتوقع أن بعض هذه الكتب تباع هنا بصورة رسمية!
قال صاحبي: صاحب هذه المكتبة يعد متزمتا وغير منفتح، وإلا
فهناك مكتبة كبرى تبعد من هنا فيها ما لا تتوقعه من الكتب، الوضع
هنا جيد، والبلد مستقر، والناس في وئام وتفاهم.

لما غلبني الهوى

حينما زرنا مكتبة الهداية في صلاة، وأخذت أطوف على رفوفها
الوارفة، وأنقل بين عناقيدها الناضجة، وقعت عيني على الكتابين
الذين بحثت عنهما في كل مكتبة زرتها في القاهرة فلم أجدهما؛
أما الكتاب الأول فهو مذكرات الدكتور نجيب الكيلاني المسماة
(لمحات من حياتي)، وأما الثاني فهو كتاب (وحي الرسالة) لأحمد
حسن الزيات رئيس تحرير مجلة الرسالة - رحمهما الله تعالى - .
وقفت عند الكتابين مشدوهاً، وأخذت أقلبهما كما تتلمس

العجوز العمياء وجه حفيدها، ولم أستطع مغادرة المكان، لكن...
والله من لكن...
السعر...

فمذكرات الكيلاني بتسعة ريال عماني، أي بثمانية عشر ألف ريال
يمني، وهي مجلد واحد كبير، وكتاب الزيات بستة عشر ريالاً أي
بأثنين وثلاثين ألف ريال يمني.

أخذت أقدم رجلاً وأوخر رجلاً، وأحسب صرف الريال العماني
بالدولار والسعودي واليمني، وأنظر إلى جيبي وأخرج الفلوس
وأدخلها، وأذهب إلى محاسب المكتبة وأرجع، وكأنني الأم التي
تسمع صراخ ابنتها وهي تضع ابنها البكر، وكان ما يقتضيه العقل
والمنطق ألا أشتري أيّاً من الكتابين، ولكن متى كان للعاشق عقل
ومنطق.

في هذه اللحظة ناداني صديقي العماني: هيا يا شيخ ناصر، مشينا.
وبدون وعي حملت مذكرات الكيلاني وسارعت إلى جيبي
ورميت للعامل تسعة ريالات وسارعت بالخروج؛ خوفاً من
نداءات (وحي الرسالة)، فقد كانت نعمة ندائها تصيبي بما يشبه
التنويم المغناطيسي، وتصنع بوجداني ما تصنع مزامير الحواة الهنود
بالثعابين.

صعدنا السيارة فسألني صديقي عن الكتاب، وأخذ يقلبه ورأى
السعر مكتوب (٩ ريال) فقال: أنت مجنون؟ كيف طابت نفسك أن
تشتريه بتسعة ريال؟
فقلت:

لا تعذل المشتاق في أشواقه
حتى يكون حشاك في أحشائه
وانطلقت السيارة وفي رأسي يتردد نداء (وحي الرسالة).

الدكتور صادق النهاري

تواصل معي تلك الليلة الصديق الدكتور صادق النهاري، حيث
كان يتابع تحركي وقدمي إلى صلالة، ثم طلب رقم هاتفي، فاتصل
عليّ بعد المغرب، فجاءني إلى مركز الدعوة والتبليغ وصلني معنا
العشاء، وانطلقنا بسيارته، وقمنا بزيارة لمستشفى السلطان قابوس
بن سعيد، ووجدنا استعدادات كبيرة، ونقلًا لكثير من المرضى إلى
أماكن آمنة ترقبًا للإعصار.

والدكتور صادق النهاري جراح مسالك في هذا المستشفى منذ
عشر سنوات، بعدها أخذنا نطوف في صلالة حتى كانت محطتنا

ميناء (ريسوت) حيث وجدنا في انتظارنا عددًا من الشباب، أطباء ومهندسين وإعلاميين، فأكرموني بوجبة عشاء يمنية دسمة، وانطلقنا بعدها أنا والدكتور صادق والأخ علي عمر الأنسي إلى إحدى الساحات وسط البلدة، وبدأت سمرتنا مع شاي أحمر بالزنجبيل، ودارت حواراتنا حول اليمنيين في عمان، فقد وصلت الجالية اليمنية إلى عشرة ألف نسمة، وعرجوا على المساعي التي يبذلها السفير لاستثناء الطلاب اليمنيين من الرسوم المدرسي الذي يصل إلى مائة ريال على كل طالب، وهناك تفهم من الإخوة العمانيين لوضع الطالب اليمني في ظل هذه الحرب الضروس، وكانت بالنسبة لي فرصة للتعرف على الأخ علي عمر الأنسي، فقد وجدته رجلاً نبيلًا كريم النفس، كبير الهمة، مترفع عن سفاسف الأمور، صاحب عقل نير ونفس كبيرة، شعرت أي أعرفه من زمن طويل، فاتصل بيني وبينه جبل الود بعد ذلك، وكان يتابع تحركاتنا حتى سافرنا، وبقي يتواصل معي إلى باكستان، وما زال جبل الود بيني وبينه موصولًا حتى كتابة هذه الحروف.

كانت سهرتنا مليئة بالضحكات والحكايات والذكريات، ثم تفرقنا على ميعاد للقاء آخر.

والجدير بالذكر أن الدكتور صادق النهاري في الأصل من تعز،

قدم أبوه إلى حضرموت عام ١٩٥٠م لطلب العلم في رباط تريم، ثم انتقل إلى المهرة وتزوج زوجة أخرى مهرية، وكان داعية ومفتياً للمهرة في تلك الفترة، ثم دخل عمان وتزوج عمانية، وأنجبت له أبناء حصلوا على الجنسية العمانية، وهم إخوة غير أشقاء للدكتور، أما الدكتور فهو مهري، درس في كلية الطب بجامعة عدن، ثم واصل دراسة الماجستير في القاهرة، وحصل على التخصص كجراح في بريطانيا.

ولما كان بعد صلاة العشاء رأيت كثيرًا من المصلين يسلمون عليه مبتسمين وهم يقولون: أهلاً وسهلاً بالدكتور... أيش جابك هنا الليلة؟

إلى السوق المركزي

خرجنا صباحاً في زيارة إلى المدينة، ومررنا على بعض شوارعها وأحيائها حتى وصلنا إلى شارع ٢٣ يوليو حيث تقع السوق الشعبية. في هذه السوق تباع اللحوم بأنواعها الجمال والبقر والغنم، وكذلك أنواع الأسماك والخضار والفواكه، ويلفت نظرك التزام الباعة بزي معين، فباعة اللحم يلبسون الأحمر، وباعة الخضار والفواكه الزي

السماوي، وقد أخبرني البائع محمد البنغالي أن البلدية تغرم العامل غير المنضبط بالزني مبلغاً قدره عشرة ريالات.

تجد أيضاً في هذه السوق الكثير من المبيعات الشعبية، كالسمن البلدي بنوعيه البقري والغنمي، وسعر قارورة (فيمتو) من السمن البقري ستة ريالات، بينما سمن الغنم باثني عشر ريالاً، وكذلك تجد أنواع التمور، وجوز الهند الطازج.

إن في مدينة صلالة ثروة حيوانية كبيرة من الإبل والبقر والغنم، حتى إن الأحباب أغرقونا في اللبن، حيث يقدمون لنا طستاً في الصباح وطستاً في الليل فنشرب منه ليل نهار، وأحد الأحباب يملك ٤٠ ناقة و ١٠٠ بقرة ومئات الغنم.

وهذه قائمة تقريبية بالأسعار:

كيلو لحم بقري ٣ ريال.

كيلو لحم الإبل ٣ ريال.

كيلو لحم الغنم ٥ , ٢ ريال.

الأسماك: الكيلو من ٢ - ١ ريال.

الخضار:

الطماطم ٥ كيلو بريال

البطاطس ٣ كيلو بريال

البصل ٤ كيلو بريال
البطيخ ٤ كيلو بريال
الشمام ٢ كيلو بريال
الرمان ٢ كيلو بريال.
* الريال العماني يساوي ٢٠٠٠ ريال يميني.

إلى مسقط

فلما كان يوم الخميس ١١ أكتوبر صلينا العشاء في جامع أحمد بن علي المعشني عند محطة النقل الجماعي، ومع نقليات الخليج انطلقنا إلى مسقط، وقد جاءنا إلى المركز الدكتور صادق النهاري، وأبى إلا أن يصحبنا بسيارته إلى المحطة، وينتظر هناك حتى يودعنا، وكان من محاسن مرورنا بصلالة تعرفني على الدكتور في ثقافته وحسن سمته واستقامة فكره وتواضعه الجرم، وقد تكونت بيننا مودة متينة أساسها الحب في الله، والهم المشترك.

انطلقت بنا الحافلة بعد صلاة العشاء، وقطعنا مسافة ألف كيلو متر من صلالة إلى مسقط، كانت أغلب هذه المساحات بيد وقفار وقرى نائية، إلا أن الطرق كانت مسفلتة وحديثة، مما يدل على

وجود بنية تحتية متينة. ومررنا في طريقنا بعدد من المدن أذكر منها مدينة (نزوى) التي تصدر باسمها مجلة نزوى الأدبية المعروفة، مللنا من طول السير، وتعبنا من الجلوس، والحافلة تطوى هذه المسافات تحت جناح الليل الذي يحيط بنا سواده من كل مكان، فلم يكن ثمَّ إلا الليل وصوت الحافلة، وما زلنا كذلك حتى طلع الفجر فصليناها في منطقة تسمى آدم في مسجد أبي بكر الصديق، ثم انطلقنا حتى ارتفعت الشمس إلى أن وقفنا على دوار جميل مليء بالأشجار والورود والأزهار والحشائش الخضراء في ضواحي مسقط، وهناك نزلنا ووجدنا الإخوة العمانيين ينتظروننا، منهم الأخ طلال الوضاحي، وبسياراتهم نقلونا إلى منطقة (السيب القديم) وانقسمنا فريقين، ففي مدخل المدينة نزل الإخوة المسافرون إلى ماليزيا، بينما واصلنا نحن المسير إلى حي (سور الحديدي)، وفي هذا الحي تكثر ألقاب اليوسفي والوضاحي.

ونزلنا في ديوان الضيوف إلى أن يقوم الإخوة بمتابعة التأشيرة من السفارة الباكستانية، وهناك صلينا الجمعة في جامع الرحمة، وكان الخطيب الشيخ الشاب سالم بن عبد الله الوضاحي، وكانت الخطبة عن (الطقس والأجواء والأعاصير)؛ بحكم أن تلك الأيام كانت فيها استعدادات كبيرة لمنخفض جوي وأعاصير قادمة من البحر،

وكان الخطيب شابًا وقورًا من جماعة التبليغ، وقد خرج مع الدعوة منذ كان طفلاً مع أبيه.

ومما لفت نظري الخلاف الفقهي بين صلاة ومسقط، فالمذهب الفقهي في صلاة هو المذهب الشافعي، بينما في مسقط المذهب الإباضي. والمجتمع العماني مجتمع محافظ متدين، فيلفت نظرك اهتمام العمانيين بالصلاة، حيث ترى المساجد ممتلئة في الصلوات الخمس، ويبرز اختلاف المذهب الإباضي عن الشافعي في الصلاة في أربعة أمور: فالإباضية لا يرفعون أيديهم في تكبيرة الإحرام، ويسبلون أيديهم في الصلاة، ولا يجهرون بالتأمين، ويسلمون تسليمه واحدة، أما خطبة الجمعة فهي بكل تفاصيلها تشبه خطبنا في عدن، ولم ألمس فيها أي فرق، اللهم أنه بعد أن ترضى في آخر الخطبة عن الخلفاء الراشدين، والصحابة أجمعين، وأمّهات المؤمنين، والتابعين ومن تبعهم إلى يوم الدين، والدعاء بخيري الدنيا والآخرة، دعا دعاءً مقتضباً للسلطان (قابوس بن سعيد).

بعد صلاة العصر قمنا بزيارة الشيخ أبي صالح عبد الحميد الحديدي، وقد فرح بزيارتنا فرحاً شديداً، وقدم لنا أنواعاً من الفاكهة (بطيخ وشمام وكيوي ورمان)، وقبل أن ننصرف قدم لنا عصيدة عمانية بنية اللون ظننتها في البداية حلوى، وهي عبارة عن

دقيق بُر بلدي وسمن بقري وسكر محروق.
وفي يوم السبت صلينا الفجر في قرية (معبيلة الشمالية)، التي تبعد
عن أماكن إقامتنا في سور الحديدي خمسة كيلومترات، وهناك
التقينا بالإخوة وجلسنا حتى شروق الشمس، وفرشوا لنا ولكل
المصلين الذين حضروا المذاكرة مائدة فاخرة، وبعد الفطور
غادرت أنا والشاب العدني منذر إلى مسقط.

كيف لقيني منذر؟

بعد أن هبطنا نحن والأحباب محافظة (مسقط) تفرقنا إلى فرقتين،
فرقة نزلت في منطقة (الحيل)، وتتكون من ستة دعاة وهم المسافرون
إلى ماليزيا، وفرقة أخرى تتكون من أحد عشر داعية نزلت منطقة
(السيب)، وهم المسافرون إلى باكستان، وأنا مع هذه الفرقة.
كان الأخ منذر فريد يتابع إجراءات بعثة دراسية إلى ألمانيا
منذ عشرين يوماً، وكان يستأجر شقة مع بعض الطلاب في منطقة
(الحيل)، فلما حضرت صلاة المغرب وذهب إلى المسجد وجد
الدعاة اليمينيين فعرفهم من لباسهم فجلس إليهم، وأخذ يتبادل
معهم أطراف الحديث حتى سألتهم: هل جاء أحد منكم من عدن؟

قالوا: نعم، الأستاذ ناصر الوليدي.

فطلب منهم رقم هاتفي، فوجد معهم رقم هاتف الشيخ أبي بكر بلفقيه، فاتصل عليه ونحن في درس كنت أنا من يلقيه بعد أذان العشاء، فسأل عن موقعنا ولم يخبر عن نفسه، ليكون مفاجأة جميلة لي، وباستخدام الخارطة (اللوكيشن) وصل إلى المسجد بدقة، وكانت بحق مفاجأة جميلة بالنسبة لي؛ حيث إنني لم أر منذرًا منذ عام ٢٠١٤م، حيث كان طالبًا في (الدورة القرآنية في العادل)، وكنت أنا أدرّس الطلاب شرح لامية ابن الوردي.

بقي منذر عندنا طول الليل، ولم نتركه يبرحنا، فقد كانت سهرة مائعة وذكريات محببة.

فلما صلينا الفجر في مسجد منطقة (معبيلة الشمالية) وجلسنا هناك نذكر الله حتى صلينا الشروق، قدّم لنا الإخوة العمانيون مائدة فاخرة بطول ضاحي المسجد، ثم عدنا إلى المركز في حي سور الحديد، وفي الساعة الثامنة انطلقنا إلى مسقط التي تبعد عن مركزنا أكثر من خمسين كيلو، واستخدمنا شركة (مواصلات) تتبعها باصات حديثة وجديدة مجهزة بكل وسائل الراحة؛ التكييف، وشبكة النت، ومقاعد وثيرة، فأخذتنا إلى شارع (روي) ومنه طفنا في عدد من الشوارع وأهمها (سوق مطرح)، وهي سوق كبيرة يشبه سوق خان

الخليلي في القاهرة، يرتاده السياح الأجانب من شتى الجنسيات، ثم ذهبنا إلى الكورنيش ورأينا القلعة، ومازلنا نطوف حتى تناولنا وجبة الغداء في مطعم (رفاعي) في الكورنيش، وبقرب هذا المطعم يقع مسجد للطائفة الشيعية الاثني عشرية، وهي طائفة قليلة جدًا من أهل عمان، وقد سمعت المؤذن ينادي (أشهد أن علياً ولي الله) وقد أخبرني منذر بعض أخبار هذه الطائفة.

بعدها انطلقنا إلى شارع روي، ومنه إلى مسجد السلطان قابوس بن سعيد، وهو من أكبر المساجد في السلطنة، وبنائه ضخمة مزخرفة ويحوي باحات ومساحات وحدائق ومكتبة ضخمة لم نتمكن من دخولها بسبب عطلة السبت.

مع صلاة العصر كان خط العودة عبر شوارع مسقط الجميلة المزينة بالأشجار ونوافير الماء والدورات الرائعة والورود البهية. وخلال كل هذه الرحلة أبى الأخ منذر إلا أن يدفع كل مصاريف حركتنا ذهاباً وإياباً ومصاريف المأكولات والمشروبات، وأهداني كوفية عمانية من النوع الفاخر. وودّعنا منذرًا على أمل لقاء آخر لو قُدر وتأخر سفرنا إلى باكستان.

وقضينا يوم الأحد في سور الحديدي، وقد استضافنا صباحًا الأخ جمعة اليوسفي، وقدم لنا طعامًا فاخرًا من خبز الرغيف وخبز عماني

وعدس وبيض وعسل وحقين وزبادي وحبوب زيت الزيتون وجبن سائل.

بعد الفطور خرجت إلى باحة المدينة، ووقفت مع طلاب المدارس أنظر في كتبهم ومقرراتهم، والتقطت بعض الصور معهم، وأخذت أمازحهم وألعب معهم حتى جاءت الحافلة، فأخذتهم وهم يلوحون لي بأيديهم.

إلى باكستان تعريف موجز بباكستان

لم تكن هناك دولة اسمها باكستان على امتداد التاريخ، حتى ظهر هذا الاسم عام ١٩٤٧م، وهي اللحظة التي غادرت فيها بريطانيا القارة الهندية بعد أن رعت تقسيمًا للهند على أساس ديني، فأصبحت هناك دولتان مستقلتان، دولة للأغلبية الهندوسية جنوبًا، ودولة للأغلبية المسلمة شمالًا، ولكن هذه الدولة المسلمة الناشئة المنفصلة عن الهند ستشهد حربًا أهلية عام ١٩٧١م بين باكستان الشرقية وباكستان الغربية، لتدخل الهند في الحرب لصالح باكستان الشرقية، وبعد تسعة أشهر من الحرب تعلن باكستان

الغربية الاستسلام، وبالضبط في ١٦ ديسمبر ١٩٧١م، وبهذا تعلن بنغلاديش نفسها دولة مستقلة لتنضم رسمياً إلى الأمم المتحدة عام ١٩٧٤م. فكانت هذه هي الصورة النهائية لدولة باكستان... ومعنى كلمة (باكستان) باللغة العربية بلاد الأَطهار.

متى دخل الإسلام إلى الهند؟

مع توسع الفتح الإسلامي في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك؛ كان أول فتح حقيقي للهند على يد الشاب محمد بن القاسم الثقفي، الذي وصل إلى مدينة ملتان الواقعة في إقليم البنجاب وسط باكستان، ثم كانت الموجة الأخرى والكبرى على يد السلطان محمود الغزنوي، الذي خاض حوالي سبع عشرة معركة كبرى لإخضاع الهند، وكانت أشهرها معركة سومنات، وهذه المعركة أشار إليها العلامة محمد إقبال -رحمه الله- في شعره الذي يقول فيه:

كنا نرى الأصنام من ذهب

فنهدها ونهدم فوقها الكفارا

وبقيت الهند كلها دولة مسلمة تعاقبت عليها الدول والممالك الإسلامية، حتى كانت آخر مملكة هي سلطنة مغول الهند، التي استمرت لأكثر من ثلاثمائة سنة، منذ أن قدم إلى الهند السلطان بابر

وهو حفيد تيمورلنك من جهة أبيه وحفيد جنكيز خان من جهة أمه، إلا أنه كان سلطاناً مؤمناً أقام للإسلام في الهند دولة متينة الأركان، وهو باني المسجد البابري الشهير الذي هدمه متعصبو الهندوس منذ سنين، وحصلت بسببه فتنة بين المسلمين والهندوس في جمهورية الهند، وبقيت عائلته في الحكم طوال هذه المدة، فكان منهم السلطان المؤمن أورنكزيب، الذي يعد عصره هو العصر الذهبي للإسلام خلال حكم هذه الدولة، وقد استمرت مدة حكمه خمسين سنة كانت من أزهى عصور الإسلام في الهند. وهكذا توارث ملوك هذه العائلة الحكم حتى كان آخرهم السلطان محمد بهادر شاه، الذي خلعتة بريطانيا عام ١٨٥٧م، ومنذ ذلك الحين دخلت القارة الهندية في سلطة الاحتلال البريطاني حتى كان الاستقلال عام ١٩٤٧م.

وكان أول رئيس وزراء لدولة باكستان الوليدة هو محمد علي جناح، ثم توالى الأحداث في باكستان وانفصلت عنها بنغلاديش، وبقيت منطقة كشمير مساحة صراع مستمرة مع الهند إلى اليوم.

ومن أشهر قادة باكستان:

المؤسس محمد علي جناح، وذو الفقار علي بوتو، وابنته بناظير بوتو، وضياء الحق وهو أشهر رئيس باكستاني، ونواز شريف، وبرويز مشرف، ورئيس الوزراء الحالي عمران خان.

وباكستان جمهورية فيدرالية، تبلغ مساحتها قرابة ٩٠٠ ألف كيلو متر مربع، ولغتها الرسمية هي الأردية، وتكتب بالحرف العربي. ومن الناحية الإدارية تنقسم باكستان إلى أربعة أقاليم:

١- إقليم السند، ويقع جنوب البلاد، وعاصمته كراتشي كبرى المدن الباكستانية، ومينائها وعاصمتها التجارية، ويزيد سكان كراتشي على الثلاثين مليون نسمة، وتنتشر في هذا الإقليم اللغة السندية فضلاً عن الأردية.

٢- إقليم البنجاب، ويقع وسط البلاد، وفيه مدينة إسلام آباد العاصمة السياسية للبلاد، وعاصمته مدينة لاهور التاريخية ثاني أكبر مدينة في البلاد، وفيه مدينة فيصل آباد وهي أيضاً من المدن الكبرى.

وكلمة بنجاب كلمة فارسية الأصل تتكون من شقين (بنج) (آب)، وتعني (الأنهار الخمسة)، وسميت كذلك لجريان خمسة أنهار فيها وهي: (نهر هيوم، نهر شيناب، نهر رافي، نهر بيس، نهر استليج)، وجميعها متفرعة من نهر السند، وتنتشر فيه اللغة البنجابية فضلاً عن الأردية.

٣- إقليم بلوشستان، في جهة الغرب، وعاصمتها مدينة كويتا، ولغة أهلها البلوشية فضلاً عن الأردية.

٤- إقليم خيبر بختون خواه، وهو إقليم الشمال البشتوني المجاور لأفغانستان، وعاصمته مدينة بيشاور، ولغة أهله البشتونية، التي هي اللغة الرسمية لأفغانستان.

أما دين الدولة فهو الإسلام، إذ تزيد نسبة المسلمين على ٩٧ ٪، ويوجد أكثر من ١ ٪ من النصاري، وأعداد قليلة من الهندوس والبوذيين والزرادشتيين.

ويبلغ عدد سكان باكستان اليوم ما يقارب مائتي مليون نسمة، معظمهم من السنة، ومذهبهم الفقهي هو المذهب الحنفي، وتوجد أقلية شيعية، وهناك وجود أقل منهم للإسماعيلية.

المغادرة

أخذنا الإخوة العمانيون بسياراتهم من سوق الحديد في السيب القديم إلى مطار مسقط، وفي المطار تابعوا إجراءات سفرنا، وجلسوا معنا في صالة المطار حتى ودعونا قبل الإقلاع، ومن مطار مسقط أقلعنا مساء يوم الاثنين الساعة الحادية عشرة والنصف إلى مطار الدوحة عبر طيران القطرية، وفي تمام الساعة الثانية عشرة ليلاً هبطنا في مطار الدوحة الدولي، وهو مطار كبير مترامي الأطراف

يتوه فيه الخريّيت، وبقينا هناك حتى الساعة الثانية وعشرين دقيقة فأقلعنا إلى لاهور، حتى كان هبوطنا في مطار العلامة محمد إقبال الساعة السابعة والنصف بالتوقيت المحلي. كان المطار قديمًا وصغيرًا وتنقصه الكثير من الخدمات، يشبه إلى حدّ كبير مطارات اليمن، وما إن خرجنا من الصالة حتى وجدنا الإخوة الباكستانيين في انتظارنا، وبعد الترحيب وحفاوة الاستقبال أخذونا إلى مسجد التبليغ بجانب المطار، وبجانب المطار مررت بدبابات وعربات مكتوب عليها (made in Pakistan)، فانتابني قشعريرة، وعبّجت في عروقي موجات من العزة والقوة، وشعرت أن هذا السلاح سلاحنا. وبعد أن استرحنا في المسجد وقدمت لنا بعض العصائر والمكسرات؛ جاءت سيارة فأقلتنا إلى رايواند، والمسافة من المطار إلى رايواند تقرب من سبعين كيلو متر تقطعها السيارة بين المزارع والترع ومجاري الأنهار، وعن يمينك وشمالك ترى الحراثات تشق الأرض، وترى قطعان الأبقار والأغنام، وترى خطأً للقطارات.

في مركز رايوند

بعد صلاة المغرب من يوم وصولنا (يوم الثلاثاء) تكلم أحد الدعاة عن أحوال القادمين من كشمير، وما فتح الله عليهم في تلك الرحلة، والمشاق التي واجهوها من البرد والثلوج وتعنت الجماعة البريلوية، حتى ذكر أن البريلويين طردوهم من المساجد، بل أخرجوا بعضهم بالضرب والسحب بالأرجل، وأنهم كانوا يواجهون ذلك بالصفح الجميل.

وكان ذلك اليوم هو أول يوم نبيت في المركز، واتخذنا مكانًا في المسجد الأرضي، حيث يقيم معظم العرب والأجانب غير الباكستانيين، وحيث تقع كراسي الترجمة للغات المختلفة. وكان الجو باردًا، ولم تنفع فيه ما معنا من بطانيات، ولهذا اضطررنا في اليوم الثاني أن نشترى فُرُشًا صنعت خصيصًا للرحلات ومواجهة البرد.

يوم حافل

اليوم الثاني صباحًا تقرر تشكيلنا في خروج دعوي لمدة ١٢ يومًا إلى ولاية (أو كارا) مدينة (ديالبور)، في اتجاه الحدود الهندية، وكنا أربعة يمينين، وثمانية باكستانيين فيهم مترجم وحافظان للقرآن. وبعد الفطور ذهبنا إلى السوق فصبغنا شعر رأسي ولحيتي بمائتين وخمسين روبية، وقبلها أفطرت في أحد المطاعم على (قرص من الخبز وكأس من الشاي) بأربعين روبية. فلما كان بعد المغرب استدعيت من شعبة الاستقبال للجلوس مع شباب باكستانيين. ثم جاءني الشيخ حمزة البلوشي الباكستاني -وهو يتقن العربية-، فأخذني في جولة حول المركز ومدارس التحفيظ وجامعة رايوند، وقص لي من قصص خروجه إلى السودان وبريطانيا وإسبانيا والبرازيل والأرجنتين. وبعد أذان العشاء التقيت الأخ محمد حمزة بن جاويد، وهو يتقن العربية بطلاقة، فقد تخرج من جامعة (الحسنين) بفيصل آباد التي يديرها الشيخ طارق جميل.

والأخ محمد ابن لأبٍ باكستاني فقير يعمل سائق سيارة، أنجب عشرة أبناء، ثمانية ذكور وبنيتين جميعهم يحفظون القرآن الكريم، وأربعة منهم خريجو جامعات إسلامية. وتكررت لقاءاتنا مرات طوال في فترة الخروج، وقبل مغادرتي باكستان أهديته كتاب التوحيد للشيخ محمد حسان، وفرح به فرحًا شديدًا.

بعد صلاة المغرب خرج للناس الشيخ (نذر الرحمن)، وهو من صحب الشيخ يوسف إلياس، قد تجاوز عمره المائة سنة، وهو اليوم أمير الجماعة في باكستان، فتكلم بكلام نفيس عن التربية، ووصايا إلياس لولده يوسف وهو على فراش الموت، وكان مما قاله الشيخ محمد إلياس لولده يوسف:

”يا يوسف، إن هذه الدعوة أمانة في أعناقكم، فإن حافظتم على أصولها وآدابها فستبقى، وإن أهملتم ذلك فستسقط وتذوب كما ذابت غيرها من الدعوات“.

ثم قال الشيخ نذر الرحمن: قال لي الشيخ يوسف حين انتشرت الدعوة، وقوي عودها، وكتب لها القبول: ”الآن أصبحت أخاف على الدعوة بأن يتكل أصحابها إلى ما أعطاهم الله، فيتعلقون بالأسباب، ويعتمدون على المخلوقين؛ على صاحب الجوازات؛ على المسؤول... إلخ فتفقد الدعوة روحها، وإذا فقدت روحها

فستحول إلى دعوة مادية يتنافس أصحابها على الرئاسة.

جولة في رحاب المركز

بعد مغرب يوم الأربعاء - كما سبق وذكرت - استدعاني أحد موظفي شعبة الاستقبال للجلوس في الصالة المخصصة مع عدد من الشبان الباكستانيين، وكانوا جميعاً دون العشرين، وحيء بترجم، وطلب مني الكلام معهم حول حاجة الإنسان للدين، وبدأت الكلام معهم والمترجم يترجم، وفي نهاية الجلسة طلب منهم المترجم الاستعداد للجلوس في المركز ثلاثة أيام، ثم الخروج ثلاثة أيام أخرى، وتحمسوا جميعاً لذلك، وكان يجلس قريباً منا صديقي الشيخ حمزة البلوشي، الذي يحرص على التقرب مني ومحادثتي ليقوّي عربيته.

سألني: هل أكملت الحديث شيخ ناصر؟

قلت: نعم.

قال: هيا نقوم بجولة حول المركز.

نهض، ثم مددت له يدي ليساعدني على القيام فقد ضغطتُ على رجلي اليسرى في أثناء الجلوس وألمني احتكاك ركبتي.

تجاوزنا صالة الاستقبال وسلمنا على الحراس فأهدونا ابتسامتهم البريئة التي لا تفارق محياهم، ثم هبطنا من الدرجات القليلة إلى الشارع الفاصل بين المسجد ومبنى الخدمات والإدارات. كان الشيخ حمزة يسير بقامة مستقيمة، وخطوات ناعمة، وكأنه يشفق على الأرض من وطأة قدميه، أو أنه كان يراعي مشيتي، بعد أن لاحظ توجع ركبتي.

كنا نسير وهو يحدثني بعربية واضحة، ويشرح لي مرافق المركز، فهذا المسجد الكبير الذي تراه كان إلى زمن قريب مسجداً متوسطاً حتى جرى توسيعه هذه التوسعة الكبيرة، وهذه المنطقة كلها في الأصل كانت مزارع وبيوت لرجل هندوسي يسمى (وند)، وكلمة (راي) في الأوردو تعني (محلة) فسمي المكان (رايوند)، أي (محلة وند) وكان ذلك منذ زمن قديم.

هل أسلم هذا الهندوسي؟

ماهي قصته؟

هذا شيء غير معلوم.

ثم أعلن الشيخ إلياس دعوته في الهند عام ١٩٢٦م، ووصلت دعوته إلى كل أرجاء القارة الهندية، لكنها لم تتجاوزها في حياته -رحمه الله-، وبعد انفصال باكستان عن الهند كان يقع في هذا

المكان مسجد صغير في مزرعة، ف جاء الشيخ (محمد بشير) واتخذه مركزاً صغيراً للدعوة والتبليغ، وقد زار الشيخ يوسف الأمير الثاني للجماعة هذا المسجد عام ١٩٥٢م، وحث الأحاب على نشر الدعوة والاهتمام بالمركز والثبات فيه، وقال: عاهدوني أن تقوموا على هذا المركز حتى يأتيكم الموت، فعاهده منهم عشرون. وصلنا إلى مبنى مكون من ثلاثة أدوار، فقال: هذه مدرسة تحفيظ القرآن الكريم، والطلاب فيها بالآلاف، وفيها يقضي الطالب معظم يومه من الفجر إلى ما بعد صلاة العشاء.

سألته: كم تتوقع عدد الطلاب هنا؟

قال: العدد كبير، لكنني لست متأكدًا منه، وممكن في وقت لاحق نزور مكتب الإدارة ونأخذ منهم التفاصيل. ثم أخبرني أن المدرسين جميعًا من الأحاب أي من الجماعة، وكلهم ملزمون بالبيانات والخروجات وجميع أعمال الدعوة في أوقات فراغهم.

مررنا بشيخ هرم متين البنية، فأخذ يسلم علينا بحرارة ويسأل الشيخ حمزة عن هذا العربي الذي بصحبته، فأخبره أي من اليمن. فقال: وددت أن أخرج إلى اليمن، ولكن لم يحن الأوان بعد، رغم أني خرجت سنة متواصلة في إفريقيا.

تجاوزناه وبدت لنا مبان متلاصقة ببعضها، الدور الأول بدروم بالإضافة للدور الثاني والثالث، فقال الشيخ: هذه جامعة رايوند، والطلاب الآن في محاضراتهم، ثم أشار إلى اليمين فقال: هذه قاعة البخاري، وبعدها قاعة مسلم، ثم أبي داؤد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وموطأ مالك، في كل قاعة يقرأ الطلاب ويدرسون الكتب الستة وموطأ مالك حتى يكملوها.

كما يدرسون تفسير الجلالين والبيضاوي والفقه الحنفي والفقه المقارن والنحو والصرف العربي وبقية المقررات، والدراسة تستمر لمدة ثماني سنوات، والسنة التاسعة يلزم الطالب بالخروج في سبيل الله سنة كاملة في داخل البلاد وخارجها.

يبدأ الدوام قبل الفجر بساعتين، ويستمر حتى الساعة الثانية ظهراً، وبعدها الاستراحة إلى بعد المغرب، فيعود الطلاب إلى قاعاتهم حتى الساعة الحادية عشرة ليلاً، وعدد الطلاب هذه الأيام يقارب الخمسة آلاف طالب، منهم ما يزيد على مائتي طالب من الصين، وهناك عدد من الطلاب من بقية أنحاء العالم. والجدير بالذكر أن جميع المقررات تدرس باللغة العربية.

كنت أتطلع من النوافذ؛ لأرى الطلاب يملؤون القاعات وهم جلوس على الأرض، وأمام كل واحد منهم طاولة صغيرة يضع

عليها الكتاب، وأمامهم الشيخ يدارسهم العلم، تمنيت أن تتاح لي فرصة مريحة كي ألتقط لهم صورًا مكتملة، لكن الشيخ أخبرني أن منهجية المركز في الجملة لا تحبذ الصور والتصوير، ليس من باب التحريم، ولكن هم هكذا لا يحبون الانشغالات بغير العلم والدعوة، ورغم تحذيره ذلك فقد ساعدني بالاستتار خلفه لكي ألتقط بعض الصور غير الواضحة.

وفي الدور الأول فوق البدروم وقفتُ عند الباب أنظر إلى القاعة، والطلاب فيها صفوف منتظمة، والشيخ يقرأ عليهم أحاديث بأسانيدھا.

عدنا أدراجنا إلى الشارع الرئيس، ثم اتجهنا باتجاه آخر في جهة جماعات أخرى، هُيئت لهم مبانٍ ومطابخ وصالة طعام مثل التي في جهتنا نحن، وفي هذا الطريق سألت الشيخ حمزة:
كيف تعلمت العربية؟

- خرجت إلى السودان سنة كاملة شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا، مع بعض دراسة أولية للعربية في مدرسة دينية.

- وهل زرت دولًا أخرى غير السودان؛ دعوة إلى الله؟

- بفضل الله زرت الكثير من الدول، بعضها مكثت فيها أربعة أشهر، وبعضها شهرين، وبعضها أربعين يومًا، وخرجت أيضًا

سنة في (بريطانيا وإسبانيا والبرازيل والأرجنتين)، وفي هذا الخروج رأيت أمورًا عجيبة.

بدأ خروجنا إلى بريطانيا، ثم اتجهنا إلى إسبانيا، وقضينا في غرناطة شهرين، وهناك معنا مركز للدعوة والتبليغ، ولما كنا نعد العدة لمغادرة غرناطة إلى البرازيل، وكنا نتابع إجراءات السفر وبينما كنا واقفين في المطار، إذا بشاب إسباني موظف في إدارة الجوازات ينادينا، ثم يدخلنا إلى غرفة له ويغلق علينا الباب ويقول: هل منكم أحد يتكلم الإنجليزية؟

قلنا: نعم، وكلمه أحد الأحباب، وكان ينظر إلى ثيابنا ويقول: أظنكم مسلمين!
قلنا له: نعم.

قال: لقد قرأت القرآن كثيرًا، وكنت أظن أن الناس الذين يؤمنون به وتنطبق عليهم صفاته قد انقرضوا من الأرض.

وأخذنا نحاوره فوجدناه متوجهًا نحو الإسلام، فلقتته الشهادتين، فأخذ يكررها، فبكى من التأثر كل الأحباب، وفي نهاية دوامه أخذناه معنا للمركز وربطناه بإمام المسجد، وكان بعدها يأتينا كل يوم إلى المسجد ويبيت معنا، فعلمناه عشر سور من القرآن الكريم، والصلاة، وبعض أمور الإسلام، وفوضنا أمره -بعد عشرة أيام-

لإمام المسجد، وهو من الأحاب، ثم ودّعنا هو والإمام في المطار وسافرنا إلى البرازيل.

وفي البرازيل هبطنا في مركز الدعوة هناك، وتجوّلنا في أماكن شتى، فوجدنا أناساً هنوداً يقولون إنهم مسلمون، جاء آبائهم إلى البرازيل قبل أكثر من مائة وخمسين سنة، لكنهم لا يعرفون من الإسلام شيئاً حتى الشهاداتتين، ولقد زرنا منهم شيخاً كبيراً إلى بيته، وأرجعناه إلى الإسلام، وكان يحدثنا أن أبناءه وأحفاده قد أصبح منهم النصراني ومنهم الهندوسي ومنهم اللاديني.

فقلت بحسرة: وهل استطعتم أن تجوبوا البرازيل كلها؟ قال: يا شيخ ناصر، البرازيل بلد كبير جداً مترامي الأطراف، يحتاج إلى مئات الجماعات والجماعات تخرج فيه خروجاً مستمرّاً، وتشكل أناساً من أهله يقومون بهذا الجهد، على أن الوضع الآن تحسن قليلاً كما أخبرني أحد الإخوة البرازيليين منذ أيام، حيث لقيته في صالة الاستقبال، مع أنه أخبرني أن مدينته تبعد عن المركز ألفي كيلو، كما أن هناك أحباباً في البرازيل من أصول فلسطينية، وقليل من السوريين واللبنانيين، ولهم جهد لا بأس به.

قلت: هل بالإمكان أن ألتقي الأخ البرازيلي؟

قال: نعم ممكن، وربما يأتي آخرون لحضور الاجتماع (المؤتمر)

في الأول من نوفمبر بعد أيام.

صعدنا درجات إلى المطبخ، وأشار نحو طبّاخين يقفون أمام
قدور ضخمة وقال: هؤلاء الطباخون كلهم متطوعون، وهناك
تناوب من الأحباب من كل مكان للقيام بجميع الأعمال.
سلمنا على الطباخ الواقف على الباب، فأخذ بأيدينا وأجلسنا على
حصير في صالة ناحية المطبخ، وقدم لنا كأسين من الشاي الحليب،
وأخذ الشيخ يحادثه بالأوردو.

رشفنا شيئاً من الشاي، ثم استأنف الشيخ حمزة حديثه قائلاً:
سافرنا بعدها من البرازيل إلى الأرجنتين وقضينا هناك شهرين،
تجولنا فيها حول العاصمة وبعض المدن، وقمنا بتشكيل بعض
المسلمين للالتحاق بالمركز والخروج في سبيل الله تعالى، وبعد
شهرين قضيناها في الدعوة والخروج والزيارات والتعليم ليل نهار؛
عدنا وفي قلوبنا حسرة شديدة، وتمنيت أن كل المسلمين ينهضون
للدعوة إلى الله تعالى، فالدول فاتحة أبوابها للدعوة، وهناك الكثير
من المسلمين في دول أمريكا الجنوبية فقدوا إسلامهم، فضلاً عن
المشركين الذين يفتحون أذرعهم للدعاة.
أنهى الشيخ حمزة حديثه بحسرة شديدة، وفي نيته جمع نفسه
للسفر مرة أخرى إلى أمريكا الجنوبية.

خرجنا من المطبخ إلى صالة الطعام فوجدناها ممتلئة، والأحباب فيها جلوس على موائدهم استعداداً للطعام.
قلت لحمزة: هل أستطيع أن ألتقط صورة لهذه الصالة المزدهمة بالجالسين؟

قال: لا تفعل، فالكل مرَّز علينا، وقد يتأذى بعضهم بذلك.
حينها خرجنا عائدين إلى حيث مكان إقامتنا قرب صالة الاستقبال، وطلبتُ من حمزة رقم هاتفه حتى أتواصل معه بعد الاجتماع؛ لتتمكن من زيارة الجامعة والتحفيز وبعض المشايخ بعد المؤتمر، لكنه اعتذر كونه في الدعوة لا يحمل معه هاتفاً حتى لا ينشغل بشيء غير الدعوة إلى الله واستقبال الخارجين والاختلاط معهم، ثم أكد لي أنه سيكون غالباً في شعبة الاستقبال وبإمكاني أن أراه هناك.
ودَّعتُ حمزة والصور تختلط في مخيلتي، صور طلاب التحفيظ، وطلاب الجامعة، وصورة ذلك الفتى الإسباني، والشيخ الهندي البرازيلي، وتبرز أمام عيني خارطة البرازيل الكبيرة؛ فأرى الناس يسعون فيها مثل النمل في قريته.

عدت إلى مكان إقامتي فوجدت الأخ رشيد عبد -رفيقي في الرحلة- يبحث عني ليخبرني أن شاباً باكستانياً يبحث عني، يريد أن يجلس معي ويحدثني حتى يزكِّي عربيته، حيث أخبره بعض

الأحباب أني مُعلِّم وخطيب مسجد.

وكان ذلك الشاب هو محمد جاويد إقبال حمزة، والذي لقيته من قبل، وحدثني من خبره أنه خريج جامعة (الحسين) التي يديرها الشيخ طارق جميل في مدينة فيصل آباد، وهو أخ لتسعة إخوة كلهم يحفظون القرآن الكريم، وأربعة منهم خريجو جامعات دينية، وسمرنا معاً، ونصحته لتقوية لغته بالقواعد الثلاث: (اقرأ كثيراً - اسمع كثيراً - تحدث كثيراً)، فأخبرني أنه من أجل تقوية لغته يسمع أشرطة الشيخ علي القرني، وربما سمع الشريط الواحد عشر مرات، والحقيقة أن عربيته قوية جداً سواء كانت نطقاً أو كتابة.

افترقنا قبل النوم، وفي الصباح أخبرني أنه جرى تشكيكه في مدينة (ديرة إسماعيل خان) على مسافة تسع ساعات من رايوند، وقد أخذ رقم هاتفي لالتقي في الاجتماع (المؤتمر) في مطلع نوفمبر.

منهجية

وفي تلك الأيام القليلة بعد وصولي لاحظت أن مما يكرره المشايخ والدعاة في الحلقات في منهجية الدعوة:

أن أعمال النبي -صلى الله عليه وسلم- كانت أربعة، ولهذا على أي دعوة تريد أن تقتدي بدعوته أن تقوم بهذه الأعمال مجتمعة؛ حتى تسير الدعوة بصورة متوازية، وهذه الأعمال الأربعة هي:

(١) الدعوة إلى الله تعالى

(٢) تعليم العلم

(٣) العبادة

(٤) الخدمة

ولهذا فالجماعة تحاول أن تقيم منهاجيتها على هذه المقاصد الأربعة.

ففي مقصد الدعوة إلى الله، تحث المسلمين جميعاً على القيام بالدعوة لدينهم، وكل بحسبه.

وفي مقصد العلم، وضعت حدّاً أدنى للعامة والخارجين، يتمثل في حفظ بعض سور القرآن الكريم، ومدارسة كتاب رياض الصالحين،

وكتاب حياة الصحابة، وفي الحدّ الأعلى أنشأت عدة جامعات، منها جامعة رايوند التي يدرس الطالب فيها ثماني سنوات، يدرس الكتب الستة والمذاهب الأربعة والتفسير وغيرها من العلوم. وفي مجال العبادة، هناك برامج ومناهج تصنع من الداعية عابداً حريصاً على إصلاح نفسه وغيره، محافظاً على قيام الليل والنوافل والأذكار والأعمال الصالحة.

وفي مقصد الخدمة النبوية، فالمراد ما كان يقوم به النبي -صلى الله عليه وسلم- في حركته الدعوية؛ من حفر الخندق، وبناء المسجد، والخدمة في أثناء الجهاد، كجمع الحطب، ونصب الخيام، ومنها استقباله للوفود، ورعايته للجيش بكل عتاده من جند ودواب وسلاح وغيره، وهكذا يتطوع الدعاة هنا بأعمال الخدمة بطريقة دقيقة.

وجميع الأعمال هنا مثلاً في رايوند تطوعيّة؛ لا يتقاضى أحد روية واحدة عليها، سواء كانوا المدرسين والمهندسين والحراس والطباخين، ومن كان في أي جانب من جوانب الخدمة، وفي أي شعبة من الشعب ال (٣٦) التي تدير المركز.

صديقي شهاد

تكونت صداقة بيني وبين شاب صاحب بقالة لطيف، حسن الخلق، شهم النفس. وبداية الصداقة أني استعنت به في إصلاح برمجة هاتفي، ورفض بشدة أن يأخذ علي ذلك أجراً، ثم أصبحت أشحن عنده وحدات لهاتفي، فإذا ما جئته يرحب بي، ويضع لي كرسياً، ويقدم لي كأساً من الشاي. وهذا الشاب أصله من بيشاور، من (البشتون)، ولغته البشتو، وهي لغة أفغانستان وشمال باكستان، وهو أيضاً يتكلم اللغة الرسمية لباكستان الأوردو، ويحاول أن يتعلم مني العربية ويعلمني لغتيه.

اليوم قلت له: **Thank you**

فقال: بالأوردو: شكريا أو مهرباني، ونفسها بالبشتو

(سم. سم) ومعنى سم سم - الشيء نفسه.

وطلبت منه **Water** (ماء)

فقال بالأوردو (باني) وبالبشتو (بووره).

ثم سألتني بعربية مكسرة وإشارات: لماذا يضع العرب أيديهم علي صدورهم في الصلاة ولا يضعونها تحت السرة مثل الباكستانيين؟

فقلت له: هذه اختلافات مذاهب.

فقال: أشتا مكمل في كراني كريم وحديسي شارييف.

فلم أستطع أن أفهمه أنه اختلاف قراءات ونظر وقواعد و...،
حيث حالت دون ذلك اللغة.

الطريق إلى ديالبور

تقرر حسب ترتيب الجهات المختصة في مركز رايوند أن يجري تشكيلنا إلى منطقة (ديالبور)، لم أسمع قط في حياتي باسم هذه المنطقة، فمعرفتنا بالمدن الباكستانية لا تتجاوز العاصمة إسلام آباد وكراتشي ولاهور وبيشاور وعدد قليل غيرها.

وقفت أمام خريطة باكستان المعلقة في المركز، وباعتمادي على معرفة نقطة لاهور وجدت نقطة مدينة ديالبور على الخريطة بالقرب من مدينة كبرى تسمى (أوكارا).

كان موعد التحرك بعد صلاة الظهر مباشرة. وصلاة الظهر تصل إلى الساعة الثانية ظهراً، وقبل صلاة الظهر يتناول جميع من في المركز الغداء، فتناولت لقيمات من رز برياني وزبادي وقرص رغيف يسمونه (روتى). وكلمة روتى أردية تعني خبزاً، ثم رشفت رشفات

(سليمانى) وهو الشاي الأحمر، وغسلت يدي وهرعت إلى السوق حيث المغسلة التي تركت عندها بالأمس ثيابي، وهم هنا يطلقون اسم (الدوبي) على صاحب المغسلة ومن ثم أطلقوه على المغسلة نفسها.

حزمتنا أمتعتنا وحقائبنا ثم دُعينا للجلوس بين يدي أحد الدعاة عند كرسي الترجمة العربية لترجم لنا الهدايا (الإرشادات) التي يُزود بها الخارجون قبل انطلاقهم، ومن المسجد يلقي الشيخ الهدايا لجميع الخارجين، وهناك ترجمات لكل لغات الخارجين العربية، والإنجليزية، والإندونيسية، والصينية وغيرها، تصل هذه الترجمات عبر الميكروفونات في كل المواقع، سواء في المسجد أو في السكن أو البدروم أو في المباني البعيدة. وهذه الهدايا تشبه حسب قول المشايخ الهدايا التي كان النبي -صلى الله عليه وسلم- يزود بها الدعاة والغزاة حين خروجهم من المدينة، وكانت بحق هدايات مهمة جدًا تدل على تجربة طويلة للشيخ في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، واستمرت هذه الهدايا إلى قبيل الساعة الثالثة عصرًا، وعندها اتجهنا إلى الباص الذي استأجرناه ليأخذنا إلى ديالبور، وقد دفع كل واحد منا ٣٥٠ روبية للأخ (نويد). وهو شاب ثلاثيني لبيب يحفظ القرآن الكريم، وقد نشأ في المركز، وكلمة (نويد)

فارسية وتعني (بشارة)، تجمّعنا حول سيارتنا وأخذنا نرفع على سقفها أمتعتنا، وحولنا صف طويل من السيارات التي استأجرها الآخرون للخروج إلى أماكن شتى، وفي ذلك اليوم خرجت أكثر من ١٣٠ سيارة.

في الكرسي الأمامي جلس الشيخ أبو بكر بلفقيه، وجلست أنا خلف السائق من جهة اليمين. والجدير بالذكر أن حركة السير في باكستان حركة يمينية، فجميع السيارات مقودها في جهة اليمين، والحركة في الطريق بعكس الحركة في بلادنا.

وما إن انطلقت السيارة حتى لمست أن السائق رجل عجول، فرغم ضيق الشوارع إلا أن سرعته جنونية، ودخلاته بدون روية، لكنه رجل ضحوك مرّن مزّاح.

خرجنا من شوارع المدينة إلى الفضاء الفسيح، وهنا بدأت أولى خطانا في مهرجان الفن والجمال والروعة والسحر والمناظر الخرافية، فعن يمين الطريق وشماله، وعلى مد البصر تمتد السهول الخضراء، والقطع المتجاورة من جنات الزروع والثمار المختلفة الأنواع والألوان، السيارة تسير بل قل تطير وكأنها في حلم أسطوري تتداخل فيه الصور، أو كأنها من قصص الخيال التي ترويها الجدات للأحفاد الحالمة، يا إلهي! هل هذا حلم أم حقيقة؟! هنا

حيث تتناثر الهموم وتتطاير الكروب، هنا حيث يأخذ الغم إجازة مفتوحة، السيارة تسير ومساحات مزارع الرز وقصب السكر لا تحيط بها العين ولا يحصيها البصر، تتخللها الكثير من الأشجار العملاقة، وأبراج الكهرباء، وبيوت الفلاحين وطرقهم المرصوفة والترابية، مع قرص الشمس الأصفر الذي يسعى نحو الأفق الغربي بخجل شديد، ويتبرقع أحياناً بلقائف من قطع السحاب توشك أن تتحي عنه كما تُسقط الرياح برقع الجميلة العذراء التي لا تملك غير ابتسامة تخفي بها حرجها أو تضع يدها على بعض وجهها ليزيدها ذلك المشهد جمالاً ودلالاً، وهكذا كانت شمسنا تلك الليلة، نسير نحوها وهي تترحل مترنحة سكرى نحو الغروب، وكلما اقتربنا منها زاد اصفرارها وجمالها، ورمت بخيوطها الذهبية على متن تلك المزارع المترامية الأطراف، وهنا يظهر قطع من الجواميس التي يعلو ظهورها ورؤوسها شيء من الوحل الذي يشير إلى عبور هذا القطيع ترعة من تلك الترع القادمة من نهر (راوي) الشهير. وبالقرب مني يجلس الشاب المترجم هارون، وكأنه مرشد سياحي في دار الأساطير، فيشير إلى مزارع المانجو والجوافة التي تقف مرصوفة إلى نهاية الأفق الشمالي، ومن جهة اليمين ترى الحرائث تشق الأرض وترسم خطوطها وكأنها رسام ماهر يضع

خطوط الرسم بمسطرته. وهنا تظهر مزارع البطاطس فنتجاوزها لتطل علينا مزارع الذرة الرومية (البوشار)، وفتاة تسعى خلف حمار يجر عربة محملة بشمار الذرة، وغلام صغير يجر بقرة نحو بيته القريب من خط القطارات الذي يسير بجوارنا حيثما سرنا.

سألت المترجم هارون: ماذا يسمى هذا الطريق الزراعي؟ قال: خط (قصور) حيث يؤدي إلى مدينة قصور، وقبل أن يكمل كلامه ظهرت لنا مدينة صغيرة، فقرأ هارون اسمها من البرت المنصوب في مدخلها (مدينة كوت رادهاشن)، وهي مدينة جميع من فيها يبدو أنهم فلاحون، اخترقنا المدينة لنرى فرناً مرتفعاً يشبه منارة المسجد، يتصاعد منه الدخان، فقيل لنا إنه فرن لصناعة الطوب الأحمر، والقرب منه يقع بيدر كبير للحبوب تقف فيه عشرات بل مئات الأكياس الجاهزة من الرز، وعلى طول الطريق نرى البيادر، والفلاحون يقفون فيها فرحين بجمع الحصاد.

هدير السيارة لا ينقطع، ومزاح صاحبها يتناثر هنا وهناك، وقبل الوصول إلى مدينة قصور أوقفنا نقطة عسكرية، فنزل السائق يشرح للعسكر أنه يحمل عددًا من دعاة التبليغ من العرب والباكستانيين، فاقترب العسكر من النوافذ يرحبون بنا جذلين، ويشيرون للسائق بالتحرك، فلم نلبث إلا يسيرًا حتى ولجنا مدينة قصور، ومررنا

بجانب الكوبري الوحيد الذي رأيناه فيها، وفي نقطة أخرى يبدو أنها لسائقي سيارات الأجرة قدم السائق سندًا للموظف ثم عاد إلى مقوده ليطير بنا من جديد، فإذا مزارع الذرة البيضاء تغطي السهول، والجواميس تتهادى عائدة من نهار سعيد قضته بين تلك المزارع، وفرس يسير أول قطيع الجواميس السوداء، والحراثات تغمس أنيابها في بطن الأرض لتقذف فيها أجنة البطاطس والحبوب المختلفة، ثم تبدت لنا مدينة (يتوكي) في خط (جونيان) ومنها دخلنا مدينة جونيان.

وعلى خط السير تجد أبراج الكهرباء كأنها ربطت بأسلاك حديدية في أعلى رؤوسها؛ حتى لا تتمكن من الهرب، وبعض الفلاحين يحرق الحشائش وبقايا الأشجار وشجيرات الأرز اليابسة؛ فيتصاعد الدخان فتختلط رائحته برائحة الوحل ومنظر التربة، والأطفال الذين يتقاذفون بكرات الطين المعجون بماء النهر، والطيور التي تقف على أسلاك الكهرباء تحك أجنحتها بمناقيرها، وراعية الضأن التي يعلو قطيعها الغبار كأنه البخور في حفلات الزار، وأصوات محرك السيارة كأنها صدئ طبله بكفي عجوز مخضبة، في هذا المشهد الجنوني ظهر لنا ما لم يكن في الحسبان.

يا إلهي! أخذت أفرك عيني وأعيد النظر وأكرره، إنه نهر (بونروال)

وهو عبارة عن خطين متوازيين يفصل بينهما برزخ من اليابسة، تقطعهما السيارات بجسرين صغيرين، وهذا النهر يسير حتى يصل الحدود الهندية ليرسم الخط الفاصل بين الدولتين.

تجاوزنا النهر لكن دهشتي وذهولي لم تتجاوزني، وأصابنا الخمرة رأسي في مقتل، وتمنيت أن يكون لي هنا بيت ومزرعة وجواميس وأغنام ووحل ألعب فيه مثل الأطفال حتى تتسخ ثيابي ويصيب الوحل أرجلي وذراعي، وذهبت بي الأحلام فلم أفق إلا على منظر قطيع من الإبل يسير بجانب خط القطار كأنه عربات ذلك القطار الذي لم نره منذ انطلاقتنا، وفي هذا المشهد تخيلت نفسي في سيارة الفرزة العائدة من عدن إلى مدينتي مودية، وتذكرت مناظر الجبال السوداء، والصخور المدببة، وأشجار السمر والأشواك، والشمس المحرقة، فشعرت بشوق يهزني إليها، وفي هذه اللحظة وقفت السيارة جانباً؛ لكي نصلي العصر، حيث إن الحنفية يؤخرون صلاة العصر كثيراً، وفي قرية (ديل دهول) في منطقة حجرة جونيان في مسجد أنوار المدينة صلينا العصر، وخارج المسجد وجدت عددًا من الأطفال، فدعوتهم وصافحتهم ومسحت على رؤوسهم، واحتضنت أصغرهم فودعوني وهم يشيرون بأيديهم.

الشمس صفراء شاحبة، وقد تحولت كهيئة البدر والمزارع

تغطي الأفق. والبطات تسبح في التربة. وأبراج الكهرباء ما زالت معتقلة بوثاق من حديد، والرعاة يجرون خلف مواشيهم، والماء يغطي بعض القطع المتجاورات، والسحاب متناثر في السماء بلونها الأبيض، وهدير السيارة يغني على مزامير ضحكات السائق، حتى تجاوزنا قرية (حجرة شاه مقيم). وواصلنا سيرنا في صفحات هذه الأساطير، حتى بشرنا السائق أننا وصلنا مدينة (ديالبور)، فانحرف شمالاً بين البيوت ليستقبلنا مركز ضخمة لجماعة الدعوة والتبليغ، وفي ساحته مئات من العمائم البيضاء تعلو وجوها تتساقط منها قطرات الضوء، كان ذلك بالضبط الساعة الخامسة والرابع قبل المغرب.

أول ليلة في ديالبور

وصلنا المركز العام للتبليغ في منطقة ديالبور الساعة الخامسة والرابع تقريباً وكنا اثني عشر: خمسة يمينين وهم الشيخ أبو بكر بلفقيه، ومحمد السعدي اليافعي، ورشيد عبد من الكود، وعبد الحكيم من المكلا، وهذا عبد الحكيم نفعنا كثيراً بإتقانه للغة الإنجليزية، أما الباكستانيون فكانوا سبعة أهمهم الأمير (محمد

أفضل)، و المترجم الشيخ هارون - وعربيته قوية - وهذا هارون يدير مدرسة للقرآن الكريم في بلده، يتجاوز عدد الطلاب فيها ثلاثمائة طالب وطالبة، و الشيخ (نويد) وهو شاب نابه ذكي جداً، عربيته لا بأس بها وهو خريج جامعة (الأشرفية)، ونشأ في الدعوة، وخرج سنة في سبيل الله وجاب الكثير من الدول والمناطق وله حكايات، وعبدالله وعربيته ضعيفة ثم الآخرين.

كان في استقبالنا في المركز حشد كبير يصل إلى المئات، ولم يأت هذا الحشد لاستقبالنا، بل صادف مجيئنا يوم الاجتماع الأسبوعي للمنطقة.

ما إن وقفت السيارة حتى التفّ حولها عدد من الشبان ينزلون أمتعتنا، بينما اصطف آخرون يصفحوننا، ثم أدخلونا المسجد لنستريح قبل صلاة المغرب، توضحاً ثم جلسنا للتشاور حول خطة العمل وبعد التداول تقرر:

- البيان (المحاضرة) بين المغرب والعشاء أسندت إلى الشيخ ناصر.

- مغادرة المركز تكون غداً الجمعة الساعة التاسعة صباحاً.
أما أنا فاستطعت أن أجد (بلاك) أشحن به هاتفي ثم بدأت الاستعداد للمحاضرة، وكانت عن (معنى) لا إله إلا الله محمد

رسول الله والدعوة إليها) ونبهني المترجم أن زمن البيان ساعة بالضبط؛ لأنه بيان أسبوعي للمنطقة كلها، فلما انصرفنا من صلاة المغرب وصلى الجمع ركعتي السنة تقدمت الجمع وجلست على منبر خشبي ذي ثلاث درجات، وجلس المترجم هارون بجانبني وبدأت المحاضرة، ورأيت المترجم يتكلم بحماس وحرارة تركت أثرها على الجمع الكبير، وجرى تشكيل سبعة عشر خارجاً بعدها، وهذه المحاضرة جعلت الأحباب يعرفونني، فلما ذهبنا إلى بعض الأحياء لم أكن غريباً عنهم.

بعد صلاة العشاء تجمع حولنا عدد من الأحباب يسلمون علينا ويرحبون بنا، ويطلبون منا الدعاء لهم بخيري الدنيا والآخرة، ثم أخذنا بعدها إلى مكان خاص في ناحية المركز أعد لاستقبال الضيوف، وهو ديوان صغير مفروش ببعض الفرش البسيطة، وخلفه ملحق يبدو أنه مطبخ وحمام، فأول ما جلسنا على المائدة قدموا لكل اثنين منا صحناً صغيراً من الرز، فلما ذقته وجدت له حلاوة، فسألت المترجم هارون وكان يأكل معي فقال: هذا رز مضاف إليه سكر، وليس كل رز يضاف إليه سكر بل هذا النوع فقط، وإن كان لا يروق لك الرز بالسكر فإن الصحن مقسوم قسمين قسم بالسكر وقسم بدون سكر، وأنت لك الخيار، ثم قدم لنا خبزاً مع إدام مطبوخ

بلحم بقري.

ومع انبلاج فجر الجمعة ظهر لنا المركز بحديقته وجوانبه، فقمتم بجولة حول المسجد ورأيت مركزاً كبيراً لا يتناسب مع حجم المدينة التي لا يتجاوز سكانها أربعمائة ألف نسمة، وبالطبع ليس أكثرهم من الجماعة، لكن اتضح لي فيما بعد أن هذا مركز عام للمنطقة كلها، المدينة وما حولها من القرى والأرياف.

أما المركز فكان مسجداً له صالة الصلاة ومساحتها 60×40 متراً، وخلفها مساحة مسقوفة مفتوحة من الاتجاه الخلفي (ضاحي) مساحته 60×5 أمتار، ثم مساحة مبلطة مبنية من جوانبها، مفتوحة السقف أكبر من المسجد والضاحي (البهو)، ويحيط بالمركز سور يصل ارتفاعه إلى مترين تقريباً، وداخل هذا السور حديقة غرست فيها أشجار متنوعة غرساً منظماً، وفي الخلف موقف للسيارات والدراجات النارية، وقد طفت في الحديقة ومررت بشيخ كبير في يده خرطوم للماء يسقي حديقته الجميلة مع وقت الشروق، تبادلته معه ابتسامات معبرة قبل أن أتجاوزه للاتجاه الآخر، وهكذا تجوّلت بين الأشجار والورود المختلفة على أصوات بعض الطيور التي تقف على الأغصان، ووجدت عددًا من الهداهد تلتقط غداءها من بين الشجيرات، فجلست أراقبها على كرسي خشبي مهترئ حتى

ناداني الأحباب لتناول وجبة الفطور التي لا تزيد عن خبز يسمونه (روتى تو)، أي خبز أبو طبقتين، وهو خبز يشبه الكيك مع إدام من الدال، وكأس من الشاي مضاف إليه لبن الجاموسة.

وبعد الفطور جاءت السيارة المخصصة لنقلنا إلى قلب المدينة، وهي سيارة (دينًا) جديدة، صنعت في باكستان كما أخبرني السائق، فحمل الأحباب أمتعتنا، وركبت أنا والشيخ أبوبكر في مقدم السيارة، بينما ركب الباقون مع الأمتعة في الحوض، فخاضت بنا شوارع المدينة بين الزحام والضجيج في شوارع تزينها لوحات إعلانية تجارية صغيرة وكبيرة وما زالت تنحرف بنا يمينًا وشمالًا حتى حطت رحالنا في مسجد مكة بحى (خليل آباد).

في حى خليل آباد

نزلنا في مسجد مكة بحى خليل آباد، يؤم هذا المسجد شاب ثلاثيني أبيض البشرة، ذو لحية شديدة السواد، اسمه محمد إحسان رحيم، ويكنى بأبى معاوية، وللكنية دلالة تشير إلى وجود صراع سني شيعي في المدينة، وقد علمت أن أبا معاوية ينتمى إلى تنظيم يسمى (حماية الصحابة)، ولفت نظري جدار واجهة المسجد

المبطل ببلاط أبيض يحوي كتابات خضراء لآيات قرآنية وأحاديث نبوية في فضل الصحابة، فضلاً عن كتابة أسماء العشرة المبشرين بالجنة، وزوجات الرسول -صلى الله عليه وسلم- وأبي هريرة. وضعنا أمتعتنا في أحد الفصول التابعة للمسجد وبدأنا نستعد لصلاة الجمعة.

ولأول مرة أرى شعائر صلاة الجمعة في مذهب العجم من الأحناف، حيث يلقي الخطيب خطبة بلغته الأردية قبل أذان الظهر وهو جالس، فإذا حضر وقت أذان الظهر صعد على المنبر وأذن المؤذن وبعد الأذان يلقي خطبتين قصيرتين باللغة العربية يختمها بذكر فضائل الصحابة رضوان الله عليهم.

وبعد صلاة العصر استدعاني المترجم هارون، وقمنا بجولة في الحي ومررنا بمسجد للطائفة البريلوية، فأخبرني هارون أنهم لا يرحبون بهم، ولا يستقبلونهم، بل يحاربونهم ويسمونهم الوهابية. رأيت في جدران الشارع صوراً ملونة لرجال ملتحين، فظننتها صوراً لمرشحي الانتخابات، فسألت المترجم عن ذلك فضحك وقال: هذه صور لسدنة الأولياء، وهذه المدينة مبتلاه بمثل هذه المظاهر. وفي طريقنا مررنا بمبنى عليه رايات خضراء وصور وكتابات جميلة، فأخبرني المترجم أن هذا محفل للمدائح النبوية.

ومن المفارقات المضحكة أن (غلاة الصوفية) هنا في باكستان يحاربون جماعة التبليغ، ويمنعونهم من مساجدهم ويحذرون منهم، ويطلقون عليهم اسم (الوهابية). وفي بلاد العرب تجد (غلاة السلفية) يحاربون هذه الجماعة، ويمنعونهم من مساجدهم ويحذرون منهم، ويزعمون أنهم (صوفية).

مع مودودي

بعد الفجر كان عليّ أن أزور شخصين من القدماء، وكان معي المترجم هارون وأمير الجهد في الحي، فلم نجد الأول جاهزاً للقائنا؛ فقد أخبرنا ولده أنه لم يعد إلى البيت إلا في وقت متأخر؛ فصلّى الفجر ثم نام. أما الثاني فهو الشيخ جابر، فقد استقبلنا في ديوانه بالفرح والترحاب، رأيت في ديوانه مكتبة متوسطة، جميع الكتب فيها باللغة الأردنية.

قدم لنا طبقاً من الفاكهة، وأخذنا نتحدث عن أحوال الدعوة والدعاة، وأخذ يسألني عن أحوال العرب، وقبل أن ننصرف وعدنا أن يأتينا إلى المسجد، ويظل معنا سحابة يومه، ثم أبدى استعداداه

للخروج معنا. وقد علمت فيما بعد أن الشيخ جابر هو رئيس الجماعة الإسلامية في ديبالبور، ويسمونهم هناك المودوديون، نسبة إلى أبي الأعلى المودودي.

كان عليّ حديث الجلوس بعد العصر، فحضر المجلس إمام المسجد، فأبدى استعداداه للخروج الدعوي.

وأذكر أنه في ضحى يوم السبت جاء إلى المسجد عريس بثياب عرسه، ومعه عدد من المرافقين، ومعهم كاميرا فيديو للتصوير، فتوضأ من ماء المسجد وصلّى ركعتين وجلس في حلقتنا، وطلب منا الدعاء، فدعا له الشيخ أبو بكر بلفقيه والناس يؤمنون.

في رياض الجنة

قمنا بزيارة مدرسة التحفيظ التابعة للمسجد، وفيها عشرات الطلاب يقيمون في المدرسة، ويحصلون على السكن والتغذية. وبعد صلاة العصر أخذنا أبو معاوية لزيارة مدرسة رياض الجنة، التي يديرها مولانا محمد شعبان، وهو رجل سبعيني، ورث هذه المدرسة عن أبيه، يزيد عمر هذه المدرسة على خمسين سنة، يتجاوز عدد الطلاب فيها مائة طالب.

في الطريق إلى المدرسة مررنا ببعض المزارع وحقول الذرة، وعرّجنا لزيارة صديق لأبي معاوية يبيع قطع غيار السيارات، وتكلمنا معه ووعدنا بزيارتنا إلى المسجد، وقد قدم لنا عصيراً مُرّاً، شربه الإخوة الباكستانيون، أما أنا فلم استسغ شربه. وبجانب محل قطع الغيار رأيت محلاً لبيع أنواع الطيور، وقد وقفت عليه أتأمل أشكال الطيور وأنواعها الغريبة.

رأيت مدرسة رياض الجنة مكتظة باللوحات التي تُعلي من شأن الصحابة، مما يعني أن الصراع محتدم بين السنة والشيعة، مع أن نسبة الشيعة في باكستان لا تزيد عن عشرة في المائة، ولكنهم أقلية منظمة مدعومة من إيران، وقد قاموا بالكثير من الاستفزازات للسنة في السنوات الأخيرة، كما أخبرني بعض الإخوة.

في حي السوبر

بعد أن أكملنا خروجنا في حي خليل آباد؛ انتقلنا إلى مسجد أبي بكر الصديق بحي السوبر، وقد لمست أن للتبليغ أثراً كبيراً وملموساً في هذا الحي، حيث تقام حلقات التعليم في المساجد والأسواق والحوانيت، وأحسب أن هذا الأثر يعود إلى أمير الجهد

في هذا الحي الشيخ (رب نواز)، وترجمة اسمه إلى العربية هي (هبة الله).

من هو الشيخ رب نواز؟

هذا الشيخ تاهت به عجلة الزمن، فما هو من أبناء هذا الزمان، بل هو من زمن الثلاثة القرون المفضلة، قسماً إني أنظر إلى وجهه وأجد عيني تذر فان بالدمع!

سبحان الله! إنها عظمة الإسلام.

هذا الشيخ أفنى حياته في سبيل الدعوة إلى الله، وهو رجل صاحب مزارع وجعل ماله في سبيل الله، كلما رأته كأنني أقرأ في جبهته عبارة (وقف لله تعالى)، والشيخ رب نواز هو أمير الجماعة في حي السوبر، بل في ديالبور كلها، وأثره في حيه واضح للعيان، فالتجار يقيمون حلقات التعليم في أسواقهم، والمسجد مليء بالأحباب، ومدرسة التحفيظ زاخرة بالطلاب والطالبات.

خرج الشيخ داعية إلى الله في كل دول القارة الهندية، بل ومعظم دول العالم، وكان يخرج في جماعة (البيدل) أي الأقدام، إذ يمشطون المناطق والأقاليم مشياً على الأقدام، وخرج داعية إلى الله في بريطانيا سنة كاملة، وفي أحد الأحياء الإنجليزية قذفهم بعض الشباب بالحجارة حتى هشموا زجاج سيارتهم، فالتقط أحد الإعلاميين

الإنجليز صورة لهم مع السيارة والشباب الذين يقذفونهم، فنشرها في الصحيفة وهم لا يشعرون، فتفاجأوا برئيس البلدية والمنظمات الإسلامية تهرع إلى المكان، وصنعت من الحادثة قضية رأي عام، وهم غير مباليين بل يتابعون دعوتهم، وأخبرني أنه خرج سنة مشياً على الأقدام، وجاب الكثير من الدول الأوروبية، فانطلق مع مجموعته من بلجيكا جنوباً، حتى وصلوا نهاية العام إلى المدينة النبوية، ولم يركبوا أي وسيلة نقل إلا في حالات ضرورية. وعنده الكثير من الأحوال والأخبار، لكنه يرفض أن يفضي بها، ولا يذكر إلا القليل للعبرة.

لما نزلنا حيهم ومسجدهم سحب من الجماعة جميع أدوات الطبخ، وتكفل هو بإطعامنا ثلاثة أيام، وكان لا يدري ما يقدم لنا، حتى إن كرمه ينسيك أخبار العرب في الكرم، يقدم لحم الغنم والبقر والسمك والبيض والسلطات وحليب الجاموسة الطازج والحقين الطازج وأنواع الفاكهة، بل إنه يضيف إلى الوجبات عسل النحل والحلويات والآيس كريم والمشروبات الغازية، ولا تسل عن الشاي والقهوة والعصائر، حتى إنني اقترحت على الخارجين وأحاب المسجد أننا نقضي فترة الأربعة أشهر في حي السوبر، وكانت طرفة أضحكنا أياماً.

ولما غادرنا مسجدهم للمركز العام قبل المغرب، تفاجأنا أنه لحقنا إلى المركز بوجبة عشاء فاخرة، وزارنا مرارًا إلى حي ضياء الدين، ووعدنا بلقائنا في الاجتماع العام.

ولو أني أتقن الأردية وأفضي لي هذا الرجل بقصة حياته مع الدعوة؛ لكتبت منها مجلدًا. والرجل قريب الدمعة، شديد التأثر، جم التواضع، كثير العبادة. وجميع أبنائه دعاة إلى الله، وبناته حافظات القرآن الكريم، ومعلمات في مدرسة التحفيظ. وهناك الكثير مما يمكن كتابته عن هذه الهامة الباكستانية الربانية.

وفي هذا اليوم خرجت بصحبة الشاب نويد إلى الأسواق والحوانيت، وجلسنا مع الناس، ووجدناهم يجتمعون كل ضحى وعصر؛ لإقامة حلقات تعليم وتذكير خفيفة، وقد خرجت أنا والشاب نويد، وتنقلنا من سوق إلى سوق، واستقبلنا الناس بالترحاب، وقدموا لنا عصائر طازجة تشبه ما نسميه في بلادنا العرايسي، وإذا قدموا لنا بعض الفاكهة فإنهم يضيفون إليها شيئًا من الملح والحوائح، وفي إحدى زيارتنا أهدوني أنا ونويد شالات باكستانية جميلة.

في هذه الليلة سهرت قليلاً مع الأخ نويد، وقص لي قصة رحلته مع جماعة التبليغ وخروجه الكثير معهم، فسألته أن يقص لي أعجب ما رآه في رحلته الدعوية.

أعجب ما رآه الشاب نويد

تخرج نويد من الجامعة الأشرفية في لاهور، وتجوّل في الباكستان طوًلاً وعرضاً، وخرج في سبيل الله سنة متواصلة، وكلمة (نويد) فارسية تعني (بشارة).

سألته ليلة، فقلت: يا مولانا نويد، حدثني بأعجب ما رأيته في حياتك الدعوية كلها.

قال: يا شيخ ناصر، مرت بي الكثير من الأحوال التي لو دونتها لمألت كتاباً متوسطاً، ولكن حدثت حادثة في المدة التي خرجت فيها سنة لا يمكن أن تمحوها السنون.

كان نويد يحدثنا أنا وهارون والأمير أفضل فقال:

خرجنا في سبيل الله سنة كاملة قضيناها كلها في بلاد البشتون، وكنا سبعة باكستانيين وأربعة مصريين، من المصريين الشيخ عطية، وهو خريج جامعة الأزهر وهو من بور سعيد، والشيخ صابر، وكان هذان الاثنان بحق قدوة يهتدى بهما في الدين والعلم والاستقامة، وما رأيت في جميع خرجاتي من هو أزهدي في الدنيا وأرغب في الآخرة منهما، حتى إن المجموعة كلها تأثرت بهما، فكانت حياتنا كلها عبادات

ليل نهار؛ إما في دعوة، أو خدمة، أو صلاة، أو تلاوة القرآن الكريم، أو في ذكر الله، أو مذاكرة العلم، وتنقلنا من مكان إلى مكان، حتى نقلتنا سيارة (هيلكس) إلى منطقة قبلية قاحلة تسمى (الكارج)، فاستقبلنا أمير التبليغ هناك وعدد من أهل المنطقة، ونزلنا المسجد، وكان أمير المجموعة كهلاً باكستانيًا.

فلما كان اليوم الثاني جاءنا إلى المسجد شيخ المنطقة في مجموعة معه، فاستقبلناهم وأكرمناهم، فقال الشيخ بعد أن أدّى واجب الترحيب المعتاد:

يا أولادي أرضنا كما ترونها جذب قاحلة، والسماء أمسكت عنا القطر حتى تضررنا وتضررت مواشينا، وأنتم دعاة خارجون في سبيل الله تعالى، فأرى أنكم تدعون الناس إلى صلاة الاستسقاء ضحى الغد، وأنا من جانبي سأحشد قبائل المنطقة كلها للصلاة.

فقال له أميرنا: انتظر هنا حتى نتشاور ونرد عليك، فتوافقنا على رأي الشيخ وقلنا له: احشد الناس غدًا خارج المدينة، فلما كان صباح الغد تشاورنا على تفاصيل الموضوع، فاقترح المصريون أن يصلي بالناس إمام المسجد الراتب وكان حاضرًا معنا، ولكن أميرنا قال: يصلي بالناس الشيخ صابر قولاً واحداً تم الفصل.

فلما جاء الوقت الموعود كانت الحشود كبيرة من المنطقة

والمناطق القريبة، فتقدم الشيخ صابر وصلّى بالناس ثم قام يخطب ثم دعا دعاء طويلاً، وكنت أرى الدمع يسيل حتى يتساقط من لحيته، فبكى وبكى والناس تؤمن وتبكي لبكائه، وكان يوماً مشهوداً.

انصرفنا بعد الصلاة إلى المسجد لتتابع أعمالنا المعتادة، وقبيل صلاة الظهر تلبّدت السماء بالغيوم المترابكة، ومع صلاة الظهر بدأ المطر ينهمر، وكان غيثاً خصيباً، وتأثر الناس تأثراً كبيراً، واستمر المطر حتى أظلم الليل، وهكذا استيقظنا قبل الفجر والسماء تسكب غيثها، ونزلت الأودية وأغاث الله الخلق وسقى الناس، واستمر المطر دون توقف لمدة ثلاثة أيام، والله الذي لا إله غيره ما رأينا الشمس ولا توقف المطر، وما قدرنا نخرج من المسجد إلا للضرورة الملحة، وبدأ الناس في اليوم الثالث يشكون من استمرار المطر فقد تأثرت البيوت والأرض والمواشي وتوقفت حركة الناس وكان الوقت شتاء، إلا أن الله رحمهم ورفع عنهم المطر مع ظهيرة اليوم الثالث.

وبعد هذا الحادث تأثر الناس بالدعوة، وكانوا يتنافسون على استقبالنا في قراهم ومناطقهم وقبائلهم حتى خرج معنا منهم أربع عشرة جماعة أقل جماعة عشرة أشخاص.

مع هارون

اشتد عليّ وجع ركبتي، فجلست في المسجد ولم أغادره، وجلس معي المترجم، وكنا نتحدث حديثاً مبعثراً، فسألته عن عمله وعمره وأولاده وبلده.

فقال: عمري خمسون سنة، وبلدتي قرية ضمن منطقة شمال إسلام آباد، وعملي متقاعد من الجيش، حيث كنت إمام مسجد في الجيش الباكستاني، ويصرف لي راتب تقاعدي قدره سبعون ألف روبية، ولي خمسة من الأبناء جميعهم يحصل على المركز الأول في دراسته.

سألته: متى عرفت جهد الدعوة والتبليغ؟ وكيف؟

قال: رأيت عيني الدنيا على هذا الجهد، فقد كان أبي أشهر داعية في منطقتنا، ولقد رأيت مراراً يضرب حتى يمرض أياماً في سبيل الله، فقد كان متأثراً بدعوة الشيخ إلياس لاسيما في جانب التوحيد لدرجة أن الغلاة أطلقوا عليه لقب (الوهابي)، لكن ذلك لم يشنه عن دعوته، وربى جميع أبنائه على هذه الدعوة، فمنذ طفولتي وأنا أخرج في سبيل الله تعالى، وقد لقيت الكثير من مشايخ الدعوة في طول البلاد

وعرضها، وخرجت إلى الكثير من دول العالم، ولقد تأثرت كثيرًا بالشيخ (محمد يونس).

- ومن هو الشيخ محمد يونس؟

- الشيخ محمد يونس لا زال على قيد الحياة، ولا زال يمارس نشاطه في المركز إلى اليوم، وإن عدنا سأعرفك عليه، وبعد الاجتماع نستطيع نلتقيه ونسلم عليه.

- ولكن ما الذي جعلك تتأثر به من بين المشايخ؟

- الشيخ محمد يونس كانت بدايته صعبة، وله تضحيات في سبيل هذه الدعوة، وكان ذلك من صغره، وبدأت قصته بخروجه للدعوة وعمره ست عشرة سنة.

- هات هات يا شيخ هارون أحب أن أسمع أحوال المشايخ.

- خرج الشيخ محمد يونس أربعين يومًا دون إذن والده، وكان عمره ست عشرة سنة، حيث أخبر أمه بأنه سيخرج، ولم يعلم أبوه؛ لأن أباه كان من أشد خصوم الدعوة والمناوئين لها، ولما رجع إلى البيت بعد ذلك الخروج تلقاه أبوه عند الباب وقال له بكل هدوء:

ليس لي ابن يخرج مع الوهابية، لا أراك ثانية هنا!

فذهب إلى المركز في مدينته (راون بندي) مركز الشيخ زكريا، وفي المركز بقي أيامًا، ثم تحرك عدد من المشايخ وأخذوه معهم إلى

بيت أبيه لعلهم يسترضون الوالد، لكن الوالد للأسف كان متعصّباً
 كارها للدعوة، وكان يقول لهم: ليس لي ابن يخرج مع الوهابية،
 ليس لي ابن لا يعظم أولياء الله، إلى آخر هذا النوع من الكلام، فلما
 يئس المشايخ أخذوه إلى رايوند، وانشغل بالعلم والدعوة، ومرت
 عليه أحوال صعبة، لكن أعانه الله وتجاوزها، وهو في نشاطه وحيويته
 منذ ذلك الحين قبل أكثر من أربعين سنة إلى اليوم، حفظه الله.
 كما أن أباه حين هرم وضعف لان قلبه وسعى المشايخ لاسترضائه
 حتى رضي عنه، وكان ذلك مما يههم الشيخ طوال مسيرته.
 أتم الشيخ هارون كلامه والدموع تتصبب من عينيه، وهجم على
 مجلسنا بعض الأحباب وانشغلنا بحديث آخر.

ليلة ليلاء

فلما انصرف عنا الأحباب واصل المترجم حديثه، وحدثني عن
 ليلة ليلاء مرت به في رحلته الدعوية حيث قال:
 في عام ١٩٩١م خرجنا دعوة في منطقة (جلال شريف بور)، فلما
 وصلنا وحططنا رحالنا في أحد المساجد وتفرقنا للوضوء لصلاة
 المغرب؛ هجم الناس على أمتعتنا وقذفوا بها جميعاً في بئر جنب

المسجد، ثم طردونا بعد صلاة المغرب خارج المسجد، فتشاورنا، وكان يميل أكثرنا إلى العودة من حيث أتينا، لكن الأمير أصر على البقاء في المنطقة تحت أي ظرف لمدة ثلاثة أيام، وبينما كنا نتشاور جاء رجل وقال: بإمكانكم أن تناموا في مزرعتي القريبة من هنا، ولولا خوفي من أهل القرية أن يهاجموا بيتي؛ لأخذتكم معي لتباتوا عندي، فمشى معنا حتى أوصلنا إلى تحت سدرة عظيمة في مزرعته، فصلينا العشاء، وكان بعضنا يضحك من مشهد فرشنا وهي ترمى في البئر.

وفي الليل نزل المطر وبتنا في ليلة باردة مطيرة، فلما أصبحنا قال الأمير: سنقيم الأعمال من تحت هذه السدرة، لكن مع ارتفاع النهار جاء بعض أهل القرية، وكأنهم ندموا على فعلتهم وقالوا: تعالوا إلى المسجد فقد استخرجنا أمتعتكم من البئر ولم تصب بأذى لأن البئر بدون ماء.

قال هارون: ولم نغادر القرية بعد ثلاثة أيام إلا ومعنا عدد من أبنائهم خارجين في سبيل الله.

العودة إلى المركز العام في ديبالبور

لما كان يوم الخميس كنا قد أكملنا خروجنا في حي السوبر، وفي هذا الحي أكرمنا الأحباب بشتى أنواع الإكرام، حتى إنهم يقدمون لنا اللحم والعسل والمشروبات الغازية والبيض والجبن البلدي، وكذلك الزبدة البلدية والبيض والفاكهة ولبن البقر في كل وجبة. كان علينا العودة إلى المركز العام؛ لحضور البيان الأسبوعي، والاستعداد للخروج إلى حي آخر نكمل به خروجنا في ديبالبور، ثم نعود بعدها إلى رايوند.

وفي المركز العام كانت محاضرة للشيخ جواد، وهذا الشيخ كان ممثلاً كوميدياً مشهوراً، اهتدى على يد المغني جمشيد الذي سقطت به الطائرة عام ١٩٩٦م، وكانت هداية هذا المغني على يد الشيخ طارق جميل.

ممثّل كوميدى يلقى محاضرة الأسبوع

كان اليوم حافلاً بالعمل سواء داخل المسجد أو خارجه، فقد أخذنى المترجم الشيخ هارون إلى سوق كبير للثياب، وكانت لنا لقاءات مع الناس، فلم نعد إلا مع صلاة الظهر، وبعد الغداء جاء شيخ كبير إلى المسجد ونادى المترجم، فإذا المترجم يشير علىّ أن تعال، معنا جولة فقلت لبيك، وانطلقنا خلف الشيخ وهو يهرول بنا من شارع إلى شارع حتى وقفنا أمام باب كبير فإذا هو يطرق الباب فيفتح له ونلج بعده، وصعد إلى الدور الثاني حتى دفع باباً لإحدى الغرف الكثيرة فقال: تفضلوا اجلسوا، فجلسنا على سريرين متقابلين، ولقد رأيت أكثر من مرة أن فى دواوين الباكستانيين أسرة حديد صغيرة، لم يلبث قليلاً حتى جاء لنا بمائدة من الطعام، وأنواع من العسل والزبادي والبطاطس والبيض والخبز، فقال: أنتم الليلة ستغادرون حيناً فأحببت أن أنال شرف استضافتكم. فقلت ما هذه الجولة يا شيخ هارون؟

قال: أنا مثلك لا علم لي.

قلت: هلاً أخبرنا قبل الغداء حتى نستعد لهذه الجولة؟

ضحك هارون وقال: كُل، ستجد له مكاناً.

قلت: مثلي كمثل أبي هريرة حين قال: والذي بعثك بالحق لا أجد له مسلماً.

لكنني رغم ذلك جبرت بخاطر (الشيخ نذير)، ولم أشعره أن لا حاجة لنا بطعامه، فأكلنا قليلاً من هنا وهناك، وهو يكلمنا عن مزرعته ونحله والعسل الذي قدمه لنا، وكان جدلاً مسروراً باستضافتنا، فلما غسلنا أيدينا سألته:

متى عرفت هذا الجهد يا عم نذير؟ والتبليغيون يسمون الدعوة جهد.

فقال: عام ١٩٨٤ م.

قلت له: هل خرجت في سبيل الله خارج البلاد؟

قال: نعم، خرجت إلى معظم إفريقيا.

ثم قال: الليلة سيكون البيان للشيخ (جواد) وهو من لاهور، ثم أردف، والشيخ جواد هذا كان قبل خمس وعشرين سنة ممثلاً كوميدياً مشهوراً، فلقبه الشيخ (جمشيد) فوعظة ودعاه حتى جاء للمسجد في رايوند وتأثر كثيراً، وأصبح يقضي معظم وقته في المسجد، فجاءه الشيخ جمشيد وقال له:

هل اهتديت لتنام في المسجد؟

عد إلى إخوانك الممثلين والعاملين هناك، واحرص على هدايتهم

وارفق بهم وشجعهم، وأحسن كما أحسن الله إليك. فعاد إلى العمل وأخذ يدعو أصحابه ويطلبهم بالخروج معه لزيارة مركز رايوند وهم يماطلونه، وفي جهد استمر خمس سنوات استطاع أن يحول سبعة عشر من الوسط الفني إلى تبليغيين، وعلى رأسهم الممثل (عرفان هاشمي)، الشيخ الداعية المشهور الذي جاب القارة الهندية والكثير من دول العالم داعية إلى الله مدة عشرين سنة وما زال، وله اثنان من الأبناء تخرجوا من جامعة رايوند، ومنهم أيضاً الفنان المغني (جنيد جمشير) الذي تحول إلى منشد ديني مشهور تجد أناشيده وابتهالاته ومادحة النبوية تُعرض في معظم القنوات الفضائية الناطقة بالأردية. ومنهم ممثلة مشهورة تحولت إلى عالمة تخرجت من الجامعة الدينية. وقد اهتدى على يديه الكثير في طول هذه البلاد وعرضها.

بعد هذا الحديث الشيق عن الشيخ (جواد)؛ وجدت نفسي متشوقاً لرؤيته وحضور محاضراته والتعرف عليه.

فلما كان بعد صلاة العصر وكنا قد أنهينا المدة المقررة للبقاء في مسجد أبي بكر الصديق انطلقنا مستخدمين (الركشة)، وكنت أنا والشيخ أبوبكر بلفقيه في ركشة والآخرين كل اثنين مع ركشة، حتى وصلنا المركز وحططنا أمتعتنا في زاوية منه، وخرجت أنا والمترجم

هارون نتجول في حديقة المركز الجميلة بين أشجارها وورودها،
والتقطت الكثير من الصور للمركز وحديقته ومرافقه.
وفي الوقت نفسه كانت وفود الجماعات تندفق على المركز،
واحتشدت الكثير من السيارات والدراجات النارية في الموقف
المخصص.

وبعد صلاة المغرب كان المسجد غاصًا بالحضور، وتقدم نحو
المنبر الخشبي ذي الدرجات الثلاث رجل عريض ممتلئ كثر اللحية
متوسط القامة عريض الرقبة ذو وجه ضاحك وعينين مبتسمتين،
فجلس وسلم على الناس فضج المسجد برد التحية، فبدأ يرسل
موجات التنويم المغناطيسي للناس، فسبحان الله! كيف استطاع
هذه الرجل أن يستولي على الحضور لدرجة تشعر فيها وكأنه ربط
قلوبهم وعقولهم بخيوط وقبض على طرفها بين أصابعه فلا تسمع
إلا التكبير والتهليل والضجيج، ثم ترى السكون يعم وكأن المسجد
مقبرة موتى يقف عليها واعظ، ثم تسمع المسجد وكأنه يضحك
بمن فيه، وكم ضحك الناس تلك الليلة وكم ضجوا وكم بكوا،
وكان أحياناً يذكر شعراً شعبياً بلهجتهم البنجابية فيطربون له أيما
طرب.

أما نحن العرب فكنا نلتف حول المترجم هارون الذي يضحك

حتى يفقد وقاره، ويصمت حتى تفيض عيناه، ويعجز أحياناً عن ترجمة الكلام لحلاوته.

ومما التقطته من المترجم والذي يترجم لنا ترجمة مباشرة:
أن الشيخ جويد زار معظم دول العالم داعية إلى الله، ومما قاله الشيخ جويد:

أنه كان في خروج دعوي بكندا، وهناك استهدف رجلاً كان يعد ليكون قسيساً أو أسقفًا، وما زال به يدعوه ويعلمه الإسلام حتى قال ذلك الكندي: أريد أن أرى الإسلام عملياً بعد شرحك هذا، قال فأخذته إلى مركز التبليغ هناك، فلما دخلنا المسجد انحرفت نحو الحنفيات لأتوضأ فتوضأ هو معي. ثم وضعت له كرسيًا في مؤخرة المسجد فقلت له: اجلس هنا ولاحظ عبادات الإسلام بنفسك، وبعد إحدى الصلوات قال لي: متى يتقاعد المسلم من الصلاة؟ هل هناك حد معين للصلاة، وبعدها يكون المسلم معفياً منها؟ فقلت له: بل يصلي المسلم حتى يموت.

فقال: ولكني رأيت بعض المسلمين يمرون بجانب المسجد ولا يصلون فظننت أنهم قد أنهوا خدمتهم مع الصلاة.
وشرحت له أن في المسلمين مفرطين غير ملتزمين بأركان الإسلام، وبعد أكثر من عشرة أيام قضاها في المسجد اعتنق الإسلام.

و ذات ليلة كان نائمًا بجانبني في إحدى زوايا المسجد فاستيقظ ليلاً فوجد بعض الأحباب يصلون قيام الليل، وظن أنها صلاة الفجر فأيقظني للصلاة فقلت له: نم، فليس الآن وقت صلاة الفجر. فقال: فما هذه الصلاة؟

قلت: هذا عمل إضافي غير إلزامي، الواجب فقط الخمس الصلوات.

فقال: وهل هناك أجرة إضافية من الله لهذا العمل الإضافي؟ قلت: نعم.

قال: إذن فسأقوم أصلي حتى أحصل على أجرة إضافية. وهكذا أسلم الرجل وحسن إسلامه: وسافرت ووصيت به الأحباب في المركز.

ومما ذكر من القصص المعبرة والتي تفيد الدعاة، قال:

سافرت بصحبة زوجتي وبناتي اللواتي يحفظن القرآن إلى الولايات المتحدة الأمريكية، واستأجرت هناك بيتاً، ولي في أمريكا أخ مجنّس مع زوجته وأولاده وقد تأمروا تماماً، وفي يوم جاءت تزورنا زوجة أخي وكانت لا تصلي وتلبس لباس الأمريكيات رغم أنها باكستانية مسلمة، فقلت لزوجتي وبناتي:

ممنوع أحد يدعوها للدين، دعوها تتلقى منا الدين عملياً؛ لأنها

قد تنفر وتغادر البيت فنحسرها، فليكن بيتنا مثل حانوت العطور يشم منه العطر تلقائياً.

فلما جاءت أكرمناها وفرحنا بها، وكانت ترى برنامجنا في البيت من صلاة وذكر وتلاوة القرآن، فلم يمر أسبوع إلا هي محجبة قد تعلمت الصلاة، وأخذت تقرأ القرآن الكريم وتذكر الله كثيراً وتحول حالها تحوُّلاً كلياً، فكانت تحمد الله الذي جاء بنا إلى أمريكا لإنقاذها من وضع الضياع الذي تعيشه.

بعد أن أنهى الشيخ محاضراته أخذنا المترجم لنسلم عليه، وحين أخبره أننا عرب صافحنا بحرارة وقال كلاماً كثيراً لم يترجمه لنا هارون بسبب الزحام.

قصة تكتب بماء العيون

ضحى يوم الجمعة انطلقنا في سيارة دباب حوض إلى مسجد (رحمة للعالمين) بحي ضياء الدين، وفي الطريق قال الأخ (رشيد عبد) وهو يضحك: اليوم أمسك بي رجل كبير السن وأنكر عليّ رفع يديّ في الصلاة في أثناء الركوع والانتقالات، وأنكر عليّ وضع يدي عليّ نحري، ولكن ما تفاهمنا بسبب اللغة، فقال الشيخ

هارون: نحن نترك الكثير من المستحبات مراعاة للمذهب وتأليفاً لقلوب العامة، ولو فتحنا هذا الباب لفتح علينا الخلاف بعدد المسائل، ثم ذكر هذه القصة العجيبة فقال: قرأت في كتاب (أعمال الدعوة) لمولانا (محمد إحسان الحق) أن الشيخ المحدث صديق حسن خان، صاحب الروضة الندية، وهو على مذهب المحدثين، وغير متقيد بمذهب، عزم على زيارة مولانا أحمد اللاهوري، وهو من كبار علماء القارة الهندية وكان حنفياً، وقبل أن يغادر الشيخ صديق حسن بلدته بهوبال جمع تلاميذه الذين سيسافرون معه فقال لهم: الشيخ أحمد اللاهوري حنفي، ولذا حينما نكون في مدرسته ومسجده فلا تجهروا بالتأمين، ولا ترفعوا أيديكم في الصلاة إلا في تكبيرة الإحرام. ولما كان الشيخ في الطريق جمع الشيخ اللاهوري تلاميذه وقال لهم: سيزورنا الشيخ صديق حسن خان وهو على طريقة المحدثين، فإذا كانوا عندنا فاجهروا بالتأمين، وارفعوا أيديكم في الصلاة.

فلما وصل وفد الشيخ صديق خان وحن وقت الصلاة كانت المفاجأة أن الزائرين لم يجهروا بالتأمين، ولم يرفعوا أيديهم، بينما المزورون جهروا بالتأمين، ورفعوا أيديهم، فلما سلم الإمام، التفت صديق خان إلى اللاهوري مبتسماً وقال: ما الخطب؟ فقال: نفس

خطبكم، فعلنا ذلك إكرامًا لكم.
وكانت قصة تناقلها العلماء وطلاب العلم.

في حي ضياء الدين

قضينا ما بقي علينا من الخروج في ديالبور في حي ضياء الدين.
وتجولنا صباح الجمعة في سوق الحي، ومررنا بالكثير من الباعة،
وممن مررنا بهم شيخ كبير يبيع الفاكهة، حينما بدأت أكلمه
اكتشفت أنه يتكلم العربية بطلاقة، فقد كان مهاجرًا في السعودية،
وقضى هناك سنين طويلة، وكان بجانبه شاب يذكر أن اسمه صدام
حسين، فقد ولد في أثناء هجوم الأمريكيين على العراق عام ١٩٩٠م،
وحاول صدام أن يستضيفنا، وألحَّ في ذلك ولكننا اعتذرنا له.

وبعد صلاة العشاء قمنا بزيارة الشيخ سليم بطلب من ولده
السُّبَيْل، الذي لازمنا في المسجد طول أيام خروجنا في ضياء الدين،
كان الشاب السبيل يتقن اللغة الإنجليزية، فأخذنا إلى بيت أبيه الذي
أحسن استقبالنا، وكلمني بعربية واضحة تشبه لهجة السعوديين، ثم
أخبرني أنه مغترب في السعودية منذ ٢٥ سنة، وفي السنوات الأخيرة
يعمل في مدينة الطوال قريبًا من الحدود اليمنية. تبادلنا معه الحديث

عن الدعوة والدعاة وأحوال الجهد في باكستان، حتى وعدنا بالخروج معنا هو وولده السَّبِيل ثم قال:
 وصلني خبر ميلاد ولدي هذا بعد عودتي من المسجد الحرام، وكان الشيخ السَّبِيل قد صلنا بنا صلاة العشاء، ولذلك سميت ولدي هذا السَّبِيل عسى أن يكون من أهل القرآن الكريم كسميّه إمام الحرم.

فتيات الفجر

بعد أذان الفجر طلب مني جماعة المسجد أن أصلي بالناس، والتف حولي جماعة منهم، فقلت لهم: وفق الترتيب لا بد من استئذان أمير الجماعة الشيخ (محمد أفضل)، فذهبوا إليه يطلبون منه ذلك، فجاء إليّ قبيل الإقامة فطلب مني أن أتقدم إلى المحراب، لكنه همس في أذني بأن أسر بالبسملة؛ مراعاة للمذهب الحنفي، وإن كان خلاف مذهبي الشافعي.

تقدمت الصفوف وصليت الفجر بمطلع سورة (فُصِّلَتْ) التي اسمها في مصاحفهم (حم السجدة)، أنهيت الصلاة بالتسليمتين ثم انحرفت نحو المصلين، فرأيت الصف الأخير مزدحمًا بالأطفال

من الجنسين، وهم يتهامسون ويتدافعون ويكلم بعضهم بعضاً، ومنهم من يرفع يديه داعياً تقليدًا للكبار، ولم تنته من أذكار الصلاة حتى هرع الأطفال إلى مقدم المسجد يتسابقون على المصاحف في منظر فاتن جميل يشبه مسلسلات الأطفال في جزيرة السعادة، رأيت الفتيات يتقافزن ويتدافعن ويتنافسن على الدواليب، وهن يضعن ملائم على رؤوسهن ويلبسن الثياب الباكستانية التي تشبه ثياب الرجال في تفصيلها، طفلات في عمر الزهور يزدهمن على المصاحف كما تزدهم الطيبات الصغيرات على الغدران في الغابة بين المروج، وكأنهن النحل الذي ينتظر انبلاج الفجر ليطير إلى الوديان فيعانق الزهور، ثم يهرعن مع إخوانهن إلى مؤخر المسجد ليسحب كل واحد طاولته البلاستيكية الصغيرة التي يضع عليها مصحفه وليقفوا في صفين متقابلين، وتبدأ لحظتها معزوفة الخلود، تتداخل الأصوات، وتختلط النغمات، ويعلو المسجد ضجيج الأطفال ودوي الآيات، مع نسيمات باردة ترسلها السماء لتداعب تلك الوجوه الجميلة البريئة.

كان الأحباب في الحلقة يتدارسون برنامج اليوم، ولم يكن معهم غير جسد مني غادرته الروح؛ لتحلق كالحمامة فوق فراخها، كنت أتابع ضجيجهم وشغبهم وتدافع أكتافهم وابتساماتهم.

أرى الأولاد وهم يضعون القبعات على رؤوسهم؛ تعظيمًا للقرآن والفتيات يضعن ملاثم صغيرة وكبيرة على رؤوسهن، وربما تسقط المثلثة فتسارع إحداهن لتسويتها على رأسها، كنت مشدوها كمن يتابع فيلمًا وثائقيًا لغزلان الغابات الاستوائية. بدأت الأصوات تخفت قليلًا قليلًا، وبدأ الأطفال يعيدون المصاحف إلى أماكنها.

مر بجانب الكرسي الذي أجلس عليه طفل يقود أخته الصغيرة وكأنه يساعدها على إعادة مصحفها إلى موقعه، أمسكت بأيديهما واحتضنتهما وكنت أحاول أكلمهما، لكن هيهات هيهات، فلغة اللسان لم تسمح وإن كانت لغة القلب والعينين وقسمات الوجه قالت الكثير والكثير.

سألتهما بصعوبة عن اسميهما، فقالت الفتاة بأن اسمها (عروج) أي صعود وارتفاع أما اسم أخيها فكان (مزمل).

سعى نحونا شيخ كبير ذو لحية بيضاء وجبهة ملأها السنون بخطوطها، فاقرب منا مبتسمًا، وفهمت منه أن الطفلين حفيدها، وأنه يرجو أن يحفظا القرآن الكريم، وطلب مني أن أدعوا لهما بذلك. قبل أن يغادراني قرصت خديهما المحمرّين من شدة البرد، ومسحت على كوفية (مزمل) ومثلثة (عروج)، وأخذت أرسل

إليهما موجات من حب متدفق أفاض بها قلبي المفعم بعاطفة الأبوية حتى غادرا المكان وهما يمشيان ويلتفتان نحوي.

العودة إلى رايوند

في اليوم الأخير لنا في ديبالبور كُتفنا الخروج والزيارات، وقد خرجت أنا والمترجم هارون لزيارة أحد وجهاء المدينة فاستقبلنا في حديقة منزله التي تزينها الأشجار والأزهار والطيور الجميلة، وتقف خلفها ست سيارات فارهة، وقد ذكر لنا أن له ابناً محامياً يخرج للدعوة، هذه الأيام خارج مدة أربعة أشهر.

عدنا إلى رايوند بعد اثني عشر يوماً قضيناها في ديبالبور من إقليم البنجاب، تنقلنا فيها في الكثير من الأحياء والأسواق، ركبنا السيارة والدراجات النارية والركشات، اختلطت بالشعب الباكستاني عن قرب، وتعرفت على بعض عاداته وتقاليده وأفكاره، ولمست بعض الاختلافات المذهبية، وتعدد المشارب الفكرية، وظهر لي أن هناك فجوة كبيرة بين الحكومة والشعب، حركة الشعب على الأرض توحى بأن لا علاقة له بالحكومة، ولا يعول عليها كثيراً في أمور حياته اليومية، اللهم أن هناك احتراماً كبيراً للجيش واعتزازاً به،

ولعل النظام الفيدرالي له دور كبير في صناعة هذه الفجوة والتباعد بين الشعب والسلطة، حتى إن الناس لا تتحمس كثيراً للانتخابات الرئاسية والبرلمانية، بينما يشتد التنافس على الانتخابات الإقليمية. الشعب الباكستاني شعب محافظ وصبور وجلد، يعتز بدينه ووطنه وجيشه، رغم أن الحالة الاقتصادية في البلاد دفعت بالكثيرين إلى الهجرة في شتى البقاع، حتى إنها تكونت جاليات في بعض الدول كأستراليا والصين وجزر فيجي وجزر سيشل والمالديف، وحيثما ذهبوا نشروا معهم المذهب الحنفي واللغة الأردنية.

لقد كان خروجي إلى ديبالبور هو أول تجربة لي في الخروج في سبيل الله خارج اليمن، ولهذا بقيت تفاصيلها ماثلة في خيالي حتى لكأنني أرى الآن أحياء ديبالبور وشوارعها ومساجدها، ووجوه الناس، وزحام الطريق، وانتشار الأطفال، وكثرة الأبقار، فضلاً عن الحقول الخضراء، والأنهار الجارية، والعيون المتدفقة، والبيادر الكثيرة، ومنارات أفران الطوب الأحمر التي تقذف بالدخان إلى عنان السماء، والتي رأيتها حيثما اتجهت لاسيما في طريق ذهابي وأوبتي. ومما يؤسف له أنني رأيت في طريق عودتي مساكن المهمشين في عدة أماكن، وتألمت كثيراً لحال هؤلاء الفقراء المهملين في بلد تمر فيه أعظم أنهار العالم ويقع في أجمل وأخصب السهول.

ما أن وصلنا أطراف مدينة رايوند حتى رأينا الاستعدادات الكبيرة للاجتماع العام (المؤتمر)، رأينا السيارات تنقل الخيام والمعدات، والشباب يملؤون السيارات متجهين إلى مكان الاجتماع ليشاركوا في تجهيزه، ولما وصلنا المركز وجدنا أعدادًا كبيرة من القادمين من الداخل والخارج قدموا لحضور الاجتماع.

وفي المركز وبعد صلاة المغرب ألقى الشيخ محمد جميل بيانًا مؤثرًا عن التوكل على الله، وأورد فيه الكثير من القصص من القرآن والسنة والسير.

وفي تلك الليلة لقيت الشيخ سالم بن زين الحضرمي أمير الجماعة في جيبوتي وهو مقيم في عدن من مدة، والشيخ سالم من الحضارم الذين هاجر آبائهم إلى إفريقيا، وفي جيبوتي نشأ وتعلم حتى تخرج من كلية المعلمين مدرسا للغة الفرنسية، وفي الليلة نفسها لقيت الشيخ صالح مقبل أمير جماعة التبليغ في اليمن.

وهنا أقول إن هناك حاجة ماسة من الباحثين لدراسة نشأة الدعوة الإسلامية وتاريخها ورموزها في اليمن الجنوبي وتأليف الكتب في ذلك، فتاريخ الجنوب يكاد يكون شبه مجهول، سواء كان التاريخ الدعوي أو التاريخ السياسي، وقد أسهمت مرحلة التجريف التي مر بها الجنوب منذ نهاية الستينيات في تغييب الكثير من الحقائق

والوثائق والمراجع والرموز التي كان من الممكن أن تقوم بدور إيجابي في هذا الصدد.

ما لا يعلمه الكثير أن جماعة التبليغ وصلت إلى عدن قبل معظم الدول العربية، وربما أنها لم تسبقها غير المدينة النبوية، حيث أرسل الشيخ إلياس مولانا سعيد خان لتأسيس عمل للجماعة في المدينة النبوية، وللموضوع هذا قصة أخرى.

في خمسينيات القرن المنصرم وصل إلى عدن شقيقان هنديان بتكليف من الجماعة لتأسيس نواة للجهاد في عدن، وفي مسجد (أبو قبة) بدأ الشيخ نور وأخوه الشيخ عبدالغني نشاطهما في إنشاء العمل هناك، وأخذوا يتجولون في الناس ويبينون في المساجد على طريقة التبليغ، فكان ثمرة هذا النشاط تشكيل أول يماني وهو الشيخ (حسين عليوة) - رحمه الله - وأصله من محافظة شبوة منطقة حبان، ونشط حسين عليوة في العمل، وشكل بعض اليمينيين وعلى رأسهم الشيخ صالح مقبل الأمير الحالي للجماعة في اليمن، ومنهم عبدالله علوي الفحة اليافعي، وهو أول من أدخل فكر الجماعة إلى يافع، وهكذا نشطت الجماعة وانضم إليها الكثير من الهنود واليمنيين، وكان أحد مشايخها يقول: كان أول خروج لي في سبيل الله يوم ٣٠ نوفمبر ١٩٦٧ م.

وفي مطلع السبعينيات تجهزت جماعة للخروج إلى يافع في الوقت الذي بدأت فيه صراعات اليساريين، ومع هذه الجماعة أرسل الشيخ حسين عليوة رسالة إلى الأحاب في يافع «أنها ستأتكم جماعة خارجة في سبيل الله لمدة أربعين يوماً»، وفي الطريق جرى توقيف الجماعة في نقطة عسكرية، وبعد التفتيش وجدوا معهم الورقة التي كتبها الشيخ حسين عليوة، فصودرت الورقة وبقيت في أرشيف المخبرات حتى عشر عليها بعد حرب ١٩٩٤ م.

بسبب هذه الورقة أطلق الرفاق على جماعة التبليغ (جماعة الأربعين)، واعتقل الشيخ حسين عليوة في سجن التواهي لمدة ثمانية أشهر، وفي يوم من أيام السجن تلك زار السجن محمد سعيد عبد الله (محسن)، وزير أمن الدولة وصالح مصلح قاسم الذي أصبح فيما بعد وزيراً للدفاع، فرأوا الشيخ حسين عليوة يقرأ في مصحف معه، وفهموا أنه معتقل بسبب انتماء إسلامي، فصادروا مصحفه، وأمروا الحارس أن يخرجهم إلى باحة السجن ويربطه بخشبة ويضربه ضرباً مبرحاً، فضربه العسكري حتى كلت يده من الضرب والشيخ يقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

غادر الرفيقان السجن فما كان من العسكري إلا أن انكب على أقدام الشيخ يقبلهما ويطلب منه المسامحة؛ لأنه فعل ذلك خوفاً

من الفصل والاعتقال، وهو مجرد عسكري ينفذ أوامر، ثم بحث عن المصحف وأعادته للشيخ حسين عليوة.

بعد ثمانية أشهر أطلق سراحه فسافر إلى المكلا، وبدأ التشكيل هناك، وجرى اعتقاله ثانية ثم أفرج عنه، واستمر الشيخ حسين عليوة في دعوته على حذر، وقد شكل في هذه الفترة الكثير من التبليغيين، منهم الشيخ جمال سالم عضو شوري الجماعة في عدن حالياً وآخرون معه، ومع السماح بالتنقل بين الشطرين قبيل الوحدة سافر الشيخ حسين إلى الحديدية حيث أقام تلميذه الشيخ صالح مقبل هناك مركزاً للتبليغ، وبقي الشيخ هناك حتى وافاه الأجل فدفن هناك -عليه رحمة الله-.

وفي مطلع السبعينيات أيضاً كانت مجموعة من الأحباب في تشكيل في مسجد الرضا بالمنصورة، وما إن نزلوا في المسجد حتى بعثوا أصغرهم سنّاً وهو الشاب صالح مقبل إلى السوق ليشتري بعض احتياجات الخروج، وفي هذه اللحظة طوقت قوات الأمن المسجد، واعتقلت جميع الخارجين، إلا أن صالح مقبل حين رأى القوة تطوق المكان هرب إلى سوق الشيخ عثمان، ولم يعد إلى بيته خشية الاعتقال فغادر إلى شمال اليمن، وفي مدينة الحديدية أسس مركزه الذي هو أول مركز للجماعة في اليمن الشمالي، وبدأ نشاطه

هناك، ومن الحديدية انتشر فكر التبليغ إلى جميع المحافظات الشمالية على يد الشاب العدني صالح مقبل الذي هو أمير الجماعة إلى اليوم، وقد التقيته في رايوند الأيام الماضية فوجدته شيخاً نشطاً ذا همة وعزيمة لم تفتّ عودَه عقودَه الثمانية، مع تواضع وبساطة وروح مرحة صادقة.

ومن رموز الجماعة الشيخ أحمد عيضة، وقد جرى تشكيله في الكويت حين كان مهاجراً هناك، ثم عاد إلى اليمن في منتصف السبعينيات واعتقل مراراً، واقرحت عليه الجماعة أن يهاجر إلى كينيا لقيادة الجهد هناك، إلا أنه اعتذر وبقي في عدن رغم صعوبة الوضع فيها. وقد زرت الشيخ أحمد عيضة إلى بيته في دار سعد عام ٢٠١٢م فوجدته شيخاً كبيراً مقعداً، فلم تمر فترة حتى سمعت بموته - رحمه الله تعالى -.

ومن رموز الجماعة الشيخ أبو حربة والذي قلل نشاطه فترة السبعينيات نتيجة التضييق وبقي في عدن إلى حرب ١٩٩٤م، وفيها اعتقل بتهمة الانتماء لجماعة (الإخوان المسلمين) وعند سقوط عدن بيد القوات الشرعية نقل في سفينة نقلت الكثير من قادة الاشتراكي وجميع المعتقلين ومات في البحر فرمي في الأمواج طعاماً للحيتان.

ومن رموز الجماعة الشيخ الشهيد (أحمد كريم خدا بخش أمان الله)، وهو عالم وفقه وداعية عدني من أصل هندي. وقد خرج الشيخ خدا بخش أميرًا لمجموعة دعوية إلى حوطة لحج، فلما نزلت الجماعة المسجد، وبعد صلاة العصر خرجت الجماعة في الجولة وبقي أميرها في المسجد، وفي السوق اعتقلت الجماعة، ثم جاء عدد من الجنود فاعتقلوا الشيخ خدا بخش من المسجد، وبعد مدة أطلق سراح المجموعة لكن بدون شيخها والذي قيل فيما بعد إنه ألقى في البئر بعد إعدامه رميًا بالرصاص -رحمه الله-.

ومن العدل ينبغي القول إن الرفاق مع مطلع الثمانينيات خففوا الضغط على الجماعة، فكانت لها حركة لا بأس بها، وقد استطاعت الجماعة أن تستقطب في هذه الفترة الكثير من قادتها اليوم.

قبل الاجتماع

كان اليوم مزدحمًا بالناس والدعاة، ثريًا بالبيانات والهدايا والتوجيهات، وكلها للاستعداد للاجتماع، وقد فطرت هذا اليوم مع عدد من الإخوة من نيجيريا وموزمبيق وتايلند والصومال، وكان كل واحد يذكر أحوال الدعوة الإسلامية في بلده، أما أخونا التايلندي

فذكر أن هناك عددًا من الإخوة التايلنديين يدرسون في اليمن.
أما الأخ زكريا عبد الرحمن شرف الدين من موزمبيق، فقد وصل
رايوند مع عشرين من الدعاة الموزمبقيين لحضور اجتماع رايوند.

حدثني عن موزمبيق بما خلاصته

نسبة المسلمين ٣٠

نسبة النصاري ٣٠

والبقية وثنيون وبدون أديان

تتحرك جماعة التبليغ في طول البلاد وعرضها بحرية وانسيابية.

وهناك الكثير من المساجد في كل مدن البلاد.

والحكومة خليط من النصاري والمسلمين والوثنيين.

واللغة الرسمية للبلاد البرتغالية.

مع الأفغان

بعد صلاة العشاء كنت في حديث شيق عن الأدب مع الشيخ
الداعية الأديب أبي بكر بلفقيه، والذي اكتشفت أن له باعًا في كتابة
القصة القصيرة، وله علاقة بكتب الأدب وكتّاب القصة في عدن منذ
مطلع السبعينيات، وبينما كنا نتبادل أحاديث الأدب، قلت للشيخ

أبي بكر ضاحكًا: هذا المجلس يحتاج (سليماني) وسليماني تعني هنا شايًا أحمر، فقال: انظر أمامك هؤلاء الأحباب معهم ثلاثة شاي وكؤوس إضافية، بإمكانك أن تطلب منهم كأسين. ولأن حاجتي للشاي كانت ملحة فقد زحفت نحوهم وسلمت عليهم وقلت مبتسمًا: بكم تبيعون كأس الشاي؟

ففهموا حاجتنا للشاي وصبوا لنا كأسين، ولكن كانت نسبة السكر فيه قليلة جدًا، ويبدو أن تلك طريقتهم في صناعة الشاي، ناولت الشيخ أبا بكر كأسه، وجلست مع الأحباب وبدأت سمرتنا معهم.

الأحباب جميعًا من أفغانستان، وكانوا يزيدون على العشرة، معظمهم من (هلمند)، ويتكلمون لغة البشتو، وفيهم شاب يتكلم عربية مكسرة وهو من تولى الترجمة بيننا.

سألوني: هل خرجت تشكيل إلى أفغانستان؟ أو هل تعرفها، أو ماذا تعرف عنها؟

وهنا أصابني شيء من الوجد الذي يصيب مجاذيب الصوفية، وقفزت إلى ذاكرتي (أفغانستان) التي استولت يومًا على أحلامنا، وعلقنا عليها آمالنا الكبيرة، وعاشت عليها مشاعرنا، وسعدت بها ردحًا من الزمن.

قلت: أعرف عن أفغانستان الكثير.

قال المترجم: حدثنا ببعض ما تعرفه.

فبدأت أتذكر تلك الأيام الجميلة فقلت:

أفغانستان بلد الأبطال المجاهدين الشجعان الذين أرغموا أنف
الدب الأحمر، عاصمتها كابول، ومدينة العلم فيها قندهار، بلدة
الملا محمد عمر زعيم الطالبان، ومن مدنها مزار شريف، وأهلها
من الأوزبك، وهي بلدة الجنرال الشيوعي عبد الرشيد دستم الذي
اقتلته طالبان، ومن مدنها هيرات وهلمند وموسى قلعت، فلما
قلت (موسى قلعت) قال شاب أحمر الوجه: أنا من مدينة موسى
قلعت.

ثم استطردت فقلت: ومن مدنها جلال آباد، فلما نطقت جلال آباد
تذكرت اليوم الذي سقطت فيه جلال آباد بيد المجاهدين وأصبح
الطريق مفتوحًا إلى كابول.

قال المترجم: ماذا تعرف عن أهلها؟

قلت: معظم الشعب من جنس البشتون، ومنهم سياف وحكمتيار
والملا محمد عمر ومولانا جلال الدين حقاني ويتكلمون البشتو.
وفي الشمال الجنس الطاجيكي، وهم يتكلمون الفارسية ومنهم
برهان الدين رباني وأحمد شاه مسعود، وفي جهة أوزبكستان لاسيما

في منطقة مزار شريف يقع جنس الأوزبك، وهي بلدة الجنرال دستم، وأيضاً هناك الهزارة الذين يعتقدون المذهب الشيعي الاثني عشري. وقرأت عن الملك ظاهر شاه، وأول رئيس للمجاهدين صبغة الله مجددي ويونس خالص، وعرفنا يوسف قرصاي وغيرهم. كنت أكلهم وهم يضحكون ويضربون أيديهم ويكلم بعضهم بعض بتعجب.

قال المترجم: أنت تعرف أفغانستان أكثر منا، ولا بد أنك أما أن تكون خرجت تشكيل إلى جميع أفغانستان، أو أنك كنت هناك أيام الجهاد.

فلما ذكر الجهاد قال أحدهم: هذا الشيخ الذي بجانبني كان من الذين شاركوا في جهاد الروس، فأخذت يده فقبلتها، فرأيت أظافرة طويلة متسخة، فأخرجتُ من جيب قميصي (مظفرة) اشتريتها بعد العصر بسبعين روبية، وشعرت أن البائع غالى في ثمنها، فأمسكت أصابعه ورجوته أن يسمح لي أن أقلم أظافرة بنفسي، وبصعوبة استطعت أن أقلم أصابع يديه وأساعده في جمع أظافرة من الأرض، وأراد أن يقبل يدي فانتزعتها من يده. كان الأحباب ينظرون إليّ باستغراب، فقلت لهم: هذه الأصابع التي قلمتها هي أظافر يد كانت تمسك البندقية في الليالي الباردة دفاعاً عن النساء والولدان

والمستضعفين، وأرجو أن يكون عملي هذا مما يرحمني الله به يوم القيامة.

في هذه اللحظة جاء شيخ كبير فجلس بيننا، ومددت يدي إليه لأصافحه، ولكنه مدَّ إليَّ يده اليسرى فصافحني بها، فسألت المترجم فقال: يده اليمنى معاقة بسبب قذيفة روسية، ثم كشف أحدهم عن كوفيته وقال: انظر أثر الشظايا في رأسه، فرأيت عدة حفر تشهد له بالجهاد وتشهد للروس بالجريمة، ثم أخبروني أن هذا الشيخ كان من قادة جبهات الجهاد أيام الزحف السوفيتي على البلاد، فلما خرج الروس ترك القتال وعاد إلى مسجده، ولم يشارك في قتال بعدها. ثم رأيتهم يتهامسون فيما بينهم فقال المترجم: يريد الأحباب أن يسمعوا منك تلاوة العشر السور، فقرأتها لهم وكأنَّ عليَّ رؤوسهم الطير.

فقال أحدهم: أحب أن تقرأ سورة الواقعة، فقرأت وهم ينصتون بخشوع، فقال الآخر: اقرأ سورة الرحمن، فتلوت مطلعها. فقال المترجم: نريدك أن تخرج معنا إلى أفغانستان تشكيل لمدة سنة.

فقلت: بلادكم بلاد حرب من عشرات السنين، فضجوا بالضحك وقالوا: نحن الآن في جهاد الدعوة إلى الله تعالى، والحرب الآن في

بلادكم أنتم.

رأيت أن السمر قد طال، وبدأ الأحباب عن يميننا وشمالنا يخلدون إلى النوم، فانسللت منهم واستلقت بجانب الشيخ أبي بكر الذي كان يغط في نوم عميق.

أيام الاجتماع

تعقد جماعة التبليغ مؤتمرات كبيرة تسميها اجتماعات، تهدف هذه المؤتمرات إلى تنشيط العمل الدعوي، وبث روح الدعوة والتحدي والمغامرة في قلوب الدعاة، فيجتمع عدد كبير من الدعاة والمحبين للدعوة، يتلقون هناك محاضرات وجلسات خاصة وعامة، يتحاث فيها الحاضرون على الخروج في سبيل الله والدعوة إلى الله، يحاضر في هذه الاجتماعات مشايخ الدعوة وعلمائها الكبار، وبعد الاجتماع تبدي أعداد كبيرة من الحضور استعدادها للخروج في سبيل الله داخل البلد وخارجه.

تدير الجماعة هذه المؤتمرات الكبرى باقتدار كبير من الاستقبال في المطارات وتنسيق الدخول والخروج إلى البلاد، مع الترتيبات الداخلية، وتمهيد المخيمات وأماكن الطعام، وتنظيم الحركة

والمحاضرات والحراسات، في انسجام تام تعجز عنه الكثير من المؤسسات والأحزاب الكبرى، بل بعض الدول. وللجماعة مؤتمرات متعددة قُطرية وإقليمية وعالمية، وتقيم اجتماعاً عالمياً سنوياً في جمهورية بنجلاديش، وهناك مؤتمر كبير في باكستان واندونيسيا وجنوب إفريقيا، واجتماع للجزيرة العربية في مدينة الحديدة اليمنية، بل هناك اجتماع في فلسطين الداخل يحضره عشرات الآلاف من الفلسطينيين.

أما اجتماع باكستان فهو في الأصل لتبليغي باكستان، ولكن يدعى له ما يزيد على خمسة آلاف داعية من خارج باكستان، على رأسهم أمراء الدعوة في جميع دول العالم.

بدأت فكرة الاجتماعات أو قل المؤتمرات في عام ١٩٥٣م، ولم تتوقف عامًا منذ ذلك الحين، وحينما وقعت أحداث ١١ سبتمبر وغزو أمريكا لأفغانستان استدعى الرئيس الباكستاني برويز مشرف أمير الدعوة في باكستان الشيخ عبد الوهاب؛ للتشاور معه حول موضوع المؤتمر، وأبلغه أن هناك توجيهات أمريكية بإيقاف الاجتماع هذا العام، فقال له الشيخ عبد الوهاب بقلب ثابت واثق: إن كان عندك توجيهات أمريكية بوقف الاجتماع، فعندي توجيهات ربانية بعقد الاجتماع، وغادر مجلس الرئيس وعقد الاجتماع.

لو كانت جماعة التبليغ تنصيرية

أظن أن معظمنا يعرف شركة (نستلة) للألبان، فهي من أشهر شركات الألبان التي اخترقت كل القارات، هذه الشركة العملاقة تخصص نسبة من أرباحها لدعم التنصير حول العالم، وهناك الكثير من الشركات ورجال الأعمال والمليارديرات من النصاري يدعمون حركة التنصير عبر العالم فضلاً عن دعم الدول والفايكان، وبسبب هذه الجهود والدعوات تتحرك المنظمات التنصيرية العملاقة، وتمتد في البر والبحر، وتمتلك كل الإمكانيات من ملايين المبشرين والمستشفيات ودور الرعاية والمدارس وأساطيل من السفن والطائرات والمطارات والنفوذ، وثمرة هذه الأعمال تحويل ملايين من البشر من الوثنية إلى النصرانية، فقد أصبحت بعض الدول نصرانية بنسبة كبيرة جداً بعد إذ كانت وثنية، بل تحول كثير من المسلمين إلى النصرانية في إفريقيا وإندونيسيا وغيرها، وسمعت مرة الشيخ أحمد ديدات -رحمه الله تعالى- يقول: تحول خمسة عشر مليون مسلم في إندونيسيا وحدها من الإسلام إلى النصرانية في الفترات الماضية.

- انظر بالمقابل ما هو موقف المسلمين من المبشرين برسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- أعني (جماعة التبليغ).
- بعض الدول الإسلامية تمنع نشاطهم منعاً باتاً.
 - بعض الدول تسمح لهم بالتحرك في إطار ضيق.
 - بعض الجماعات الإسلامية جندت نفسها لمحاربة الجماعة وتشويهها، وصرفت في ذلك الكثير من الجهود.
 - بعض الإسلاميين يحقّر جهودهم، ويستصغر أعمالهم.
 - بعض أئمة المساجد لا يسمح لهم بالإقامة والدعوة في مسجده.
 - بعض أئمة المساجد يعدُّ نفسه حقق إنجازاً عظيماً لو سمح للجماعة بالنزول والعمل في مسجده.
- يبقى السؤال المؤلم: ماذا قدم المسلمون؛ دولاً، وجماعات، وشركات، ورجال أعمال، لهذه الجماعة المبشرة بدين الإسلام.

من قصص الأحاب

بينما كنا اليوم على مائدة الشاي وبجانبى عدد من الإخوة الأفغان والعرب، وكنا نتكلم في أحاديث عن ثمرات الأخلاق، حدثني الشيخ أبوبكر بلفقيه بهذه القصة التي هو شاهد عليها:

قال: خرجنا ذات سنة في سبيل الله في محافظة البيضاء، وكان ترتيب خروجنا في منطقة قريبة من مدينة البيضاء في مسجد جميل وجديد، وبجانب المسجد بيت ضخم واسع، يدل على ثراء صاحبه، وعلمنا أن صاحب البيت هو من بنى المسجد، والذي استضافنا في قصره المبني بالحجارة البيضاء ذي الأدوار الأربعة.

وفي الديوان الكبير المؤثث بفخامة استقبلنا شيخ هرم وأكرمنا غاية الإكرام.

فلما جلسنا بعد تناول الطعام أخذ هذا الشيخ يشكرنا على قبول دعوته، ويؤكد أن هذا شرف له ثم قال: يا أبنائي، لقد كنا فقراء معوزين نسكن بيتاً قديماً ضيقاً، ثم من الله علينا من فضله، وفتح لنا خزائنه، ولن نبخل مما آتانا الله من فضله.

وقصة التحول التي حصلت لنا بدأت في السعودية، وذلك أن لي

ولداً شاباً يعمل في شركة سعودية براتب ألف ريال سعودي فقط، وكان عمله الإشراف على العمال البنغال، وصرف لهم أجرتهم اليومية نهاية الدوام.

وذات يوم جاء صاحب العمل وهو مدير الشركة ولم يعجبه عمل البنغال، فغضب غضباً شديداً، وفقد أعصابه وطردهم جميعاً بدون أجره، واستبدل آخرين غيرهم، ومرت السنوات. وحضر صاحب العمل خطبة جمعة عن الظلم والتحذير منه وخطورته، فتذكر قصة البنغال التي جرت منذ زمن، وبعد الخطبة كلم الشيخ الخطيب وشكى له من تقصير العمال البنغال وحكى له القصة، فقال له الشيخ: لا بد أن تدفع لهم أجرتهم، وإلا فهم خصماً لك يوم القيامة. عاد الرجل إلى عمله ودعا ولدي وقال له: أنت في إجازة مفتوحة مدفوعة الأجر، أريدك أن تبحث عن العمال البنغال وتدفع لهم أجرتهم ولو بحثت عنهم عشر سنوات.

فقال له ولدي: لقد استلم العمال أجرتهم في تلك الليلة التي طردتهم فيها.

قال: وكيف ذلك؟

قال كان معي مال جمعته من راتبي الشهري فدفعت لهم رواتبهم منه وانصرفوا مستوفيين الأجرة.

في تلك اللحظة تفاجأ صاحب العمل وقال لولدي: لا يفعل مثل هذا الفعل إلا رجل كبير وأمين، لهذا من الآن سيتغير وضعك في الشركة، ومن الغد سوف تتسلم مالية الشركة بكل فروعها. ومن ذلك الشهر ارتفع راتب ولدي إلى عشرة آلاف ريال سعودي، غير المميزات الأخرى والثقة الكبيرة التي حظي بها، وفتح الله لنا بركاته بفضلته تعالى ثم برحمة ولدي لأولئك العمال الفقراء.

أبو صنعاء التونسي

حين تستيقظ قبل الفجر بساعة أو ساعتين ترى من في المخيم ما بين راعع وساجد وقائم ورافع يديه إلى السماء، وتسمع للمخيم دويًا كدوي النحل.

وفجر اليوم صليت الوتر قبيل أذان الفجر، وما إن سلمت حتى أذن المؤذن فصليت سنة الفجر، فلما سلمت عن شمالي تلقاني وجه بشوش ثم مدّ يديه ليصافحني ويتعرف علي.

كان ذلك هو الأخ عبد الرؤوف التونسي، فسألته عن بلده فقال: أنا تونسي من سوسة مقيم في مدينة (نيس) بفرنسا، ومجنس الجنسية الفرنسية أنا وزوجتي وأبنائي، لكنني أقضي معظم العام في تونس.

سألته: كيف وضع حركتكم الدعوية في تونس؟
قال: هناك مركز رئيس في تونس، ومراكز فرعية في بعض المدن،
لكن وزارة الأوقاف لا تسمح لنا بالدعوة في المساجد، وتحاول
تضييق حركتنا تضييقاً واضحاً، وليس نحن فقط بل كل الجماعات
الإسلامية.

قلت: وكيف وضعكم في (نيس)؟
قال: نتحرك بكل حرية وسهولة، ونقوم بجميع أعمالنا ونجتهد
كثيراً على المسلمين الفرنسيين لاسيما عرب شمال إفريقيا.
ثم سألني من أي بلد أنت؟
قلت: من اليمن.

قال: مررت قبل عشر سنوات بصنعاء في طريقي إلى الحج،
ورأيت صنعاء وشعائر الدين فيها ظاهرة، والشعب متدين،
والحجاب منتشر، والمساجد عامرة؛ فأسعدني ذلك كثيراً، واتصل
بي الأهل يبشرونني أن الله رزقني بنتاً، فسميتها (صنعاء)، لإعجابي
بتلك المدينة المحافظة.

ثم سألني عن اليمن، فقلت: تمر اليمن بوعكة صحية ستعافئ
منها قريباً بإذن الله تعالى.

قامت الصلاة فقطع علينا المؤذن حديثنا، فوقفنا بين يدي مولانا

صفاً واحداً، كتفاً بكتف، تونسي من سوسة، ويمني من عدن،
وعماني من صحار، وفلسطيني من الخليل.

دموع المترجم

أغلب برامج الاجتماع هي محاضرات تبدأ من بعد صلاة الفجر
ثم محاضرة الضحى وبعد الظهر وبعد العصر وبعد المغرب، وبين
المحاضرات تشكيل مجموعات وتجهيزها للخروج في باكستان
يوم الأحد القادم، والمحاضرون هم كبار علماء الجماعة ودعاتها
من الهند وباكستان، فمن المحاضرين في الأيام الماضية: الشيخ نذر
الرحمن وهو شيخ كبير قارب المائة يتحرك على كرسي، والشيخ
إبراهيم كجرات وهو عضو شورى الحركة يقيم في المركز الرئيس
في نظام الدين بالهند، تجاوز الثمانين من عمره، والشيخ طارق
جميل وهو من العلماء الخطباء المتكلمين ورئيس جامعة الحسين
بفيصل آباد.

ولكن كانت محاضرة الليلة مختلفة، فقد وصل من نيودلهي الشيخ
أحمد لات، وهو من رفقاء الشيخ يوسف الأمير الثاني للجماعة،
وكانت محاضراته كغيره بلغة الأردو، ثم يقوم المترجمون بنقلها

إلى اللغات الموجودة في المخيمات، وهناك الكثير من كراسي الترجمة مبثوثة في أماكن متباعدة، فكرسي اللغة العربية، وكرسي اللغة الإنجليزية، وهكذا الفرنسية والبرتغالية والإسبانية والصينية والتركية والفارسية، بل ولغات بعض القبائل الإفريقية كلغة اليوربا في نيجيريا، ولغة الفلبين ونيبال وغيرها، وتجري الترجمة عبر سماعة يضعها كل مترجم في أذنيه يسمع من خلالها كلام المحاضر ومن ثم يقوم بنقله للحضور كل حسب لغته.

أما الترجمة العربية فقد تناوب عليها عدة مترجمين، ولغتهم فصيحة واضحة.

بدأ الشيخ أحمد لات يتكلم ويستشهد بآيات القرآن والأحاديث النبوية والسيرة النبوية وأخبار الصحابة، وكان المترجم ينقل الكلام وعبراته تسابق عباراته، ودموعه لم تكفها المناديل التي يمسحها بها بين الحين والآخر، ولما ذكر الشيخ قصة (سرية نخلة) وكيف شكل الرسول -صلى الله عليه وسلم- عبدالله بن جحش إلى مكان لا يعلمه ابن جحش، ولم يكن منه إلا السمع والطاعة، فمضى والأمر مكتوب في ورقة وهو تكتيك عسكري جديد لم تعهده العرب، وفي الوقت نفسه طاعة وتضحية جديدة لا تعرفها الدنيا، في هذه القصة ودروسها عجز المترجم عن الاستمرار في الترجمة، وكان يحاول أن

يمضي لكن هيهات، فرأيت الكثير من العيون تزدهم فيها الدموع.
وكذلك الحال في لحظة تشكيل حذيفة يوم الخندق في تلك الليلة
الباردة المطيرة المخيفة.

الحقيقة أن الشيخ أحمد لات أسال الليلة دموعاً، وأفاض عيوناً،
ولكن دموع المترجم أرسلت سحائب دموع الحاضرين، فما رأيت
مثل الليلة باكباً وخاشعاً، أمة بالآلاف كأنَّ على رؤوسهم الطير،
وكأنَّ في أعينهم الغمام.

لقيت بعدها الأخ الداعية الخاشع أحمد مانع فقال: أكملت أربعة
أشهر وكنت مسافراً بعد الاجتماع، لكنني سجلت الليلة مع الفرق
التي ستنتقل إلى إفريقيا لمدة شهرين.

فيلسوف الحركة (عبد الرحمن بومباي)

كان بيان الليلة أعمق بيان سمعته منذ وصولي باكستان، تعرض فيه
مولانا عبد الرحمن بومباي أمير الجماعة في مدينة بومباي لفلسفة
الحركة، ونشأتها، وأصولها، وظروف بقائها، وشروط استمرارها،
والتحديات التي تواجهها، بكلام عميق يدل على رسوخ الرجل في

العلم والدعوة، وكان يغرف من الأدلة والسيرة ومواقف الصحابة والتاريخ الإسلامي شواهد يسند بها رؤيته ويفلسف بها استراتيجية الحركة، ولأنني لم أكن قريباً منه ظننت خطأ أنه يقرأ من أوراق أمامه. وكان خطابه باللغة العربية مع ضبط تام ولغة فكرية راقية. ويبدو لي أن مكانة الشيخ في الحركة تشبه مكانة محمد أحمد الراشد وفتحي يكن وصلاح الصاوي وأمثالهم من مفكري الحركة الإسلامية في المنطقة العربية.

عبد المجيد شهرت

كان ممن لقيتهم في الاجتماع الأخ عبد المجيد شهرت من قرغيزيا، كان ضمن ستين طالباً من خريجي المدارس الدينية في بلادهم، الذين أتموا الخروج في سبيل الله سنة كاملة في الباكستان دعاة إلى الله. وقد قدم أيضاً من قرغيزيا أكثر من ثلاثمائة لحضور اجتماع رايوند باكستان.

أسير في الاجتماع

من الإخوة الذين حضروا الاجتماع شاب فلسطيني من نابلس محكوم في سجون اليهود بالمؤبدات يعني بما يزيد على مائة سنة، ولكن الله مَنّْ عليه بالإفراج في صفقة (شاليط)، ومن شكره لنعمة الله قرر أن يخرج دعوة في سبيل الله سنة كاملة، وقد لامه بعض أهله على غيبته عنهم سنة كاملة فقال لهم: افترضوا أني ما زلت في سجون الاحتلال.

وقد حضر الاجتماع ما يزيد على المائة قليلاً من فلسطيني الضفة الغربية، وكانت تجمعنا بهم جلسات وأكلات ومسامرات الشاي والقهوة، ويحلّق بنا الحديث في أحلام وضحكات، وفيهم شاب مقدسي خفيف الدم كبير العمامة، فقلت له: ألا تريح رأسك من هذه العمامة؟

فقال ضاحكاً: لا بد أن يتساوى حجم العمامة مع حجم العلم والهدى، ويبدو أني أتيت منهما حظاً يساوي حجم عمامتي، فقصت له قصة مفتي لبنان حسن خالد -رحمه الله تعالى- فضحك وضرب كتفي ورمى عمامته على الفرش -حفظه الله-.

ولقد أخبرونا أن في الضفة الغربية تسعة مراكز للتبليغ، وقد أسلم
بجهد هذه المراكز ما يقل عن المائة قليلاً من اليهود.
قال الأخ الراوي: ولقد رأيت عيناى إحدى الفتيات اليهوديات
المهتديات وهي ترتدي الحجاب الكامل ثم تزوجت فلسطينياً
مسلمًا.

وفي هذا اليوم تفرقت الجموع، وحانت لحظات الوداع، فودعنا
أحبابنا المغاربة والفلسطينيين والعمانيين والأفغان وسنة إيران
وغيرهم من جنسيات العالم.

ومع الضحى جاء المترجم هارون يودعنا، حيث جرى تشكيلة
مترجمًا مع جماعة تشادية تتقن العربية إلى منطقة الملتان.

حكمة سودانية

في الصباح كان الجو باردًا والنسيم عليلًا، والكل يضع على جسمه
ثيابًا ثقيلة ويتلفع بشالات مختلفة، لاسيما والهنجر الإسمتي الذي
نقيم فيه نحن الضيوف مفتوح من جميع جوانبه.
قبل صلاة الظهر جاءنا مندوب من (شعبة التشكيل)، وأخبرنا أن
علينا الانطلاق بعد صلاة الظهر إلى مخيمات الباكستانيين حيث

يقع مجلس التشكيل، فصلينا الظهر وانطلقنا إلى هناك، واستقبلنا الحراس الذين يقفون على البوابة المصنوعة من أعواد قصب السكر، وهذه البوابة تفصل الباكستانيين عن الضيوف، وجميع الحراس من البشتون حسب تناوب المناطق على الحراسة، وولجنا البوابة وهناك رأينا مخيمات لا آخر لها للباكستانيين، ولفحتنا موجات البرد وتبين لنا أن حالنا في الهنجر أفضل بكثير من حال إخواننا في المخيمات.

أجلسنا المندوب على الحصر التي يجلس في مقدمها عشرة من المختصين في التشكيل، وأمام كل واحد منهم طاولة بلاستيكية صغيرة يضع عليها دفتره ويكتب تفاصيل الخارجين، و يضبطون جميع المعلومات عنهم، ثم يخلطونهم بمجموعة باكستانية ويحددون لهم تفاصيل خروجهم، ويعطى كل واحد كرتاً يتضمن الاسم والبلد ومكان وزمان الخروج ورقم العمود الذي يجلس حوله خلال هذه اليومين اذا استدعي للشعبة، وعُيِّن معنا مترجم وحُدِّد لنا الخروج جنوباً إلى إقليم السند (شهر مورو) التي سترحل إليها بالقطار مسافة ٢٣ ساعة، وجميع الباكستانيين في جماعتنا من البشتون.

انتقلنا إلى العمود (١٩٠) وهناك جلس معنا المختص بالهدايات

(الإرشادات)؛ لتكون رؤيتنا واضحة حول المنطقة التي سنخرج إليها وعيّن علينا أميراً، وجرى بعده التعارف بين الخارجين.

عدنا إلى موقعنا وشعرنا بشيء من الدفء مقارنة بالمخيم، وبقينا في موقعنا في مقدمة الهنجر حيث يقيم العرب وبقية الضيوف، وهناك كان الكل يستعد للسفر منهم من سيعود إلى بلاده غداً الأحد نهاية الاجتماع، ومنهم من يستعد للخروج في الباكستان، وقد ذكر أحد المحاضرين أنه في العام الماضي خرجت (١٤٨٧٦) جماعة في باكستان لمدة أربعة أشهر غير الأربعين اليوم والشهرين.

بعد صلاة المغرب استدعانا أحد الإخوة اليمنيين لتناول عشاء يماني في مائدة خاصة لليمنيين أعدها الشيخ علي التربي، وهناك وجدنا الفول والعسل والحام والزعر والجبين وحببات الزيتون والشاي العدني، ولأول مرة أرى المطيط الذي لم يعجبني مذاقه.

وحين بدأنا تناول الطعام مر بجانبنا أخ سوداني كان ذاهباً إلى صالة الطعام، ثم تسمر فوق رؤوسنا ينظر إلينا فأنشد:

عليك بالفول لا تنسَ فضائله

فهو للبطن مسمار وخشخاش

ثم جلس بيننا وبدأ يأكل وهو يقول: أخوكم في الله (الفتاح بن علي) من أم درمان.

مصنع الدعاة

لعلك أخي القارئ تتذكر قصة الأحاب الأفغان الذين سهرتُ معهم في مركز رايوند، من هؤلاء الأحاب شاب اسمه إلياس، أراه يبحث عني حتى يجلس معي، ويحاول أن يكلمني بما معه من كلمات وإشارات وأهمها (مولانا أهبك في الله)، فلما انتقلنا إلى ساحات الاجتماع أخذ يبحث عني في هنجر العرب حتى وجدني، فكان يجالسني ويمشي معي ممسكًا بيدي، وربما نخرج إلى مكان الدكاكين المرفقة بالمخيم، أشعر أنه يبادلني مشاعر الحب والأخوة التي استشعرها مني.

الليلة قبل أذان المغرب جاء إلى مجلسنا ومعه شيخ سبيني يلبس الثياب والعمامة الأفغانية، وتتوسط جبهته سجدة دائرية، وتحيط بوجهه لحية هندية طويلة، ويدير بين أصابعه مسبحة صغيرة، ويحمل في يساره كيسًا يخفي فيه شيئًا، فلما جلس إلياس طلب منا أن نتحلق حول هذا الشيخ الصالح، فتحلقنا أنا والشيخ أبوبكر والأخ محمد السعدي والشاب إلياس حول الشيخ، فأخذ يحدثنا بعربية واضحة عن أهمية الدعوة إلى الله تعالى، فلما أنهى

حديثه قال إلياس :

هذا أبي... واسمه حبيب الرحمن.

فلما قال ذلك صافحته من جديد وشجعت إلياس أمام أبيه ليفتخر بولده، ثم أخذنا نسأله عن أفغانستان والدعوة، فأخبرنا أنه من هلمند، وأن الدعوة وصلت إلى قريتهم عبر الخارجين في سبيل الله، وأنه عرف الدعوة وعمره عشرون سنة تقريباً، فخرج حينذاك ولم يترك الخروج ولا الالتزام ببرنامج الجماعة في الخروج والاجتماع الأسبوعي والشهري والسنوي والأعمال الخمسة والمشورة وغيرها من الأعمال ثم قال:

رزقني الله ستة ذكور وجميعهم دعاة يخرجون في سبيل الله وسُمِّي بعضهم بقيادة الحركة: إلياس، طارق جميل، عمر لالمبوري، أحمد، زيد، لقمان، وله ثمان بنات كلهن ملتزمات بمناهج التبليغ، ويدرسن في المدرسة الدينية، وله زوجتان داعيتان. وأخبرنا أيضاً أن ولديه أحمد وإلياس موجودان في الاجتماع وخارجان أربعة أشهر، وهو كذلك خارج في سبيل الله أربعة أشهر.

وهو يحدثنا أخرج من كيس كان معه حبات رمان كإكرام لنا نحن الضيوف.

وأردت أن أسأله عن وضع الدعوة وآثارها ومراكزها فاعتذر

ورفع مسبحته وقال: حان الآن وقت أذكار المساء، ثم صافحنا بكلتا يديه وانتحى جانباً، وانفصل عنا وعن الدنيا وانصهر في عالم الذكر، فكنت أنصت له وهو يهمس وعيناه شبه مغمضتين مكرراً:
 اللهم إني أمسيت بحمدك أشهدك وأشهد حملة عرشك وملائكتك
 وجميع خلقك أنك أنت الله وحدك لا شريك لك وأن محمداً عبدك
 ورسولك.
 اللهم ما أمسى بي من نعمة...

دموع على خرائب الرملة

في ليلة من ليالي الاجتماع صلى بجانبى رجل ستياني، ذو لحية
 اختلط فيها السواد بالبياض، وثياب شامية، ووجه يقطر تقي، ولسان
 يقطر ذكراً وعسلاً. فلما سلم مديده إليّ ليقبض على يدي بكلتا يديه
 الباردتين ويقول: أخوك في الله ويحبك في الله (محمد الصوالحة) من
 الأردن، قالها بنبرة شامية موسيقية، وكأنه مذيع في برنامج (مساء
 الحب) الذي تقدمه القلوب المفعمة بالإيمان واليقين.
 كانت يدي الصغيرة الباردة بين يديه الكبيرتين تلتمس الدفء
 من موجات الحب التي يضخ بها قلبه النقي، فيرسلها عبر شرايين

المحبة لتتجمع في أيدينا المتشابكة، ولتحول قلوبنا إلى مضخات تتدفق بتيارات الحب المتبادل، فتركنا الحديث للمشاعر وصمتت الألسنة.

رفعت عيني إلى عينيهِ فقلت بلسان أثقلته المشاعر: أخوك في الله ويحبك في الله ناصر الوليدي من اليمن.

- أهلاً وسهلاً ومرحباً بأهل اليمن أهل الإيمان والفقهِ والحكمة، أهلاً بأنصار رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أهلاً بأصحاب القلوب الرقيقة والأفئدة اللينة.

- أهلاً بكم يا أهل الشام، يا خيرة الله من خلقه، يا من لا خير في الناس إذا فسدت بلادكم.

سألت الأخ الصوالحة: من أي مدينة في الأردن أنت؟

قال: أنا في الأصل فلسطيني من قضاء الرملة، نزح جدي من فلسطين عام ١٩٤٨م، كان عمره آنذاك عشرين سنة، كانت العصابات اليهودية تزحف على المدن فتقتل من فيها وتدمر القرى والمدن، وتحرق الزروع والثمار، وتهدم البيوت على رؤوس أصحابها، فكان لا بد من النزوح حيث لم يكن لنا ناصر ولا معين، وتعاون علينا العالم كله وخذلنا إخواننا.

كان يتحدث والحمرمة تطفو على وجهه، وعيناه ترمقان من تحت

نظارته الفضية، وأصابعه متشابكة يفرك بعضها بعضاً، لا أدري هل كان ذلك طلباً للدفع، أم أن أصابعه تمثل تلك الاشتباكات التي يحدثني عنها.

قلت: وهل يعني هذا أنك الآن أردني بصورة مكتملة؟

قال: نعم، وهكذا معظم الذين نزح آبائهم في ١٩٤٨م، فنحن أردنيون تماماً وإن كانت أصولنا فلسطينية.

قلت: وهل تستطيع زيارة قريتك في قضاء الرملة؟

قال: من الناحية القانونية ذلك متاح لنا كأردنيين وفق اتفاقية السلام، لكن لن يكون ذلك مني أبداً؛ لأنه نوع من الاعتراف بإسرائيل، مع أن بعض الفلسطينيين ذهبوا لزيارة قراهم وحاتهم التي غير اليهود كثيراً وقليلاً من معالمها، ولكني لا ألومهم فلهم عذرهم وظروفهم، أما نحن فلم ولن نذهب.

ثم استطرده قائلاً: ما زالت معنا وثائق أرضنا وممتلكاتنا، وما زال أبي يحتفظ بعملة فلسطينية جاء بها جدي من فلسطين، ولقد حاول بعض الفلسطينيين أن يقنعوا أبي بالذهاب إلى هناك؛ ليعرفهم على قراهم ومناطقهم، فرفض رغم إلحاحهم الشديد، فلما سألته عن رفضه قال: يا بني لقد أخبرني الذين ذهبوا إلى هناك أن قريتنا ما زالت على حالها عام الخراب، ولم يعمرها اليهود ولم يقتربوا منها،

إلا أنه لم يعد يسكنها أحد، وهي أشبه بمناطق عسكرية مهجورة، ويعزُّ عليّ أن أرى بلدتي وقريتي وبيتي ومزارعي وهي خرائب مغتصبة....

لما قال أخي الصوالحة ذلك قفز خيالي ليرسم المكان لأقف على تل هناك وأنظر إلى بقايا منازل، وآثار مزارع، وخطوط لطرق تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد، وقرى وسهول تتلفع بالسواد حزينة تبكي على الراحلين وتنتظر القادمين، فقد طال عليها الانتظار حتى أوشكت أن تمل البكاء، وكأني أنظر إلى البوم والدبابير والعناكب والهوام وقد طاب لها بين تلك الجدران المقام، وهناك بقايا عظام نخرة لقوم كانوا يوماً أهل هذه البيوت وفلاحى تلك المزارع.

ضرب أخي الصوالحة على كتفي حين رأى الدمعات تندفق من عينين أرهقهما السهر والسفر، ضرب على كتفي وقال:
لا تحزن يا ولدي فنحن نعيش على ميعاد لا بد أن يأتي، سنعود إلى أرضنا يوماً ونصلي في أقصانا السليب.

يا بني علينا أن نكفكف دموعنا ونستمر في إصلاح قومنا ونجتهد في تغيير بيئاتنا، ولن يخذلنا الله.

يا بني حين علمت زوجتي أنها حامل دعت الله أن يرزقها ولدًا يكون مؤذنًا للمسجد الأقصى وأسمته (بلالاً). ولد بلال ولشدة

تعلقي بالأمل رأيت في منامي أنني أصلي في المسجد الأقصى،
وبلال يرفع الأذان، نحن نعيش على الأمل، وكل فلسطيني له بلال
وسعد وخالد والقعقاع وعمرو والزبير، امسح دمعائك يا ولدي،
وارفع يديك المبللتين بالدموع إلى مولاك لعلك تكون يوماً أو أحد
أبنائكم من الزاحفين إلى المسجد الأقصى المبارك.

صافحني الأخ محمد الصوالحة ثم نهض واستلقى قريباً مني على
بطانيته، جمع أصابع كفيه وشبك بينهما ثم وضعهما خلف رأسه
على وسادته ومدد رجليه ثم رفع قدميه على حقيبة متوسطة وأخذ
يتمتم بكلام غير مفهوم، إلا أنه لم يخلع نظارته.

وفي باريس كانت قصة

جاء إلى الاجتماع الشيخ يونس قادماً من باريس، وهو أمير جماعة
التبليغ في فرنسا، فكان متكلماً فصيحاً بليغاً، وحين يخطب يجتمع
حوله العرب من كل زاوية من زوايا المخيمات.
كنت أستمع إليه وهو يتحدث ودمعه يسابق كلماته وهو يروي
بداية علاقته بالتبليغ.

والقصة بدأت عام ١٩٦٥م حيث جاء من نظام الدين في الهند

الشاب (ثناء الله)، وهو أول تبليغي تطأ قدماه أوربا، وبدأ دعوته مرسلًا من قيادة الجماعة في الهند، ومكلفًا بنشر الجهد في فرنسا والتي ستكون بوابة الدعوة إلى أوربا.

كان ثناء الله ينتقل من مكان إلى مكان ومن مصلّي إلى مصلّي، حتى جاء عام ١٩٦٧م، فدخل الشاب يونس التونسي عامل البوية أقرب مسجد ليؤدي صلاة المغرب، وبعد الصلاة وقف شاب هندي يدعو إلى الله، وانصرف الناس إلى أعمالهم وهو يتحدث لكن ذلك لم يثنه عن الاستمرار في دعوته، لم يبق حوله إلا عدد قليل، منهم الشاب يونس، وبعد أن أنهى موعظته الموجزة دعا الحاضرين للخروج إلى الشارع للدعوة إلى الله، فلم يستجب له غير ذلك الشاب التونسي الذي أنسته حلاوة الحديث أدوات البوية التي تركها تحت جدران إحدى العمارات ظنًا منه أنه سيعود إليها بمجرد تسليم الإمام من الصلاة.

نهض ثناء الله سعيدًا فقد استطاع الليلة أن يقنع واحدًا للتجول معه في سبيل الله.

سأل يونس الشاب الهندي الذي لا يعرف اسمه: إلى أين سنذهب؟ قال: إلى عمارة يسكنها الطلاب العرب فهم أولى الناس بحمل رسالة الإسلام لولا الغفلة التي انغمسوا فيها.

قال الشيخ يونس: وصلنا إلى تلك العمارة وعند بوابتها منعنا الحارس من الدخول؛ لعدم وجود صفة تتيح لنا الدخول، فقلت لثناء الله: هيا لنعود الآن فقد أدينا الذي علينا.

قال: نحن لم نبدأ بعد، تعال ندعوهم من هنا.

قال: فنظف المكان الواقع قرب العمارة وأنا أنظر إليه ولم أفهم مراده، فلما حان وقت صلاة العشاء وقف متجهاً إلى القبلة ووضع أصبعيه في أذنيه ثم رفع صوته بالأذان.

الله أكبر، الله أكبر...

فنظرت إلى العمارة فإذا نوافذها تفتح من كل الأدوار وإذا الطلاب يتطلعون من تلك النوافذ متعجبين، حتى إذا أكمل ثناء الله الأذان بدأ يلقي بياناً لي وحدي، فإذا الطلاب يتواردون إلينا متوضئين حتى عدت (٤٣) طالباً، فأخذ ثناء الله يذكرهم بالله ويحرضهم على الدعوة إلى الإسلام، ثم تقدم وصلى بنا صلاة العشاء جماعة في تلك المساحة.

ومن تلك اللحظة أوقفت حياتي للدعوة إلى الإسلام، فخرجت جميع الدول الأوروبية ومعظم دول العالم، ونزلت مرة في جمهورية (بوركينافاسو) ورأيت التنصير يلتهم المسلمين، فمشيت مع عدد من الدعاة في إفريقيا سنة كاملة مشياً على الأقدام، وأسلم على يدينا

المئات، وشكلنا المئات في سبيل الله، وأسسنا عشرات المساجد، وأتقنت إلى جانب اللغة العربية والفرنسية اللغة الإنجليزية والأردية، ومنذ عشرات السنين وأنا أخرج كل عام أربعة أشهر؛ (أربعة أشهر في فرنسا، وأربعة أشهر في باكستان؛ وأربعة أشهر في العالم) في ثلاث سنوات، وهكذا.

واليوم من المركز الرئيس بباريس تخرج أكثر من مائة جماعة، جميعهم فرنسيون شقر من أصل فرنسي. ورأيت في طريقي في قارات العالم الكثير من الأحوال والأخبار والحكايات.

عجائب اللغات في باكستان

مما لفت نظري وأثار إعجابي في هذا البلد (موضوع تعدد اللغات)، وأتوقع أن هذا الموضوع حظي بدراسات كثيرة ومتنوعة. أنا هنا أتكلم عن اللغات لا عن اللهجات، ومنبع هذا التنوع اللغوي هو التعدد العرقي والقومي، ووقوع باكستان في طريق عبور بين الشرق والغرب، وتدفق موجات من الهجرات في مراحل تاريخية طويلة.

ففي تنقلي في الباكستان مدة أربعة أشهر جالست وصحبت متكلمين بلغات مختلفة، بل إنك تجد الرجل يتقن اللغتين والثلاث والأربع وربما يكون هذا الشخص أميًّا، وتجد في العائلة الواحدة من يتكلم الأردية وآخر يتكلم البنجابية وآخر يتقن السرائيكية. كان من الأذكياء الذين عرفتهم أخي وصديقي المترجم (حفيظ الله) وقد صحبته شهرًا في فيصل آباد ولاهور وكراتشي وتلمبة، وهو من إقليم البنجاب، فكان يتحدث العربية بحكم دراساته الشرعية، ويتكلم الأردية بصفتها اللغة الرسمية لبلده، ويتكلم البنجابية لأنها لغة الإقليم، ويتكلم السرائيكية فهي لغة قومه وبلدته. ولقد أخبرني أنه يضطر أحيانًا إلى ترجمة محاضرات العلماء لبعض أهل بيته من الأردية إلى السرائيكية، ضف إلى ذلك أنه خطب فتاة بشتونية تتكلم لغة البشتون، ومرافقنا (تابش) يتكلم الإنجليزية بطلاقة هو وجميع أفراد عائلته، ويتكلمون الأردية بدرجة أقل والبنجابية لغتهم القومية.

ومن الحوادث التي ما زلت أذكرها أنه زارنا يومًا مزارع سندي من إحدى قرى كراتشي، فأخذ يكلمنا والشيخ عبد اللطيف يترجم بيننا وبينه، ولكن الشيخ أحيانًا يجد صعوبة في الترجمة فيستعين بغيره، فلما سألته عن ذلك قال: هذا الفلاح سنديته موعلة وأنا

خبرتي بالسندية ليست قوية فلغتي هي الكشميرية، وأتقن إلى جانبها الأردية والعربية وشيئاً من السندية.

وأما اللغة الرسمية للبلاد فهي الأردية التي يتكلم بها أيضاً مسلمو الهند، وتأتي اللغة الإنجليزية كلغة للتعليم الرسمي، وفي إقليم الشمال يتكلم عشرات الملايين من البشتون اللغة البشتونية، وهي أيضاً لغة العرق البشتوني في أفغانستان واللغة الرسمية للأفغان، كما أن هناك لغة في بيشاور تسمى لغة (هندكو) كانت لغة الهندوس والسيخ قبل التقسيم، ومع هجرتهم إلى الهند تلاشت الآن حتى تكاد تنقرض ولم يعد يتكلم بها إلا قرابة المليون.

وفي إقليم السند الذي عاصمته كراتشي يتكلم أكثر من خمسين مليون اللغة السندية مع إتقانهم الأردية، وفي إقليم بلوشستان يتكلم العنصر البلوشي اللغة البلوشية، وهناك تواجد أيضاً للفارسية، والفارسية كانت اللغة الرسمية لدولة المغول المسلمين الذين حكموا القارة الهندية دهوراً طويلة، وقيل إن ثلاثين في المائة من الأردية مأخوذة من الفارسية. ومما حدثني به مولانا محمد سفيان أن معظم ما ألف في الفقه الحنفي كُتِب بالفارسية، وقد وجدته يتقن الفارسية رغم أنه بشتوني، وقال إنه حفظ متوناً في مبادئ العلوم باللغة الفارسية.

أما إقليم البنجاب وعاصمته لاهور فيتكلمون البنجابية، وأظن أن من يتكلم بها يزيد على ستين مليوناً، وفي البنجاب توجد العاصمة إسلام آباد ومدينة لاهور وملتان وهي منطقة الأنهار الخمسة. وأما منطقة كشمير فيتكلم أهلها لغتهم الكشميرية. وهناك الكثير والكثير من اللغات التي أوشك بعضها على الانقراض، وبعضها محصور في مناطق صغيرة، وبعضها لم يعد يحافظ عليه غير كبار السن، وقيل إن عدد اللغات في باكستان يصل إلى أكثر من سبعين لغة.

أما اللغة العربية فهي لغة التعليم الديني، وفي باكستان آلاف المدارس الدينية التي يتلقى الطلاب فيها العلم باللغة العربية، وهناك جامعة حكومية في العاصمة جميع دراستها باللغة العربية، ومن أفضل الجامعات الدينية التي تولى العربية عناية كبيرة (جامعة ابن عباس) في كراتشي، وتتبعها مدارس ابتدائية وروضة أطفال للأولاد وأخرى للبنات يتعلمون بالعربية فقط وتتبع الجامعة مكتبة ضخمة، جميع الكتب فيها عربية.

وكذلك تهتم بالعربية الجامعات التابعة للشيخ طارق جميل في فيصل آباد وتلمبة وشاه كوت وديرة إسماعيل وغيرها، وهي أربع عشرة جامعة ثماني للذكور وأربع للإناث، وقد التقيت في تلمبة

بالشيخ وقاص ووجدته يتقن العربية أفضل من أكثر العرب ويحفظ آلاف الأبيات من الشعر العربي بل إنه قرأ باللغة العربية عددًا من التفاسير، ومعظم ما كتب الطنطاوي والعقاد وطه حسين والندوي وأحمد أمين فضلًا عن غيرهم.

وعلى كل حال توجد في باكستان الكثير من الظواهر الثقافية والاجتماعية والفكرية والتاريخية التي تفتح الشهية للبحث والقراءة والاطلاع وكتابة الرسائل والأبحاث العلمية.

من دماج إلى رايوند

تصلني بعض رسائل تعاتبني أو توبخني كيف خرجت مع التبليغ ولماذا أكتب ما أكتب عنهم وأنا الذي كنت يوما أطلب العلم في دماج ومأرب ومعبر ومركز الدعوة وبقية مراكز السلفية وكنت... وكنت...، حد تعبير بعضهم.

فأقول: كل عاقل واع يُؤرِّقه أمر الإسلام ويشغله وضع الأمة سيدرك أن هذه الجماعة تأتي ضمن مشروعنا السني الكبير، وتقوم بأعمال جليلة منظمة مستمرة في خدمة الإسلام والمسلمين، وأنها تغطي مساحات شاسعة في مجالات العمل الإسلامي ضمن الجغرافيا

الإسلامية وخارجها لا يغطيها غيرهم، وأنهم يقومون على فكرة عبقرية فذة في كل تفصيلاتها، ويكفي أنك تجد في الاجتماع أكثر من نصف مليون مسلم كلهم جاء على نفقته الخاصة، ثم يخرج في المدن والقرى والجبال والسهول وضياف الأنهار ووراء البحار ليس له غاية إلا الدعوة إلى الله تعالى وعلى نفقته الخاصة، وبخطة واضحة المعالم لدى كل واحد من الخارجين.

ولهذا ينبغي لكل مسلم صادق أن يناصرهم، ويؤازرهم، ويتعاون معهم، ويذب عنهم، وينشر محاسنهم.

وإني أشهد الله - وأنا العبد الضعيف المقصر المذنب الذي له نقائصه وعيوبه وكبائره وصغائره - أني أتقرب إلى الله بحب هؤلاء الصالحين العاملين، وبالدفاع عنهم ونشر محاسنهم - وإن لم أكن عضواً في جماعتهم - هم وكل عامل للإسلام في أي ميدان من ميادين العمل والجهد والجهاد بأشكاله وأنواعه.

وأجزم أنه لن يفهم حقيقة التبليغ إلا من خرج معهم، وجالس علماءهم وعقلاءهم، ونظر بعمق إلى مبادئ الجماعة وأدبياتها.

اللهم لا تجعل في قلبي غلاً للذين آمنوا.

هل هناك فرق بين السلفية والتبليغ؟

السلفية والتبليغ جماعتان سنتان كبيرتان لهما امتدادهما في العالم

الإسلامي وخارجه، وبينهما الكثير من المشتركات التي ينبغي أن تركز عليهما الجماعتان.

صحيح، هناك فروق طبيعية بين الجماعتين:
فالتبليغ جماعة دعوية وحركتها ومزاجها واهتماماتها دعوية، وهذا ما ينبغي أن يتنبه له من يريد تقويم الجماعة.
بينما السلفية جماعة علمية مزاجها واهتماماتها علمية، ومن درس في مركز دماج السلفي - وأنا أحدهم - أوزار رايبوند؛ سيتضح له ذلك جلياً.

في دماج هناك خطاب علمي يشجع ويحرّض ويروّج للعلم بكل الوسائل سواء كان بالأدلة أو الأخبار والحكايات والأشعار والقصص، وهذا يصنع روح التنافس والتسارع والاجتهاد وبذل الغالي والنفيس في سبيل طلب العلم الشرعي.

بينما خطاب رايبوند يث أخبار الدعوة والدعاة منذ العهد المكي إلى اليوم، فيصنع هذا الخطاب روحاً دعوية تتحدى الصعاب والثلوج والأخطار.

ضف إلى ذلك الاختلاف في ظروف النشأة التي تلقي بظلالها على أي حركة.

فالسلفية بصبغتها المعاصرة نشأت في الجزيرة العربية في صحراء

نجد على يد الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - .
والتبليغ نشأت في الهند على يد الشيخ المجدد محمد إلياس الكاندهلوي.

إنصاف جماعة التبليغ

كتب الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي:

لعل جماعة التبليغ يصدق فيها قول سعيد بن المسيب: ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل، إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، ومن كان فضله أكثر من نقصه ذهب نقصه لفضله (١).

وسوف أذكر هنا ما امتازت به جماعة التبليغ؛ إنصافاً لها، وحثاً على الأخذ بأحسن ما لديها {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ}، وعوناً لها في جهدها الكبير لإصلاح القلوب وتهذيب النفوس وخدمة الإسلام.

ولعل أهل العلم والفضل والدعوة يشاركونهم ويسددونهم ويستفيدون من خبراتهم الدعوية الكبيرة:

1- التمهيد لابن عبد البر (١١ / ١٦١).

١) من مميزاتهم أنهم يخرجون بأموالهم وأنفسهم من دون دعم من حاكم، أو تاجر، أو متصدق... وهذا مما جعلهم في اعتناق وانطلاق، وأبعد عنهم مشاكل الأموال وهمومها وتنازع الناس حولها.

٢) وصلوا إلى معاقل الفساد وأوكاره، فاستخرجوا من جوفها من اهتدى وأصبح داعية لغيره، فكم من متعاطي عهر ومدمن خمر وتارك للصلاة وعاق لوالديه؛ هداه الله على أيديهم فتحول إلى صالح طيب، وبعضهم أصبح داعياً للخير والمعروف.

٣) وصلوا إلى كثير من البلدان النصرانية والوثنية، وكانوا سبباً لدخول بعضهم في الإسلام في ألمانيا وفرنسا وبلجيكا وأمريكا وكندا وجنوب إفريقيا وأدغال إفريقيا، والهند والنيبال واليابان وكوريا وغيرها.

٤) لهم منهج علمي منه: القرآن ورياض الصالحين والنووية، ويقرؤون بكثرة في كتاب حياة الصحابة، وقد أثر فيهم واصطبغوا بسير الصحابة؛ لكثرة مذاكرتهم لهذا الكتاب.

٥) يُسيرون آلاف الدعاة كل عام، من كل الأجناس وبكل اللغات، ومعهم العالم والمتعلم والأمي، ويرسلونهم إلى عموم أقطار الأرض دعاة إلى الله. وأحسب أنه لا تستطيع أي جماعة

ولا أي دولة إرسال مثل هذه البعث في العالم دون إنفاق ملايين الدولارات؛ للأسفار والسكن وللطعام والشراب.

٦) يعقدون اجتماعات سنوية بالملايين، في باكستان والهند وبنجلاديش وماليزيا، دون مساعدة من أي دولة، وينظمون بأنفسهم هذه الاجتماعات الضخمة؛ سفرًا، واستقبالًا، ونقلًا، وسكنًا، وطعامًا، ونظافة، وعلاجًا، بما قد تعجز عنه دول في جمع هذه الجماهير بلغات مختلفة في مكان واحد، وقد رأيت ذلك بعيني.

٧) عرفت كبارًا منهم من العرب خاصة ومن غيرهم قليل، ومن خالطهم لمس ما لديهم من اهتمام بأعمال القلوب كالإخلاص لله وطلب الثواب، فلا تصوير لاجتماعاتهم، ولا كاميرات، ولا يدعون مراسلين؛ لتغطية أعمالهم واجتماعاتهم، فهم يعتقدون أن مجالسهم للذكر والتذكير تحضره الملائكة، فله ملائكة سيارة تلمس حلق الذكر، وهذا ما يهدفون إليه بحضور ملائكة الرحمن.

٨) يعقدون اجتماعات كبيرة في الأردن ولبنان واليمن والخرطوم وتشاد وأمريكا الشمالية، وفي عدة عواصم أوروبية كل عام، ويسيرون جماعات؛ دعاء إلى الله، ويقىمون الصلاة والأذان في البر والبحر والجو، لا تأخذهم في إظهار شعائر الله لومة لائم.

٩) جذبوا - بلطفهم وحسن أخلاقهم ودأب دعوتهم - عقول

الشباب والشيوخ، ورجال دول إسلامية وغير إسلامية، وعقول علماء من العرب والعجم، وعلى رأسهم الشيخ أبي الحسن الندوي (صاحب كتاب ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) والشيخ الجزائري.

١٠) يعملون بجد ونشاط في البيوت والنوادي والمقاهي والفنادق والمنتزهات في كل مكان، ولا تستطيع دولة إيقاف نشاطهم، فإن منعوا من المساجد؛ نشطوا بالدعوة في الفنادق، وإن منعوا من الفنادق ذهبوا المنازل؛ أو اشتغلوا بالدعوة في الشوارع؛ وإن منعوا من الشوارع؛ دخلوا الأزقة والحانات والمقاهي بدعوتهم، وفي الحافلات والقطارات والطائرات.

١١) يخرجون جماعات، وبعض الرجال يخرجون بمحارمهم؛ للدعوة، من الصين واليابان شرقاً، حتى أمريكا غرباً. ويرسلون الشباب إلى بلدان تناسب سنهم، وكبار السن إلى البلدان الخالعة.

١٢) تجد فيهم المعلم والطبيب والمهندس، والنجار والحداد، العربي والعجمي، المتعلم والأمي، والشيب والشباب، وجندي المباحث، وإمام المسجد، وشيخ القبيلة، والمهمّش، وأبناء الثراء، والفقراء. ويرون أن الدعوة هم أولى بوصف {خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ}.

١٣) يرون أن من أفتى ضدهم أو قام بالتحذير منهم لم يعرف حقيقتهم؛ وأن ذلك محفز لنشاطهم في نشر الخلق الإسلامي وروحه وقيمه، ولا ينشغلون بالمحذرين منهم، ولعل في هذا دلالة على الحق والخير الذي يحرصون عليه، ودلالة على عدم الخوض والانتصار للنفس الذي هم بعيدون عنه.

١٤) لهم أخلاق تميزوا بها وخصال اشتهرت عنهم، منها أنهم يردون على المسيء بالإحسان، والجاهل بحالهم بالصبر والتحمل، والشتم الموجه إليهم بقولهم: (جزاك الله خيراً، ويفهمك الله ويفهمنا الحق)، ولهم صبر على رعونات من يرافقهم، وعندهم تحمّل وكظم للغيط وفرح بخدمة المسلمين وإكرامهم.

١٥) من التحق بركبهم واقتنع بهم لا تكاد تسمع منه لاغية، لا شتم ولا سب ولا لعن ولا تحذير من فلان ولا إعلان، لا يتعرضون للحكام من ملوك ورؤساء، إلا من تعمد إيذاءهم فقد يدعون عليه، ولا يتعرضون للعلماء وإن خالفوهم. يشتمون فقط عمل الشيطان، وينقلون الناس من عمل إبليس إلى عمل الأنبياء والمرسلين، في دورات تدريبية عملية هي مدة خروجهم.

١٦) لا يطوفون على أهل القبور تبركاً، ولا يطوفون على أهل القصور رغبة أو رهبة، ولا على الأثرياء طمعاً، فكل أهل القبور

والقصور فقراء لله، في حاجة لله، والله هو الغني عنهم، وهم الفقراء إليه.

(١٧) يكتسبون الاحترام في معظم البلدان في المطارات والموانئ والقطارات والحافلات، من خلال هيئتهم البهية، وجمال وجوههم المضية، وعمائمهم الجميلة؛ فيعاملون بتيسير وتقدير؛ احتراماً لهم، سواء من أهل الإسلام أو من غير المسلمين، باستثناء جلاوزة بلدان تخاف من انتشار الخير والصلاح!

(١٨) يحيون رسالة المساجد، فهم ينزلون ضيوفاً في بيوت الله، لا في فنادق خمسة نجوم، ولا ثلاثة نجوم، فيستأنس بهم الإمام والمؤذن والمصلون، ويقدمون هدايا متواضعة ذات دلالة من مصحف وتمر وطيب وسواك وما إلى ذلك... مع كثير من التودد والحب والتواضع.

(١٩) من مهامهم الكبرى إحياء رسالة المسجد، ويجتهدون في ذلك مع المبتعدين عن دخول المساجد؛ كسلاً أو عدم حب لها؛ فيعقدون علاقة بين المسلم العاصي والطائع في المسجد، ويربطونهم بأعمال المساجد من اعتكاف ومجلس تلاوة ومكث للذكر.

(٢٠) لهم أساليب في الخطاب الدعوي يعتمد اللطف واللين، وعلى ضرب الأمثال المؤثرة، وإيراد الحكم البليغة، والقصص

الجدابة.....

(٢١) أحسب أنها دعوة نافعة، كتب الله لها القبول عند الناس، وظهرت آثارها في أناس كانوا من أعتى العصاة وأفجر الفجار، وصدق الله (وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض).

إلى إقليم السند

بعد الاجتماع جرى تشكيلنا إلى (شهر مورو) الواقعة في إقليم السند جنوب باكستان. وإقليم السند هو أحد أقاليم باكستان الأربعة وعاصمته مدينة كراتشي كبرى المدن الباكستانية حيث يتجاوز عدد سكانها الثلاثين مليون نسمة، وسمي السند بهذا الاسم نسبة لنهر السند العظيم الذي يخترقه من شماله إلى جنوبه.

أما شهر مورو فهي مدينة صغيرة وفقيرة، وبنيتها التحتية ضعيفة، فيها أغلبية كبيرة من المسلمين، وقليل من الهندوس، عدد سكانها لا يتجاوز مائة ألف نسمة - كما أخبرنا بعض أهلها-، أما لغتهم فهي اللغة السندية، وكلمة شهر في السندية تعني مدينة، إذن فنحن سنتجه إلى مدينة مورو.

ففي صبيحة يوم الإثنين ٥ نوفمبر ٢٠١٨م وبعد شروق الشمس

انطلقنا في باص يقوده كهل باكستاني يدعى علي شوكت؛ إلى مدينة لاهور، ونزلنا في مركز الجماعة هناك، وحجز لنا الإخوة مع القطار يوم غد الثلاثاء الساعة السادسة بعد المغرب، فبتنا ليلتنا في مركز لاهور (مسجد أستراليا)، وبعد صلاة العصر توجهنا إلى محطة القطارات وانتظرنا هناك حتى صلينا المغرب في المحطة، ثم انطلق بنا القطار جنوبًا في سهول خضراء لا ترى فيها جبلًا ولا واديًا ولكن مساحات مد البصر للمزارع والحقول والأنهار، حيثما قلبت بصرك رأيت مزارع السكر والأرز والقمح والبطاطس والنخيل وغيرها من المزروعات، وترى قطعان الجواميس في كل مكان، والبيادر على جوانب الطريق، وما زلنا ما بين صحو ونوم حتى ظهر اليوم الثاني، فنزلنا في إحدى المحطات مع أذان الظهر، وسمعت المؤذن يقول أشهد أن عليًّا ولي الله، ففهمت أننا وقفنا في إحدى القرى الشيعية، ومن المحطة استأجرنا سيارة هيلكس مسافة ساعة واحدة حتى وصلنا إلى مدينة مورو.

في مسجد الفتح

كان أول نزول لنا في مسجد الفتح، وكان استقبال الناس لنا ينم عن جمال أخلاقهم، وحسن تدينهم، وطيبة نفوسهم، إذ فرحوا بنا كثيراً وهشّوا وبشّوا، خاصة لنا نحن العرب.

وفي صبيحة اليوم الثاني خرج الأخ رشيد عبد مع أحد الإخوة الباكستانيين إلى قرية تبعد عن المدينة مسافة أكثر من ساعة لزيارة أحد الدعاة القدماء، وفي تلك القرية وجدوا جماعة عادت من إفريقيا وقد تحدثوا معهم وجلسوا إليهم فأخبروهم أنهم قادمون للتو من خروجهم لبعض الدول الإفريقية التي أسلم فيها على أيديهم ألف وثمانمائة رجل وثمانون امرأة، وكان مما حدثوهم به مما واجهوه قصة غريبة لأم مسيحية.

خبر الأم المسيحية

قضى هؤلاء الإخوة عامًا كاملًا في أربع دول (كينيا، زامبيا، أوغندا، رواندا).

وفي زامبيا كان الأحباب يمشون في الأسواق يدعون إلى الله تعالى، ويتنقلون من مكان إلى آخر، وكانت تتبعهم امرأة فتنبها لها فوقفوا، فلما وصلت إليهم قالت: أريد أن يأتي معي بعضكم إلى البيت فهناك مهمة تنتظركم، فساروا وراءها حتى أدخلتهم بيتها، فلما جلسوا استدعت ابنيها الاثنين للجلوس مع الضيوف، ثم قالت لهم: إنهما ولداي الوحيدان وأحب أن يعتنقا الإسلام، وكانا مسيحيين، فبدأ الحديث معهما عن عظمة الرب سبحانه وفضل الإسلام، وكانت الأم تجادل أبناءها مع الدعاة وتناقشهم في المسيحية، ولم ينته المجلس إلا باعتناق الشابين الإسلام واستعدادهما للذهاب مع الدعاة إلى المسجد، لكن العجيب أن الأم المسيحية لم تعتنق الإسلام، فأخذ الإخوة يناقشونها فقالت لهم: قوموا واتبعوني، فانطلقت وهم يمشون وراءها حتى وقفت في ناصية الشارع، وأشارت إلى كنيسة كبيرة ثم قالت:

هذه الكنيسة ومن فيها أنا المسؤول عنها، وأنا أعلمهم بالإنجيل وكلهم يرجعون إلي، وقد وجدت في الإنجيل أن عيسى عبد الله ورسوله وليس هو ابن الله كما هو مشهور في المسيحية، ووجدت فيه أن الله سيرسل رسولاً بعد عيسى يكون خاتماً لرسالات السماء، وليس بعده إلا الساعة، وأن دينه الحق، وأن ملكوت الآخرة لا تنال إلا باتباعه، وقد كان يقلقني وضع أولادي فخشيت أن يموتا على غير الإسلام فيذهبون إلى عذاب الله، أما وقد أسلما فليس هناك شيء أسعد في حياتي من ذلك.

قال الأخ: تعجبنا من حديثها واندھشنا من قولها، فقلنا لها: إن كان الأمر كذلك فما يمنعك من اعتناق الإسلام؟
 قالت: وضعي وعلاقتي ووظائفي لن تسمح لي في هذا الوقت باعتناق الإسلام، وعسى أن تأتي فرصة أفضل تساعدني على ذلك، المهم عندي الآن ولدائي، أرجو أن تهتموا بهما حتى يتعلما الإسلام جيداً.

قال أحد الإخوة معلقاً: إن قصتها تشبه قصة اليهودي الذي قال لولده: أطع أبا القاسم.
 بعد أن حدثنا الإخوة بهذا الحديث العجيب أخذ أخونا المترجم المفتي محمد سفيان يحدثنا عن إسلام لاعب الكريكت المشهور

حنا يوسف الذي اعتنق الإسلام وترك المسيحية وخرج دعوة في سبيل الله عدة مرات، فاستدعاه السفير الأمريكي وسأله عن سبب إسلامه، وهل كان مجبراً على اعتناق الإسلام؟، وسأله عن الخروج مع جماعة التبليغ، وكان أخونا محمد سفيان خارجاً معه في إحدى المرات فحدثه بذلك، وجره ذلك للحديث عن اللاعب الباكستاني شادي أفريجي بطل لعبة الكريكت حيث اتصل عليه الرئيس برويز مشرف وهو خارج في الدعوة، فاعتذر للرئيس أنه لا يستطيع ترك الخروج، وطلب منه تأجيل لقائه حتى يستكمل خروجه ذلك.

وفي الليل خرجت أنا والمترجم إلى بعض الحارات، ولقينا عددًا من الشباب يتسامرون، فجلسنا معهم وحدثهم عن تاريخ باكستان، ولماذا سميت بهذا الاسم، فاستغربوا من معرفتي الدقيقة بأحوال باكستان منذ تأسيسها إلى هذه الأيام، وكان ذلك سبباً في أن يتحمس عدد منهم للخروج معنا، ومما لا زال منحوتاً في ذاكرتي ذلك الشيخ الكبير الذي خرج علينا يتوكأ على عصاه، فأخذنا نتحدث معه وهو يتسم ويهز رأسه فرحاً، كنت أتأمل تقاطيع وجهه الشاحب وسجدته الدائرية ولحيته البيضاء وعينه الغائرتين في وجهه وشفتيه اللتان تهتران بالدعاء والذكر والتسبيح، وفي الأخير طلب منا الدعاء له، ولكننا أصررنا أن يدعو هو لنا، فرفع كفيه معتمداً على عصاه

فأخذ يتمتم بلغته السنديّة ويدعو حتى ذرفت عيناه بالدموع.

في مسجد عباد الرحمن

بعد ثلاثة أيام انتقلنا إلى مسجد عباد الرحمن واستقبلنا بالحفاوة نفسها التي استقبلنا بها في الحي السابق.

وبعد صلاة المغرب انطلقت مع المترجم محمد سفيان على دراجتين ناريتين إلى خارج المدينة في حي جديد يسمى حي (... بلازا)، وهناك يقع مركز إسلامي كبير فيه مئات الطلاب، وفي مدخل المركز وجدنا جماعة من البشتون خارجين في سبيل الله على الأقدام لمدة سنة كاملة، فجلسنا معهم في باحة المركز، وقدموا لنا أنواعًا من الفواكه، وأخذوا يحدثونا عن خروجهم ومروهم على الكثير من المدن والقرى والجبال، وما فتح الله على أيديهم من الخير، فلما علموا أنني يماني قال أحدهم: لقد خرجت من مدة طويلة إلى اليمن، وزرت عدن وتعز ومأرب حيث تقع مملكة سبأ وصاحبتها الملكة بلقيس التي ذكرت في سورة النمل.

طفنا في المدرسة وسلمنا على الطلاب، ثم غادرنا مع أذان العشاء إلى مسجد النور.

صليت بالناس صلاة العشاء في باحة المسجد، وكان القمر بدرًا يضيء المكان، والنسيم باردًا يداعب وجوهنا، ولما أكملت الصلاة تجمع حولي الطلاب وطلبوا مني أن أحدثهم عن جهاد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وهؤلاء الطلاب جميعًا يقيمون في المسجد، يطلبون العلم الشرعي، فكنت أحدثهم وأرى القمر يتوسط السماء وحوله النجوم باهتة خجلة، وأرى البراءة والطهر والصفاء في وجوه هؤلاء الطلاب وشدة تأثرهم بالحديث، ولمست في وجوههم وملابسهم الحاجة والفقر ولكن مع العزة والكرامة والإصرار والرضا، فكان الموقف مؤثرًا فلم أستطع أن أمنع دمي من الجريان، فلما رأوا الدمعات تنساب من بين أجفاني لم يتمالك الكثير منهم دمعته من التدفق لاسيما المدرسين.

إلى حي الأخضرى

ونحن نتقل مشيًا على الأقدام من الحي السابق إلى الحي الجديد لمست ما تعاني منه المدينة من الإهمال، وسوء الخدمات، وضعف البنية التحتية، حتى إن شبكة الصرف الصحي مجرد سواقٍ إسمنتية مفتوحة؛ مما يسبب انتشار الكثير من الأمراض والروائح وكثرة

البعوض، وأيضًا حينما أخرج إلى السوق أرى محلات بسيطة وتقليدية ذكرتني بمدينة مودية أيام الثمانينيات، وقد أردت أن أحلق شعري فوجدت كثيرًا من الحلاقين يستخدمون طرقًا بدائية في الحلاقة.

وفي حي الأخضرى تعرفنا على الأخ عبد الملك علي مدني، وهو يتكلم اللهجة السعودية، حيث قضى معظم عمره وما زال في المدينة النبوية، وهذا الرجل نفعا كثيرًا في الزيارات والترجمات والخروج إلى الناس، ولم يفارقنا إلى يوم سفره إلى السعودية، بل إنه في ذلك اليوم طلب مني أن أرافقه لزيارة جاره المسؤول في الحكومة، والذي تربطه صداقة برئيس الوزراء الشيوعي يوسف جليلي.

في بيت صديق رئيس الوزراء

عبد الملك داعية مجتهد كثيرًا، فهو قلما يفارقنا، بل كان يلاحقنا من حي إلى حي، رغم أنه مسافر إلى السعودية بعد إجازة قضاها مع عائلته، وكان معنا إلى قبل سفره بساعتين، وفي صبيحة سفره جاءني إلى المسجد وقال: سنقوم بزيارة لقائد أمني في وزارة الداخلية، وهذا الرجل كانت عائلته (أبوه وإخوانه) جيراننا في القرية، وبيننا

من الحب والعلاقة الشيء الكثير، وكأننا أهل، ثم انتقلنا جميعاً إلى شهر مورو، وبقيتُ بينا زيارات وعلاقات. والرجل -بحكم مركزه الأمني- ارتبط برئيس الوزراء السابق الشيعي، فبدأت العائلة تتأثر بالتشيع، وبعد مجيئي من السعودية جلست مع أخيه وتكلمنا كثيراً عن هذا الموضوع، والحمد لله في الأخير اقتنع وطلب مني زيارة أخيه إلى البيت والتحدث معه بهذا الشأن، فالآن يا شيخ ناصر سأستغل وجودكم هنا وسنذهب أنا وأنت لزيارته لعل تأثيرك عليه يكون أكثر، فقلت له: توكلنا على الله.

كنت أسير خلف عبدالملك في أزقة المدينة الضيقة حتى وصلنا أمام البيت، وهناك مساحة مفتوحة تتبع البيت ربطت فيها ست جواميس ضخمة، وفي جهة اليمين يقع جراج للسيارة، وما أن طرقتنا الباب حتى فتحت لنا صبية تضع على رأسها ملثمة منقشة وأذنتنا بالدخول، مما أشعرتني أن عبدالملك قد اتصل بهم قبيل مجيئنا، دخلنا الديوان فجلسنا على الكراسي وسرعان ما جاء الرجل واحتضننا على طريقتهم في المصافحة، وبعد كلمات الترحيب أخذ الشيخ عبدالملك يعرفه بالزائر العربي الخارج في سبيل الله، وأخذ يرحب بي، وتبادلنا كلمات الترحيب وعبد الملك يتولى الترجمة بيننا، وبالتدريج بدأت أكلمه عن مصادر الوحي وعموم الرسالة

وتساوي المسلمين، وفضائل السابقين الأولين، وهو ينصت ويحرك رأسه ويقول بعد كل عبارة تترجم له (أتشا أتشا)، ثم طلب مني التوقف عن الحديث وقال: انتظر لحظة حتى أدعو أبنائي وإخواني ليسمعوا هذا الكلام الجميل، فدخل يناديهم ثم رجع وأخذوا يأتون تباعاً وجلسوا حولنا فقال: واصل حديثك.

واستمر الحديث وكان المترجم يترجم ويناقشونه أحياناً فيجيبهم دون الحاجة لتدخلني، وبعد مرور ساعة تقريباً أردنا الانصراف فأبى علينا وقال: لا بد أن تستكملوا حديثكم، فهذه مواضيع مهمة ونحن ليس وراءنا عمل، لكن لا بد أن نفطر أولاً ثم نستأنف الحديث. فقدموا لنا خبزاً وسمكاً مغلياً وإداماً وفاكهة متنوعة وحليب جاموس وشايًا أحمر وشايًا بحليب الجاموس.

فلما غسلنا أيدينا من الطعام استأنفنا حديثنا، وكان متأثرًا تبدو على وجهه السعادة، وكان يكلم أبناءه وإخوانه أحياناً.

في آخر المجلس استأذن الشيخ عبد الملك وخرج جميعهم يودعوننا إلى خارج البيت بمسافة، فلما فارقناهم قال لي عبد الملك: الحمد لله الرجل متوجه وسأسافر وأنا مطمئن، فهؤلاء جيرانني وأهلي وهم سنة، لكن بحكم المنصب والعلاقات بدأ يتسرب إليهم التشيع.

وفي المسجد ودعنا عبد الملك فلم يبق معه سوى وقت قليل يقضيه مع عائلته لينطلق بعدها إلى كراتشي ومنها إلى مدينة رسول الله -صلى الله عليه وسلم-.

على أطلال مدرسة غلام الله

رغم أن إقليم السند معتدل المناخ ومنذ جننا شعرنا فيه بالدفء؛ إلا أن البرد يتتاب عظامي منذ قدومنا، فما أن أصبحو حتى يعاودني البرد والتكسير والزكام، والبارحة كنت ممدداً وحدي في غرفة آخر المسجد، ملتجئاً بلحاف ثقيل أحتمي به من البرد، فاقترح عليّ غرفتي شابان ومعهما المترجم، اسم أحدهما إبراهيم عبدالرحمن فأخبرني أنهما مدرسان في مدرسة لتعليم القرآن الكريم، وقد جاءا لزيارتنا والجلوس معنا، فتحاملت على نفسي وجلست أجالهما وأسألهما عن المدرسة والطلاب والتحفيظ، فوعدتهما بزيارة المدرسة في الغد، فما أن التفتا إلى الباب منصرفين حتى انسللت تحت لحافي كما يأوي صغير الكنغر إلى بطن أمه، وتمنيت أن يأتي الصباح ولديّ القوة على زيارة مدرستهم.

صليت الفجر بجانب رفيق رحلتي الشيخ أبي بكر بلفقيه فهمس

في أذني: كيف أصبحت اليوم؟

قلت: الحمد لله، أشعر أني أحسن.

قال: (معني لك حبة تطير منك هذا البرد والتكسير كله).

فأخرج من حقيبة صغيرة معه شريطاً بقيت فيه حبتان، فتناولت منه واحدة وتلفّعت بشال معي، فما صلينا الشروق إلا وأنا أشعر بتحسن كبير.

بعد الفطور جاءنا الأخ (غلام رب حسين) ليأخذنا في جولة ستكون نهايتها مدرسة القرآن.

بدأت جولتنا من المسجد، وبدأنا حركتنا كالمعتاد بالدعاء عند باب المسجد أن يوفقنا الله ويسبقنا إلى قلوب العباد ويفتح أسماعهم لكلامنا، ثم قطعنا الحي الهندوسي، وكنا نشير برؤوسنا لهم مبتسمين فيبادلونا الابتسامة بمثلها حتى وصلنا إلى السوق، ومررنا على بعض التجار في أكثر من مكان وكلهم استقبلنا استقبالاً حسناً وأنصتوا لكلامنا ووعدونا بزيارتنا للمسجد، ومازلنا نتنقل في شوارع ضيقة تشبه شوارع الشيخ عثمان، فنمر على أماكن صناعة أسرة الحبال، وحوانيت لبيع الأدوات البسيطة، ومحلات الحلاقين، وورش الحديد والخشب، ومحلات بيع الإسمنت، وكانت الجواميس تتجول في الشارع بكل شموخ، وتسير في الشارع

عربات تجرها الحمير، قال لي المترجم سفيان: ماذا تسمون هذا في العربية؟

قلت: جاري حمار. قال: في الأوردو نسميه (جدى جاري) وجدى تعني حمار، بينما لغتنا نحن البشتون (هر جاري) وهر تعني حمار. كانت الموسيقى الهندية تستقبلنا حيثما ذهبنا، وترك تأثيرها على الصورة التي يبدو فيها الشارع. مررنا بمساجد وأحياء للشيعنة الجعفرية، وعلى بيوتهم ملصقات وكأنها استعداد للاحتفال بالمولد النبوي، وفي أحد الشوارع هناك استعدادات من الصوفية أيضاً للاحتفال. وهذه المدينة هي خليط من الهندوس والشيعنة والطرقية والسنة، وقد حذرنا الإخوة الباكستانيون من الخروج بصورة منفردة في الليل؛ لأن هناك متعصبون قد يشتبكون معنا.

بعد ما يقارب ساعة وصلنا إلى مدرسة (نور الهدى)، ولم تكن هي المدرسة التي ينتظرنا فيها الشبابان اللذان زارانا البارحة، وقد أخذنا الأخ إلى هذه المدرسة بسبب سوء تفاهم أو سوء ترجمة.

ضربنا بوابة حديدية ففتح لنا الباب طالب صغير تعلوه ابتسامة رسمت في وجهه خطوطاً دائرية، وكان ابتسامته حجر ألقى في بركة ماء ساكنة فحولتها إلى دوائر من الأمواج، مد لنا يديه الصغيرتين مصافحاً فصافحته وطوقت رقبتة بذراعي وضممته إلى بطني،

وفتلت أذنه، ثم ولجنا المدرسة فاستقبلنا شاب أبيض ملتح فكانت كلمات الترحيب تتناثر من فمه كما يتدفق الماء من أنبوب متوسط يقع خلفه تمامًا، فكانت كلماته تختلط بدوي عشرات الطلاب في فصول المدرسة يرددون آيات القرآن الكريم، أشار إلى سريرين من الحبال لنجلس عليهما، فطلبت أن نمر على الطلاب قبل جلوسنا، فليس لي القدرة على الصبر قبل أن أرى النحل يدوي في خلاياه، مررنا عليهم وكل طالب يمسك مصحفه على طاولة بلاستيكية أو خشبية مرددًا ما قرر عليه حفظه أو مذاكرته، وأصواتهم تختلط في بعضها حتى لا تكاد تفهمها.

جلسنا على سريرين في باحة المدرسة أمام حديقة صغيرة مزينة بالورود والحشيش، يجول فيها عدد من البط والعقاب والدجاج والحمام.

حدثنا الأخ غلام رب حسين عن المدرسة فقال:

تأسست هذه المدرسة عام ١٩٧١ م بعد عودة مولانا (غلام الله) من حيدر آباد وتخرجه من دار الحديث هناك، وكان مولانا من أهل الله محدثًا زاهدًا عابدًا تقيًا ورعًا، يعيش على القليل ولا يشغل نفسه بغير العلم، وقد كان يأتيه الطلاب من المدينة والمدن المجاورة يدرسون في دار الحديث هذه التي ترونها في الزاوية اليمنى من

المدرسة، وآخرون يدرسون القرآن الكريم، فكان يقسم يومه كله بين تدريس القرآن وتحفيظه، وتدريس الحديث وعلومه. نظرت في الزاوية اليمنى فرأيت بابًا مكتوبًا أعلاه (دار الحديث النبوي)، نهضنا إلى دار الحديث فوجدنا مجلسًا قد غلب عليه الغبار والعناكب، ومكتبة تملأ واجهة جدار، كانت مجموعة من أهم المراجع الإسلامية: الكتب الستة ومصنف ابن أبي شيبة والفتح الرباني في ترتيب المسند وكنز العمال وكتب ابن حجر والذهبي التقريب والتهذيب ولسان الميزان وميزان الاعتدال وتذكرة الحفاظ والجرح والتعديل للرازي وتفسير السعدي والرازي والفتاوى الهندية ونصب الراية وغيرها الكثير.

كان الغبار يغطي الكتب تمامًا بما يوحي أن المكتبة ستكون طعامًا للأرضة في قابل السنين بعد أن كانت تعانق عاشقًا أفنى عمره بين كتب السنة وحوله طلاب يملؤون المكان همة ونشاطًا وعشقًا. رأيت الكتب باكية حزينة قد كساها السواد ودخلت في حداد لا آخر له بعد أن فارقتها حبيبها عام ٢٠١٠م، وتلقته يد الإهمال ووجد الغبار فيها خير فراش ينام عليه، انتابني موجات من الحزن والأسى، فوقفت من ارتفاع الباب أنظر إلى المدرسة، فرأيت مساكن الطلاب وقد تهدمت، وتبعثرت أحجارها وتحولت إلى أطلال بالية ينوح في

ليلها البوم باكيًا، وتسكنها الخفافيش منتشية بسكنى كان يسكنها مصابيح الدجى.

لمحت باب غرفة مكتوب عليه (كتب خانة)، فأسرعت إليه وكأني أسعى بين القبور، ففتحته فاستقبلني الغبار فتراجع رفاقي لكنني كنت مندفعًا اندفاع الأم نحو قبر وحيدها لترتمي على ترابه، وجدت أمامي بقايا جنازة خشبية فدفعتها فتهشمت، ووجدت دولابًا مليئًا بالكتب القديمة؛ مسند أحمد، معجم الطبراني، تفسير المدارك، و... أغلقت الدولاب بانفعال وخرجت آسفًا موجوعًا على هذه الذكريات المهملة، والنفائس الضائعة والسنين العامرة. قبل أن نغادر المكان أخبرني الإخوة أن مولانا غلام الله أصيب قبل موته بالفالج (الجلطة)، وبقي بعده مدة يسيرة ثم مات، ودفن في جانب المدرسة، فسألت عن قبره فأشاروا إليه بجانب الجدار، فمشينا نحوه وكان قبرًا ترايبًا على السُّنة، ليس عليه حجر ولا شجر، فوقفنا ندعو الله له حتى رأيت عيني المترجم تذر فان.

رجعنا إلى المسجد، وفي طريق عودتنا كان دليلنا يشير عليّ بالجلوس مع بعض الناس، فكنت ألقى عليهم كلمتين موجزتين لا أزيد على قولي لهم (زورونا للمسجد)، فقد أرهقني المشي وبدأ البرد والتكسير يعاودني، وكان الأسي جاثمًا على صدري، فما ذهب

من خيالي بقايا الدار وبقايا الكتب وبقايا الذكريات وبقايا نور يخبو
بين الركام.

العلاج فوق الطبيعي

الليلة حدثني الشيخ أبو بكر بلفقيه فقال: أصيب رجل ثري من
اليمن يملك فنادق وأشياء أخرى، بجلطة في القلب كادت تقضي
عليه لولا لطف الله به، نقل على إثر تلك الأزمة القلبية إلى الأردن،
وقرر الطبيب المختص إجراء عملية القلب المفتوح، لكنه كان قلقاً
خائفاً متوجساً متوقعاً أسوأ الاحتمالات، ومن لطف الله به أنه وجد
ممرضاً أردنياً اعتنى به غاية العناية، ولم تكن تلك العناية تقتصر
على تقديم الخدمات المعهودة في مثل هذه الأماكن، بل إن هذا
الممرض أشعر المريض الثري بالأمان، يذكره دوماً بأن شفاءه بيد
الله؛ فهو وحده من يهب الشفاء أو يمنعه، وأنه لطيف بعباده رحيم
بهم... وغيرها من مثل هذه الذكري التي تشحن قلبه بالطمأنينة
والثقة، وشعر الرجل وكأن الله أرسل إليه هذا الممرض كأعظم
طبيب يمكن أن يتولى علاجه.

أقبل الرجل على العملية وهو يتوقع من اللطيف الخبير أن يتولاه

بلطفه ويقدر له أفضل الأقدار، ولم يكن ذلك إلا بفضل ذلك الممرض الصالح الذي يقوم بمهمة إضافية لا ينص عليها عقد العمل بينه وبين المستشفى، تمت العملية بنجاح وبقي المريض أيامًا في المستشفى تحت عناية الأطباء يحوطه يقين وثقة ذلك الممرض الموظف البسيط، وقبل أن يغادر المستشفى استدعى ذلك الممرض وصرف له مبلغًا كبيرًا كشكر لله على نجاح العملية، وتكريم للممرض على خدماته وإيحاءاته، لكن كانت المفاجأة، أن ذلك الممرض اعتذر عن قبول المبلغ، وبعد إلحاح شديد أيضًا أصر على موقفه الراض، فقال له الرجل ما هو الشيء الذي ممكن أن أقدمه لك؟

قال: هناك جماعات في اليمن يدعون إلى الله، ولهم مراكز ومساجد ولقاءات أسبوعية وشهرية وسنوية، فأرجو أن تتواصل معهم وتزورهم وتشارك معهم في أنشطتهم المختلفة.

قال المريض: هل لك حاجة غير هذه؟

- قال: لا.. وهذه حاجتي إليك.

فلما رجع الرجل إلى بلده كان أول مهمة معه هي البحث عن أصحاب الممرض الطيب، فدلَّ على مركزهم العام، وذهب إليه وجلس مع الأحباب وقصَّ لهم القصة فهللوا وكبروا، وأصبح بعدها

يحافظ على الحضور والخروج الشهري، ثم اشترى أرضية واسعة وبنى عليها بدعم من آخرين ساعدوه مركزاً كبيراً لجماعة التبليغ في مدينته هو مركزها الحالي، وبنى لنفسه بيتاً قريباً من المسجد، ومنذ ذلك الحين أصبح ملتزماً ببرامج وأدبيات جماعة الدعوة والتبليغ، يخرج معهم ويحضر اجتماعاتهم الداخلية والخارجية.

في جيده خيط أسود

جاءني الترجمان بعد صلاة المغرب وأشار إليّ بالذهاب معه إلى طرف المدينة الشمالي؛ لمناصرة الجماعة التي أخرجناها من المسجد السابق، وعند الباب كانت تنتظرنا دراجتان ناريتان لبعض الأحباب الذين جاءوا لزيارتنا، وقبل أن ننطلق ناولني الأخ أمان الله شالاً بنياً ثقيلاً يزيد طوله عن مترين وقال: لف هذا حولك من البرد. فانطلقنا وكأنا بطلان على جوادين مطهمين في طريقيهما إلى إحدى الغزوات، فاخرقنا المدينة إلى نهايتها، ومن جانب مزرعة الموز عرجنا يمينا ومشينا مسافة حتى وصلنا المسجد، ووجدنا الأحباب ينتظروننا، وكأنّ معهم خبراً بقدمنا، وصافحونا بطريقتهم في المصافحة ثم صلينا تحية المسجد فقدموا لنا مائدة

من الفاكهة، والفاكهة منذ جئنا تكاد تكون متوافرة ٢٤ ساعة بمعظم أنواعها، ثم تجمع من في المسجد حولنا وأسند المترجم الحديث إليّ، فتكلمت عن تجريد التوحيد لرب العالمين، وكان المترجم يترجم والقوم منصتون، وبينهم شاب أبيض تبدو عليه مخايل الذكاء، وكان يعلق في رقبتة خيطاً أسود كحرز من العين ودفع الشرور، وهذه الحروز منتشرة في (شهر مورو) بكثرة في الأطفال والشباب والكبار والغنم والجواميس، ثم أذن المؤذن فتفرق الناس في المسجد وجاء بعضهم يسلم عليّ حتى جاء الشاب صاحب الحرز فصافحته بحرارة وأجلسته جانبي، وجلسنا وحدنا فكلمته على الحرز ومنافاته للتوحيد، ووجوب الاعتماد على الله وحده في دفع الضر و جلب النفع، بكلام قليل مختصر، فما كان منه إلا أن رفع يديه إلى عنقه ومزق الخيط مزقاً ورماه من النافذة، ثم دعوت له بخيري الدنيا والآخرة، فلما انصرفنا بعد الصلاة جاء يسلم عليّ وأنا على الدراجة، وهو يتسم ويكرر الله وحده، الله وحده، ثم انطلق بي الشيخ جاويد أمير التبليغ لنعود إلى قواعدنا سالمين غانمين آمنين، ووجدنا السفرة مفروشة وعليها الطعام أشكالا وأنواعا، فجلس صحبي للعشاء أما أنا فقلت لهم: والذي بعث محمداً بالحق لا أجد له مسلماً، ودخلت المسجد أبحث عن ثياب معي متسخة تحتاج

غسلًا لكني لم أجدها، وقَلِّبت الأمتعة ولكن ليس لها أثر فلما سألت الأحباب قالوا: مولانا نضير استغل غيابك وغسلها كلها فهي وراءك على حبل الغسيل، فبقدر شكري وحر جي منه إلا أنه أزاح عني هم تغسيل الثياب، والذي يشق عليّ منذ مجيئنا، رغم أننا ندخل في اشتباك مع الإخوة الباكستانيين مع كل غسل لثيابنا، فهم يصرون على غسلها ونحن نرفض، لدرجة أنهم أحيانًا يسرقونها ونحن نيام لنصحو الفجر فنجدها على حبل الغسيل.

وفد كراتشي

بعد صلاة الفجر جاءني اتصال من كراتشي يقول بعربية واضحة:
- مولانا ناصر الوليدي معك عبد الوهاب من كراتشي، أنا كنت خارجًا في سبيل الله في اليمن منذ خمس عشرة سنة، ولقد أخبرني بعض الأحباب في اليمن أنكم في شهر مورو وأعطوني رقمك، سنتحرك إليكم الساعة السابعة صباحًا من كراتشي وسنحضر الغداء معنا فلا تطبخوا، سنصل إليكم بعد الساعة الواحدة.
- أهلاً وسهلاً مولانا عبد الوهاب سنتظركم.
وفي الموعد المحدد أقبل مولانا عبد الوهاب يصحبه أربعة من

الأحباب، وجرت مراسم الاستقبال، وجاءوا بالغداء والفاكهة وأنواع الحلويات والمشروبات الغازية ثم جلسنا نتذاكر رحلته إلى اليمن فقال:

خرجت في اليمن أربعة أشهر قضيتها في عدن ولحج وأبين ويافع، ثم سألت عن بعض الدعاة هناك وعن أخبار اليمن وعن (الحوثيين)، ثم نظر إليّ الأخ محمد السعدي وقال: أظن أني رأيتك في يافع، فقال: نعم، نحن استقبلناكم لكنني لم أعد أتذكر صورتك بالضبط. بعد جلسة ومذاكرة وتواصلٍ بالحق والصبر وبعد صلاة العصر انطلق الأحباب آيبين إليّ كراتشي؛ إذ لم تكن لهم حاجة غير زيارتنا والتسليم علينا، فبشرناهم بحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- «وجبت محبتي للمتزاورين في» وحديث الرجل الذي أرصد الله في طريقه ملكاً.

فعانقونا مودعين وانطلقوا في سياراتهم يلوحون بأيديهم وهم يتسمون حتى غابت الأزقة سياراتهم التي ينتظرها سفر طويل.

جلد الفاسق وضعف الثقة

زارنا أحد الدعاة القادمين من إفريقيا فحدثنا عن خروجه فكان

مما قال:

ذهبنا دعاة إلى نيجيريا فوجدنا هناك مسلمين تنصروا ومسلمين تشيعوا، فكان من السهل علينا إعادة بعض المتنصرين إلى الإسلام أما المتشيعون فقضيتهم الكبرى الجمل وصفين وعائشة وأبوها وحفصة وأبوها وكربلاء والحسين، وولاؤهم لإيران أعظم من ولائهم لبلادهم، وقلما يعود متشيع إلى ما كان عليه. وجدنا هناك إيران تعمل على قدم وساق، ولا وجود للدول السنية إلا جهود دعوية شخصية.

ثروة

وجدت أن في القارة الهندية إنتاجاً علمياً كبيراً في شتى مجالات العلوم الشرعية من تفسير وفقه وحديث وفتاوى وغيرها في القرن الأخير.

ووددت لو أن هناك مؤسسة للتبادل العلمي والثقافي بين العالم العربي والقارة الهندية، تضطلع بمهمة الترجمة بين الأمتين، ويسهل نقل العلم والمعارف لبعضهم البعض.

نحن مغيبون عن نتاجهم العلمي وهم كذلك مغيبون. وهناك

أعلام في شبه القارة الهندية لا يقلون عن أعلام العرب من العلماء
والمؤلفين، لكن العرب لا يعرفونهم فضلاً عن قراءة نتاجهم
والاستفادة منه، فالعرب لا يكادون يعرفون غير أبي الحسن الندوي
والمودودي ومحمد إقبال.

والأمر نفسه بالنسبة لهم، فهم لا يعرفون أعلام العرب ولا
مؤلفاتهم إلا القليل.

وقفت أمام مكتبة في أحد المساجد، فوجدت فيها الكثير من
الكتب لعلماء متأخرين ولكن لغتها أردية.

سحبت كتاباً فهمت أنه في التفسير لأشرف علي تهانوي فقلت
للمترجم من هو التهانوي؟

قال: مولانا أشرف التهانوي له أكثر من مائة كتاب منها:
تفسير القرآن ٥ مجلدات.

إمداد الفتاوى ٦ مجلدات.

المعاشرات الإسلامية مجلدين.

الجنة وزينتها (أحكام النساء) ١١ مجلد.

خطب أشرف التهانوي ٣٠ مجلد وغيرها.

وقدمت قبل حوالي خمسين سنة، وهو هندي من مدينة تهانو.

ثم قال: وأشهر منه أنور شاه كشميري الذي كان يلقب (مكتبة دار

العلوم)، له عشرات المجلدات، منها كتاب شرح البخاري، وكتاب مشهور اسمه (إكفار الملحدين) في مجلد واحد. وغيرهم الكثير والكثير.

وهناك كتاب (تذكرة مشايخ السند) تأليف مولانا الدكتور حق نواز أعوان، ترجم فيه لمائة وخمسين من علماء إقليم السند.

مع غلام مرتضى

جاءنا الأخ (غلام مرتضى) إلى الحلقة وجلس معنا ثم قال: أنا ضابط في القوات البحرية، جئت البارحة من كراتشي في إجازة قصيرة فقالت لي زوجتي: أن جماعة من العرب موجودون في الحي فلا بد أن تذهب إليهم لتتشف بآكرامهم.

فأرجو أن تكرموني بقبول دعوتي لكم على الغداء، وأخبروني ما هو الطعام الذي تفضلونه وتستطيعه نفوسكم؟

فقال له المترجم: بالنسبة للغداء والعشاء فهو محجوز فقد سبقك بعض أهل الحي.

قال: لا بد، لن تقتنع زوجتي بذلك، أخبروني من الذين سبقوني

وأنا سأقنع أحدهما يتنازل من أجل خاطر زوجتي.

عن الصديق الأكبر

بعد العشاء تجمع حولي عدد من الفتیان وقالوا: يا مولانا حدثنا عن أبي بكر الصديق - رضي الله عنه - .
فحدثتهم عن الصديق منذ أيام صداقته للنبي - صلى الله عليه وسلم - في الجاهلية حتى وصيته - رضي الله عنه - وموته .
والعجيب في الأمر أن المترجم مولانا سفيان لم تجف له دمعته من بداية الحديث حتى نهايته فكان يمسح دموعه بشاله وهي تزداد تدفقاً، والفتيان مشدوهين إليه وكأنهم يتابعون الأحداث من خلال شاشة مصنوعة من الدموع .

الوسطية والاعتدال

خرجتُ البارحة أنا والترجمان إلى زيارة، وأذن العشاء فعرجنا للصلاة في أقرب مسجد ووجدنا فيه محاضرة لشيخ كبير ينتمي للطريقة النقشبندية، فقال كلاماً ذكرني بموقف شهادته حينما كنت في سيؤون في أثناء خروجي هذا، وذلك حينما كنت جالساً في

المسجد وبالقرب مني شاب معمم بالعمامة الصوفية ويبدو أن له إمامًا ببعض العلوم وله اهتمامات بالقضايا الخلافية مع السلفية، فقد كان يتكلم بحماس حتى تكاد ترى احمرار عينيه، ويشير بيديه وكأنه يخطب في كتيبة، وكان هجومه على الوهابية قاسيًا لا رحمة فيه، فكنت أسمع اسم الباز والبدر وتقسيم التوحيد وتكفير الوهابية للمسلمين وغلوهم في الحكم على مخالفيهم واعتناقهم لمذهب التجسيم.

فكان يقول: أتدرون لماذا يثبت الوهابية الصفات الذاتية؟ ثم يجيب على نفسه.

لأنهم يعبدون جسمًا ولهذا يثبتون العينين واليدين وذلك تمهيدًا لاتباعهم للمسيح الدجال، وذلك أنهم سيعبدون المسيح الدجال حين خروجه ظنًا منهم أنه ربهم الذي يجسمونه.

وفي الأخير أوصى مستمعيه باتباع طريقة (الوسطية والاعتدال) التي تسع أمة الإجابة وترحم أمة الحبيب المصطفى -صلوات الله عليه-. ثم مسح فمه بمنديل كان في يده، ورشف جرعات من ماء ترطب شفتيه الجافتين من الانفعال.

لم أدر ساعتها هل أشفق على هذا المسكين المحققن والذي يحمل مشروعًا تدميريًا يجعل المخالف قاعًا صنفصفاً؟ أو على

كلمة الوسطية والاعتدال التي أخرجت من بطن القاموس ليعبث
المختلفون بها؟
أو على أولئك الفتيان الذين كانوا ينصتون خاشعين مستسلمين
لهذه الأفكار (الوسطية المعتدلة).

رحيل الشيخ عبد الوهاب

ونحن في شهر مورو وصل إلى مسامعنا خبر وفاة الشيخ عبد
الوهاب أمير التبليغ في باكستان وذلك يوم ١٨ نوفمبر عام ٢٠١٨م.

من هو الشيخ عبد الوهاب؟

ولد في دلهي بالهند عام ١٩٢٢م.
وتعدّ (سهار نفور) بلدة آبائه وأجداده، وكانت مركز العلم
والدعوة في ذلك الوقت.

حظي الشيخ عبد الوهاب منذ شبابه بصحبة مؤسس جهد الدعوة
والتبليغ الشيخ محمد إلياس، وقد بدأ الشيخ المؤسس جهد الدعوة عام
١٩٢٦م، فأدركه الشيخ عبد الوهاب في سنواته الأخيرة واستفاد منه.
ثم لازم ابنه الشيخ محمد يوسف الكاندهلوي الأمير الثاني

للجماعة وصاحب كتاب حياة الصحابة، واستفاد منه استفادة عظيمة، وظل طيلة حياته ينشر علومه ومعارفه، ثم صحب من بعدهما الشيخ إنعام الحسن الأمير الثالث للجماعة.

جهده وتضحياته

بدأ الشيخ عبد الوهاب جهده الدعوة في باكستان منذ استقلال الدولة عام ١٩٤٧م، وأفنى حياته كلها في هذا الجهد، وضحى تضحيات عظيمة حتى انتشر الجهد على يديه في جميع أنحاء الدولة، بل خرجت الجماعات من مركز الدعوة والتبليغ رايوند إلى جميع دول العالم الدانية منها والقاصية. وقضى حياته كلها يرغب في الدعوة ويحرّض الناس على التضحية.

وقد سافر الشيخ -رحمه الله- بنفسه إلى أغلب دول العالم حاملاً فكر الدعوة وهم الأمة، ولم يبق من دول العالم التي لم يتمكن الشيخ من السفر إليها إلا القليل. عُيّن أميراً للجهده في باكستان عام ١٩٩٢م بعد وفاة الشيخ بشير أحمد والد الشيخ إحسان الحق -حفظه الله-.

وفاته

وقد توفي -رحمه الله تعالى- فجر يوم الأحد العاشر من ربيع الأول ١٤٤٠ هـ الموافق ١٨ / ١١ / ٢٠١٨ م عن عمر ٩٦ عامًا كلها تضحية ونصرة للدين.

زيارة نهر السند

كان لي شغف كبير لزيارة نهر السند الذي قرأت عنه كثيرًا في الكتب، لاسيما في كتابات الفتح الإسلامي لبلاد الهند، ووعدني الإخوة بأن يرتبوا لي زيارة إليه، ومّرّ يومان فجاءني شقيقان معهما سيارة فاتجها إلى خارج المدينة حتى وقفنا على جسر كبير يمر تحته النهر، وكانت للنهر هيبة ورهبة، لعل مصدرها إحياءات التاريخ والفتح ومحمد بن القاسم، وهو أكبر نهر في القارة الهندية حيث ينبع من التبت خلف جبال الهمالايا حتى يصب في بحر العرب قرب كراتشي.

وكلمة السند تعني النهر، ومنها جرى تحريف الكلمة لتصبح

الهند، وبها سميت تلك القارة الكبيرة هندوستان أي بلاد الأنهار. كنت أمد بصري شمالاً وجنوباً فأرئى مياهاً لا آخر لها وشمس الغروب تزحف إلى مأواها حتى شعرت أنني شفيت بعض كلفي بهذا النهر، وطويت في داخلي الماضي في الحاضر واللحظة بالتاريخ، ثم طلبت من الإخوة العودة قبل أن يحل المساء، وفي إحدى محطات الوقود صلينا المغرب ثم عرج رفيقاي على مدير المحطة ليسلما عليه فلم يسمح لنا بالانصراف من مكتبه إلا بعد صلاة العشاء وقدم لنا بعض العصائر والفاكهة.

قرية سردار خان لنب

انتقلنا اليوم الساعة التاسعة صباحاً من شهر مورو إلى قرية تبعد عنها. كان الطريق إلى القرية ترايباً لكنه محفوف بحدائق وجداول ممتدة ومزارع قصب السكر تحيط بالطريق من كل اتجاه والترعة تقطع الأرض لتمدها بالحياة، والفلاحون منبتون في مزارعهم كالنمل في دأبه ونشاطه وحر كته. وصلنا القرية فوجدنا صفّاً من الناس يستقبلوننا في مدخل المسجد وينزلون أمتعتنا، وتتبع المسجد مدرسة دينية تعلم القرآن الكريم واللغة العربية يدرس فيها مئات الطلاب والطالبات.

دموع السندي

في ضحى الجمعة جاءنا رجل سندي يدعى (عبدالرحمن) فجلس معنا، وكان المترجم سعد الدين يحاول استيقافه ليتمكن من الترجمة بسهولة، فهو يتكلم والمترجم يضحك ويقول: الرجل يخلط الأردو بلغته السندي وأنا لا أعرف السندي جيداً لاسيما أن لغتي بشتونية، وبعناء أقنعه المترجم أن يتكلم أردو خالصة فكان خلاصة قوله: لقد جئتم من قرية بعيدة تقع خلف نهر السند، لا تزيد على عشرة بيوت، اسمها قرية (هادي محمد حسن)، وهذا هو اسم أبي الذي أسس القرية، ولقد أخبرني بعض القادمين من شهر مورو بوجود جماعة عربية وجئت كي آخذكم إلى قريتي وبيتي، معي لكم خروف أريد أن أذبحه لكم وأرجو أن تكرموني بقبول دعوتي، في العام الماضي جاءت جماعة مصرية فأخذتهم إلى قريتي وذبحت لهم خروفاً.

أرجوكم اذهبوا معي وسترون مزرعتي، فعندي مزرعة على ضفة النهر زرعتها قصب السكر.

لكننا اعتذرنا له بحكم ارتباطنا بترتيبات الخروج وشكرناه ودعونا

له بخير، وطلبنا منه البقاء معنا لتناول الغداء معًا، لكنه اعتذر بأن لديه عملاً كثيرًا في المزرعة، فانصرف عنا كاسفًا حزينًا والدموع تترقق في عينيه.

إلى رايوند من جديد

الساعة الثانية ظهرًا غادرنا قرية (سردار خان لنب) بشهر مورو منطلقين إلى مدينة (نواب شاه)، التي وصلناها الساعة الثالثة والنصف، وكان الجو غائمًا والطريق لوحة فنية من مزارع الموز وقصب السكر والمزروعات الأخرى، وقد مررنا على عدد من الأنهار والترع والجداول حتى دخلنا المدينة، وبجانب محطة القطارات نزلنا في الجامع الكبير استعدادًا للسفر عبر القطار إلى رايوند الساعة السابعة والنصف مساءً ترتيبًا لتشكيل جديد في إقليم آخر.

حصاد (شهر مورو)

أكثر من عشرين يوماً قضيناها في شهر مورو بإقليم السند، تنقلنا خلالها في سبعة مساجد بمعنى سبعة أحياء من المدينة، ونفذنا فيها الأعمال الانفرادية والاجتماعية، من بيانات وزيارات وجولات في الأسواق والأماكن العامة والمدارس، وشكلنا عددًا من الجماعات من أهل المدينة، منهم من تجهز للخروج سبعة أشهر، ومنهم أربعة أشهر، ومنهم ثلاثة أيام، وفيهم من خرج ونحن ما زلنا في المدينة، وآخرهم في قرية (سردار خان لنب) حيث جرى تشكيل ٢٤ شخصًا. وختم كل واحد من الإخوة خلال العشرين يوماً تلاوة القرآن الكريم مرة واحدة على الأقل، وختمنا قراءة رياض الصالحين. كما نزعنا الكثير من الحروز والتمايم، واقتربنا من الإنسان الباكستاني، وتعرفنا على الكثير من الدعاة والعامة والشباب. من هؤلاء رجل عامي اسمه منصور يطاردنا من حي إلى حي، حتى إنه جاءنا إلى القرية يومي خروجنا فيها وهو من جهز لنا الباص، بل سبقنا ودفع أجره الباص التي تبلغ ٢٣٠٠ ربية. ومن أهم من عرفناهم الإخوة البشتون الخارجون معنا، وقد كانوا

بحق نعم الإخوة ونعم الدعاة، تشعر أنهم خضعوا لتربية روحية دينية منذ طفولتهم، وشيخهم هو المترجم الشاب مولانا سفيان الذي غادرنا إلى رايوند قبل يومين، فهناك تنتظره زوجته في خروج دعوي نسائي إلى مدينة فيصل آباد أربعين يومًا.

في المركز

بقينا أيامًا في مركز رايوند نخلع عنا وعشاء السفر، ونستريح ونشتري ما نحتاجه من الأغراض، ونحضر مذكرات ومحاضرات المشايخ، ونستمع إلى أحوال العائدين من الخروج، ونختلط بالناس ونتسامر مع بعضنا، ونتذكر أحوالنا وأخبارنا. وكان الشيخ أبوبكر بلفقيه هو جليسي وأنيسي ونديمي وسميري، فكان يحدثني عن أخباره وأحواله وقصته مع الدعوة والدعاة، وأتذكر أنه حدثني ليلة من تلك الليالي بهذه القصة.

ماذا صنع كرت الدعاية؟

قال الشيخ أبو بكر بلفقيه: غادرت عدن عام ١٩٧٨م، وتركت مقعدي في كلية التربية بعد أن وصلت للسنة الأخيرة، وذلك حين شعرت أنه من الصعب عليّ البقاء في عدن في ظل وضع تلك المرحلة، وفي جيبوتي كان يقيم أبي الذي كان يلحُّ عليّ من سنوات لمغادرة عدن، وهناك عملت مع أبي في مؤسسة (المتانة) للأثاث.

وفي عام ١٩٨٤م أوقف سيارتي رجل جيبوتي ليسألني عن كتاب (رجال حول الرسول)، وكان ذلك الرجل هو أحد قيادات جماعة التبليغ في القرن الإفريقي، ومنذ تلك اللحظة بدأت علاقتي بالتبليغ، ذهبت بعدها إلى مسجد التبليغ الوحيد في جيبوتي كلها، وكان ذلك هو أول لقاء لي بالأحباب في الجماعة، وكان العدد الكلي للأحباب في جيبوتي آنذاك خمسة وعشرين رجلاً فقط.

بدأ العدد يتكاثر قليلاً قليلاً، والجهد يقوى عاماً بعد عام، ومع مطلع ١٩٨٨م بدأت الحكومة تُضيّق على الجماعة، عبر محاصرة الأوقاف لها في المساجد، حتى كاد نشاطها ينحصر في مسجدتها الوحيد، وبدأت الجماعات الدعوية القادمة من الخارج تقلّل

قدومها حتى لا تحتك بالحكومة.

وفي عصر يوم من تلك الأيام وبينما كنت في السوق بمحل الأثاث الذي أعمل فيه؛ إذ رأيت ما جعل قلبي يهتزُّ طربًا، فأخذت أفرك عيني كي أصدق ما أرى، إنهم جماعة من الرجال يلبسون اللباس الباكستاني، لا بد أن تكون جماعة دعوية قدمت من باكستان؛ لتعزيز عملنا هنا بعد الفتور الذي أصابه جراء التضيق الأخير علينا.

تركت المحل وهرعت إلى الشارع بين السيارات والناس والبسطات حتى وصلت إلى الأحباب واختطفتهم إلى حضني كما تختطف الأم ابنها القادم من سفر بعد غيبة طويلة، لكنني رأيت على وجوه القوم التعجب من حفاوة استقبالي لهم.

سألتهم: - أستم أحبابنا القادمين من باكستان؟

- لا، نحن لسنا تبليغيين ولم نأت من باكستان، نحن حجاج قادمون من (جمهورية جزر سيشل) أصولنا باكستانية ضمن أقلية باكستانية وهندية مسلمة تحمل الجنسية السيشية.

هنا أصبت بخيبة شديدة تساوي فرحتي برؤيتهم، وأخذت أعتذر لهم محرّجًا، ودعوتهم لتناول الشاي في المحل، إلا أنهم اعتذروا بلباقة، وقبل أن يغادروا قال أحدهم: عندنا نشاط لجماعة التبليغ ونعرف بعضهم، وربما صلينا في مساجدهم.

فأخرجت من جيبي كرت دعاية للمؤسسة (مؤسسة المتانة للأثاث) مرفق به العنوان والتفاصيل، فقلت للرجل: إذا رجعت إلى جزر سيشل فأرجو أن توصل هذا الكرت للمركز الرئيس للجماعة وتقول لهم (إخوانكم في جيوتي ينتظرون خروجكم إليهم، فهم في أمس الحاجة لزيارتكم).

ثم ودعتهم، وانصرفوا وعدت إلى مكان عملي. مرت على ذلك أربعة أشهر، وفي يوم من الأيام رأيت عددًا من الباكستانيين أمامي في الشارع يقبلون أبصارهم في لوحات الشارع وعرفت مباشرة أنها الجماعة التي أرسلت في طلبهم، فخرجت أجري نحوهم ولمحت الكرت نفسه في يد أحدهم، وكانت لحظات عاطفية مؤثرة، حيث تعانقنا في الشارع وهطلت دموعي دون شعور، فأخذتهم إلى المحل ثم تركت من ينوبني واتجهت بهم إلى المسجد.

أخذ الأحباب يسألوننا عن الأحوال فأخبرناهم بالتضييق الذي تتعرض له الجماعة في الفترة الأخيرة، فقال أحدهم: لقد درست دراستي الجامعية في الخارج مع نائب الرئيس الجيوتي (إسماعيل غيده)، وما زال بيننا شيء من التواصل، فلو قدرتم أن توصلوني إليه، أرجو أن نوضح له الصورة علّه يرفع عن الجماعة كل صور التضييق.

ولم تمر سوى عدة أيام حتى كان هذا الأخ مع عدد من مسؤولي الجماعة ضيوفاً في بيت نائب الرئيس، فرحب بهم ترحيباً كبيراً، وعرض على الجماعة القادمة من سيشل القيام في فندق يقدم لهم جميع الخدمات مجانية، لكنهم اعتذروا بحكم انشغالهم بالخروج الدعوي، ثم كلموه عن أوضاع الجماعة، وشرحوا له طويلاً أهداف الجماعة وبرامجها، فوعدهم خيراً، وقبل أن يستأذنه في الانصراف عرض عليهم مساعدات مالية فاعتذروا له بلباقة. ولم تمر سوى أيام حتى رفعت كل أشكال التضييق على الجماعة، بل ودُعيت الجماعة للخروج في المساجد الكبرى التابعة لوزارة الأوقاف، ومن حينها تغير الوضع ونشط الأحاب وتواصل الجهد، حتى غادرت أنا جيوتي عائداً إلى عدن عام ١٩٩٤م، ثم زرتها بعد عام ٢٠٠٠م فوجدت جميع مساجد جيوتي تستقبل الجماعة، ووجدت عدد من يحضر الاجتماع الأسبوعي من الجماعة في المركز العام يزيد على (الألفين)، بل إن الجهد في جيوتي اليوم من أنشط الجهود في القارة الإفريقية.

٤٧ سؤالاً

ومما سمعته من بعض المشايخ في تلك الأيام هذه القصة: كان الشيخ جمشيد - رحمه الله تعالى - أحد الأقطاب الثلاثة للتبليغ في باكستان، وهم (الشيخ بشير مؤسس مركز رايوند وأول أمير للجماعة في باكستان، والشيخ عبد الوهاب، والشيخ جمشيد العالم المفتي الداعية).

وذات يوم جاء شاب من طلاب العلم إلى مركز رايوند حتى جلس إلى الشيخ جمشيد وأخرج له ورقة فيها قائمة من الأسئلة التي تعدّ نوعاً من الاعتراضات والاستفسارات والشبهات حول جماعة التبليغ، فناولها الشيخ وكانت مكونة من (٤٧ سؤالاً) فنظر فيها الشيخ ثم قال للشاب:

سأجيبك عن هذه الأسئلة سؤالاً سؤالاً، ولكن قبل هذا أطلب منك طلباً بسيطاً، وهو أن تخرج مع الجماعة أربعين يوماً وتأتي بعدها إلى المركز لتجدي أنتظرك ومعني إجابات جميع اعتراضاتك، فوافق الشاب على خوض تلك المغامرة وخرج مع إحدى الجماعات الجاهزة أربعين يوماً داخل باكستان، ولما عادت الجماعة إلى

المركز بعد تنفيذ مهمتها أقبل الشاب إلى الشيخ جمشيد مبتسمًا يقول له: لقد وجدت الإجابة على جميع أسئلتني واعتراضاتي، ولقد أحسنت يا شيخ الإجابة عن تلك الاعتراضات. ومنذ ذلك الحين لم يترك الدعوة إلى الله، وكان يحدث دائمًا بقصته مع الشيخ جمشيد -رحمه الله تعالى-.

إلى مدينة ملتان

تقع مدينة ملتان في الجزء الجنوبي من إقليم البنجاب، وهي مدينة كبيرة يسكنها أكثر من ثلاثة ملايين نسمة، وقد وصل إليها الفاتح محمد بن القاسم الثقفي -رحمه الله تعالى- في حركة فتوحاته نحو الهند، وهي آخر منطقة وصل إليها هذا الشاب الثقفي، فدخل أهلها في الإسلام منذ ذلك الحين، وتعاقت عليها الدول والإمارات الإسلامية المتتابة حتى سقطت القارة الهندية في يد الإنجليز، ولم يخرجوا منها حتى سلموا معظم الهند للهندوس، ولكن بعد التقسيم ونشوء دولة باكستان كانت ملتان إحدى المدن الباكستانية المهمة. وقد تحدث عنها المسعودي في رحلة المشتاق فقال: يقول الإدريسي في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق:

«وكان بها صنم يعظمه أهل الهند ويحجون إليه من أقاصي بلدانها، ويتصدقون عليه بأموال جمّة، وحلي كثير، وطيب وشيء يقصر الوصف عنه؛ تعظيمًا له وإجلالًا، وله خدام وعباد يأوون إليه وينفقون ويلبسون من ماله المتصدق به عليه. والصنم على صورة الإنسان مربع على كرسي من حص وآجر، قد ألبس جميع جسده جلدًا يشبه السختيان أحمر لا يتبين من جسده شيء إلا عيناه فمنهم من يزعم أن بدنه من خشب، ومنهم من يدفع ذلك القول عنه وينكره، غير أنه لا يترك بدنه مكشوفًا، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرصع، والصنم قد تربع ومد ذراعيه على ركبتيه كأنه يحسب أربعة وهو معظم عندهم جدًا.

وإنما سميت الملتان فرج بيت الذهب؛ لأن محمد بن يوسف أخا الحجاج أصاب بها أربعين بهار ذهب، والبهار ثلاث مائة وثلاثة وثلاثون منًا، وكلها في بيت، فسميت بذلك فرج الذهب والفرج الثغر. وللملتان نهر صغير و(هي نهر تشناب) عليه أرحاء ومزارع ويصب في نهر مهران السند».

ومنذ وصولي إلى باكستان كنت حريصًا أشد الحرص على زيارة مدينة ملتان، وكان هناك آثار أقدم تناديني، وأرواح تنتظري، شعرت أنني سأجد محمد بن القاسم ينتظري على أطراف المدينة

ومعه الآلاف يرحبون بنا، لقد كانت ذكرى الفاتحين تجذبني إلى ملتان كما يجذب المغناطيس الحديد، فكان القطار يسير بنا كأنه بساط الريح يأخذنا إلى بلاد الأحلام وبلاد الأساطير ودنيا السعادة التي يرسمها خيال الحالمين.

في اليوم الثاني من ديسمبر عام ٢٠١٨م اتجهنا إليها بالقطار الساعة الثامنة مساءً، فكنا نسير تحت جناح الليل وأرواحنا تحلق تحت النجوم.

كان القطار مزدحمًا لا تكاد تجد فيه متسعًا من كثرة الرجال والعائلات والأطفال، ولم يكن مثل القطارات المريحة المنظمة التي سافرنا بها في المرات السابقة، وبصعوبة عثرنا على أرقام مقاعدنا، ويبدو أن الإخوة الباكستانيين الذين حجزوا لنا القطار لم يكن في حساباتهم مثل هذا الزحام.

وفي القطار وجدنا شابًا صوفيًا غالبًا يزعم أننا على ضلالة، وأن الله لن يقبل عملنا هذا؛ لأننا لا نحب الرسول -صلى الله عليه وسلم-، فالرسول عليه الصلاة والسلام في فكر هذا الشاب حيٌّ يسمع ويرى ويراقب الناس، وقد خلقه الله من نوره وله من المشيئة مثل ما لله تعالى، وحاول الإخوة دعوته بالحسنى لكنه كان متعصبًا محققًا.

وقفنا في عدة محطات لكن أهمها مدينة أو كارا، وهي مدينة كبيرة

ومحورية.

ووصلنا إلى الملتان الساعة الثانية عشر ليلاً، وهي المحطة الأخيرة للقطار، ومن المحطة استأجرنا سيارتين إلى المركز العام للتبليغ في مدينة الملتان.

وصلنا المركز وأنزلنا أمتعتنا، وكان المركز مزدحمًا بالجماعات، منهم من هو مثلنا وصل للتو، ومنهم النائمون، ومنهم من يصلون في جماعة كبيرة، ومنهم من يتناولون العشاء. وكان المركز كبيرًا واسعًا محاطًا بسور داخله أشجار جميلة منظمة.

بقي الباكستانيون مع الجموع، بينما أدخلنا نحن العرب إلى صالة معدة للضيوف من غير الباكستان.

ما أن لامست رؤوسنا الوسادات حتى رحنا في نوم عميق، وقبل الفجر استيقظنا للاستعداد للصلاة، وسمعت طلاب التحفيظ يدرسون مقرراتهم.

وبعد الصلاة قُدم لنا الفطور، ثم استأجرنا سيارة إلى حي (نيو ملتان)، حيث يقع مسجد الرحمن الذي جرى تشكيلنا فيه لمدة ثلاثة أيام.

الوضع في المدينة هنا يختلف عن شهر مورو كثيرًا؛ فهنا المدينة كبيرة ونظيفة، وبنيتها التحتية راقية، ومستوى الناس الاقتصادي

والعلمي ومظهرهم العام أفضل بكثير من شهر مورو، حتى إنك تجد أثر النعمة على الناس في محيّاهم ولباسهم ومعاشهم وخدماتهم.

جامعة عمر بن الخطاب

الأربعاء ٥ ديسمبر ٢٠١٨م، قمت بصحبة الأمير وعدد من الإخوة بزيارة لجامعة عمر بن الخطاب -رضي الله عنه- وهي ثلاثة ثلاث جامعات كبرى في مدينة الملتان، وفي هذه الجامعة أكثر من ١٥٠٠ طالب وأكثر من ٢٥٠ طالبة.

يدرس الطالب فيها ثلاث سنوات تمهيدية يحفظ فيها القرآن الكريم وبعض المتون، ثم يدرس ثماني سنوات أخرى يتلقى فيها العلوم بأسانيدھا المتصلة في الفقه الحنفي والمقارن والتفسير والحديث والتوحيد والنحو والصرف والأدب العربي وغيرها من العلوم.

ويتبع الجامعة دار حديث يدرس فيه خمسة وثمانون طالبًا، يدرسون الكتب الستة وموطأ مالك وعلوم الحديث. وفي الجامعة خمسة وأربعون مدرسًا، وأكثر من سبعين موظفًا من إداريين وحراس ومنظفين وطباخين.

وهؤلاء الطلاب يتلقون العلم و يقيمون في سكن الجامعة مع تغذية مجانية، وقد مررنا بفرن آلي لتجهيز الخبز للطلاب.
 رئيس الجامعة هو الشيخ العلامة مولانا المفتي (كريم بخش)، وقد أردنا أن نلتقيه لكن الإدارة أخبرتنا أنه لن يأتي اليوم للجامعة بسبب وعكة صحية ألمّت به، علمًا أن هذا العالم المفتي الذي يجيز الطلاب في مختلف العلوم وهو من كبار علماء الحنفية، خرج دعوة إلى الله في اليمن لمدة سبعة أشهر، وتنقل من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية وكأنه درويش من الدراويش دون ضجيج ولا زحام ولا لفت للأنظار.

اتجهنا بعدها إلى دار الحديث ووجدنا مولانا المحدث شيخ الحديث العلامة (ياسين صابر)، الذي يأخذ عنه الطلاب الأمهات الست بأسانيدھا المتصلة إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-. وفي دار الحديث طلبت مني الإدارة توجيه كلمة للطلاب، فحدثتهم عن فضل العلم ومكانته والحث عليه، ثم الدعوة إلى الإسلام والحفاظ على إسلام هذا البلد الطيب، وأنشدتهم شيئاً من شعر محمد إقبال وتأثروا به كثيراً، وكانت الكلمة باللغة العربية؛ لأن جميع الطلاب يتقنون العربية بحكم أن دراستهم بالعربية، وبعد الكلمة صافحنا الطلاب وودعناهم عائدين.

جامعة (خير المدارس)

غادرنا جامعة عمر بن الخطاب متجهين إلى جامعة (خير المدارس)، وعند البوابة تلقانا الحارس وأخذ بطاقة الأمير ثم فتح لسيارتنا البوابة فنزلنا في باحة الجامعة، وتلقنا إدارة الجامعة وقدموا لنا شرحاً مفصلاً عن الجامعة ومسيرتها المباركة.

حيث أسس مولانا (خير محمد جالندھري) هذا الجامعة عام ۱۹۳۱م، وبقي هو يديرها حتى توفاه الله عام ۱۳۹۰ للهجرة. ويرأس الجامعة الآن مولانا (محمد حنيف الجالندھري) - حفظه الله تعالى - وهو الآن خارج في سبيل الله دعوة إلى إفريقيا لمدة أربعة أشهر.

ويدرس هذا العام في الجامعة أكثر من ثلاثة آلاف طالب، وأكثر من ستمائة طالبة.

كما ويوجد في الجامعة دار ضخمة لتحفيظ القرآن الكريم. وهناك أيضاً دار الحديث التي يدرس فيها أكثر من ثلاثمائة طالب، يدرسون الأمهات الست وموطأ مالك وعلوم الحديث.

كان لنا لقاء مع طلاب دار الحديث في الصالة المخصصة، وقد

طلبت مني الإدارة توجيه كلمة للشباب المحدثين، وكانوا أكثر من ثلاثمائة، وجميعهم يتكلم العربية فلم يحوجوني إلى مترجم، فألقيت كلمة عن فتح محمد بن القاسم لهذه المدينة، ثم تكلمت عن محمود بن سبكتكين والسلطان أورنكزيب وأحلام محمد إقبال في إقامة وطن للمسلمين، وأنشدتهم شيئاً من شعره، وعرّجت على انفصال باكستان، ومعنى كلمة باكستان، ورأيت الحماس بل والهتافات والتأثر على الطلاب، فلما أنهيت الكلمة واستأذنا في المغادرة وقف طلاب الحديث صفين يصفاحونا، وكان لا بد من أن نصافحهم كلهم لحرصهم الشديد على ذلك.

وتتبع هذه الجامعة عشرون مدرسة دينية في مدينة الملتان وحدها. وجميع العلوم تدرس باللغة العربية، فيخرج الطالب وقد أنقن اللغة العربية.

المدرسة الرحيمية

عبد الحميد روبرخان الميواتي أصله من نظام الدين في الهند، جاء أبأوه إلى الملتان من زمن قديم، وفي عام ١٩٨١م جاء إلى هذا الحي وبنى مسجداً ومدرسة لتعليم القرآن الكريم، واستمر في إدارتها حتى

توفاه الله عام ١٩٩٥ م، فخلفه على المدرسة ولده شمس الدين الذي استقبلنا في مكتبة المدرسة هو وأخوه سميع الحق. وسميع الحق هو الآن إمام المسجد، وشمس الدين خطيبه، وهم الآن وبمساعدة عدد من المدرسين والمدربات يقومون على المدرسة.

سألت شمس الدين عن عدد الطلاب والطالبات المسجلين في المدرسة هذا العام فقال: عدد الطالبات يزيد على المائتين، والطلاب يزيدون على المائة. ثم سألته عن عدد الحفاظ الذين خرجتهم المدرسة فقال: مرت عشر سنوات ولم نكن نهتم بإحصائهم، ولكن بعد التأسيس بعشر سنوات وإلى اليوم تخرج أكثر من ستمائة حافظ وحافظة، وهذا العام إلى الآن حفظ اثنا عشر طالباً وثلاث عشرة طالبة.

رحلة مشتاق في الآفاق

(الشيخ مشتاق) من مدينة بيشاور، نشأ في هذه الدعوة من صغره، وخرج في أماكن شتى داعية إلى الله، ولكن أهم خروج له كان لمدة ثمانية عشر شهراً، منها أربعون يوماً في باكستان والباقية في إفريقيا، كما خرج في بنجلادش لمدة سبعة أشهر.

وقد سهرت معه ليلتين ليحدثني عن قصة خروجه إلى إفريقيا وما لقي فيها من أحوال.

وسألته أولاً مازحاً: من أين لك المال الذي خرجت به في سبيل الله هذه المدة؟

فقال: اقترضت من العمل ثلاثين ألف روبية، واستدنت من زوجتي شيئاً من ذهبها.

وبدأت رحلة خروجي في ١ يناير ١٩٩٤م، فقضيت في إسلام آباد أربعين يوماً، ثم عبر القطار سافرت إلى كراتشي، وبالطائرة سافرت إلى دبي ومنها إلى نيروبي.

نزلت في كينيا في المركز العام للجماعة بصحبة ستة من الدعاة، وجرى تشكيلنا في كينيا في العاصمة مدة عشرين يوماً، فتنقلنا في

الكثير من المساجد والأحياء والأسواق، وقد اعتنق نصراني واحد الإسلام على أيدينا وسلمناه للمركز ليتابعوه.

وبالقطار انطلقنا من نيروبي إلى دار السلام بتنزانيا، ونزلنا في المركز الرئيس، وبقينا هناك نتنقل بين أربعة مساجد حتى حان ميعاد سفرنا إلى (لوساكا) عاصمة زامبيا، واستقبلنا فيها عدد من المسلمين من أصل هندي، وشكلونا في العاصمة مدة عشرين يوماً، وإنما كان دخولنا إلى كينيا وتنزانيا وزامبيا عبوراً إلى موزمبيق محطتنا الرئيسة، وفي موزمبيق قضينا سنة وشهرين وتنقلنا في طول البلاد وعرضها، ومعظم حركتنا كانت على الأقدام، وقد زرنا خمس مدن رئيسة وملحقاتها، وبعد وصولنا بأيام أسلم على أيدينا ثلاثة نصاري، وبسبب هؤلاء الثلاثة أسلم اثنان وثلاثون آخرون من عائلاتهم وأصدقائهم وجيرانهم.

وقد كنا نتنقل على الأقدام حاملين أمتعتنا على ظهورنا، وبينما كنا نقطع الغابة ضللنا الطريق، وسرنا في الاتجاه الخطأ، ولم نتبين خطأنا إلا حين ظهرت لنا عجوز من بيت مبني بالقصب، فلما سألناها عن الطريق أخبرتنا أنه يجب علينا العودة ثم الاتجاه يمينا قبل أن يهجم علينا الليل، وكان الوقت بعد صلاة العصر، ثم سألتنا من أنتم وما الذي جاء بكم؟ فلما أخبرناها أننا مسلمون قالت: كان

آبائي وأجدادي مسلمين قبل أن تتحول هذه المنطقة إلى النصرانية، ثم دعوناها إلى الإسلام فأسلمت، ثم قالت لنا: زوجي وأبنائي نصارى، هل بالإمكان أن تتكلموا معهم؟

وتحت شجرة قرب عريشها جلسنا معهم فسرعان ما أسلم الأب وثلاثة من أبنائه، وأرشدناهم إلى التواصل مع المركز الرئيس في العاصمة، وكان المترجم معنا شاب موزمبيقي من أصل هندي، ولغة موزمبيق هي البرتغالية.

والغريب في موزمبيق أن وقت البرد في شهري يونيو ويوليو، فخرجنا ذات يوم نعرض أنفسنا للشمس من شدة البرد، فتحلقت حولنا فتيات نصرانيات وقلن لنا: نحن شابات نبحت عن أزواج فهل من الممكن أن تتزوجونا وتأخذونا معكم إلى بلادكم؟ فقلنا لهن: نحن متزوجون، ولم نخرج إلا للدعوة إلى الله، ولا نفكر في الزواج.

فقلن للمترجم: قل لهم يتزوجونا ما داموا في موزنبيق، وقبل سفرهم يطلقوننا.

فضحك المترجم ولم يرد أن يترجمها لنا حتى ألححنا عليه لنعرف ما الذي يضحكه؟

وما زلنا نتنقل على الأقدام من بلدة إلى بلدة حتى وصلنا إلى سد

عظيم يسمونه (سد سونغو)، ويزعمون أنه ثالث أكبر سد في العالم. وفي إحدى الغابات وقفنا نصلي الظهر فأذن المؤذن بصوت مرتفع ثم صلينا فما سلمنا إلا والناس حولنا رجالاً ونساءً وأطفالاً وجميعهم من النصرائى، فأخذوا يسألوننا عن ديننا وخروجنا حتى غادرنا المكان.

ثم كان طريقنا إلى منطقة (شنجارة)، وقبل وصولنا رأنا امرأة فأخذت تتبعنا وتنادينا حتى أوقفنا فقالت لنا: هل أنتم مسلمون؟ قلنا نعم.

قالت: وهل لا يزال في الأرض مسلمون؟
قلنا لها: نعم كثير جداً.

قالت: ولكن الراهب أخبرني حين اعتنقت النصرانية أن المسلمين انقرضوا ولم يبق لهم أثر، ثم قالت: اذهبوا معي إلى بيتي وأنا سأذهب إلى الراهب وأخبره أن هناك مسلمين في قريتنا.

فأخذتنا إلى بيتها وذهبت هي إلى الراهب وقالت له: إن هناك عددًا من المسلمين في بيتي. فقال لها الراهب: إنهم ليسوا مسلمين، وإنما يقومون بأعمال المسلمين، فقالت بل هم مسلمون حقًا جاءوا من خارج البلاد، فقال لها: ولو كانوا مسلمين فلن يقدموا لك شيئًا لا طعامًا ولا دواء ولا مساعدات، فقالت: سوف أعود إلى الإسلام

واقطعوا عني مساعداتكم.

ثم عادت فأخبرتنا، ورددت الشهاداتين، ثم قبل أن نغادر أهدتنا دجاجتين إكراما لنا.

فلما وصلنا مدينة شنجارة وفيها ما يزيد على عشرة آلاف نسمة كما أخبرنا المترجم، وجدنا فيها بقايا مسجد مهدم فقد ارتدوا جميعاً عن الإسلام إلى النصرانية، ولم نجد فيها غير مسلم واحد شيخ كبير مريض مقعد، وقد قمنا بزيارته إلى بيته، واشترينا له بعض الهدايا، وفي طريقنا داخل المدينة كنا نرى الكنائس المبنية بالقصب ونتحسر على هذه المدينة التي كان أهلها جميعاً مسلمين، وقد حاولنا دعوتهم إلى الإسلام لكن دون جدوى.

ثم غادرنا المدينة مشياً على الأقدام كما هي رحلتنا، فمشينا أسبوعاً كاملاً دون أن نرى بشراً، وبعد أسبوع ظهرت لنا ثلاثة بيوت جميع من فيها نصارى إلا رجلاً واحداً، فنزلنا عنده ولم نجد معه من الإسلام غير الشهاداتين، فعلمناه الصلاة، وكان يصلي ويجلس معنا، فأوصيناه بالسفر إلى العاصمة حتى يرتبط بإخوانه هناك.

وواصلنا مسيرنا حتى وصلنا إلى قرية فيها ما يزيد على خمسين بيتاً جميعهم من النصارى، فأسلم منهم رجل وبقي معنا، فلما غادرنا المدينة غادرها معنا، فمشى معنا ثلاثة أيام ثم عاد إلى قريته فأسلم

على يديه زوجته وولده فالحقونا جميعًا، وكان فرحًا بالإسلام لدرجة أنه يأمر زوجته وولديه أن يكرروا لا إله إلا الله محمد رسول الله بصوت مرتفع ملحن، وقد حاول أبو زوجته أن يثنيه عن الإسلام هو وزوجته لكنه فشل.

وبعد مسيرة خمسة عشر يومًا على الأقدام وصلنا مدينة (شيشاي)، فاعترضنا رجل نصراني وسألنا:

هل أنتم مسلمون؟

قلنا: نعم

قال: ابني مسلم وزوجته مسلمة إلا أن زوجته ماتت منذ أشهر.

ووجدنا في هذه المدينة الكثير من المسلمين لكنهم معرضون عن الإسلام فلا يصلون ولا يصومون ويشربون الخمر ويرتادون الكنائس، فاجتهدنا عليهم وذهبنا ننتزعهم من داخل الكنائس ووجدناهم لا يعرفون اتجاه القبلة، فخططنا لهم مسجدًا من أعواد الشجر، وعلمناهم الصلاة وأركان الإسلام وقصار السور، وأكدنا على المترجم أن يهتموا بهم ويرسلوا لهم أئمة ومعلمين.

وبطبيعة الحال استجاب لنا القليل منهم، والآخرون يحتاجون جهدًا كبيرًا وعملاً مستمرًا.

ثم ذكّرت لنا جزيرة في المحيط الهندي تتبع موزمبيق وقد أخبرنا

أن فيها مسلمين، فركبنا البحر مع سفينة مدة ثماني ساعات حتى أرسى بنا السفينة هناك، وبدأنا رحلة البحث عن المسلمين، ومنهم من سمع بنا فتداعوا نحونا واجتمع حولنا المئات، لكنهم للأسف لا يعرفون من الإسلام شيئاً ولم يعد معهم من الإسلام غير أسمائهم الإسلامية، فأسسنا لهم مسجداً ليكون نقطة انطلاقنا ومركز دعوتنا، فعلمناهم الشهادتين وسورة الفاتحة والإخلاص والصلاة وبعض الأحكام الضرورية، وقبل أن نساfer عينا أكثرهم تديناً ومعرفة بالإسلام إماماً عليهم وآخر مؤذناً، وغادرناهم على نية ربطهم بمركز العاصمة. وكان عدد المسلمين هناك يزيد على خمسمائة، ثم عدنا مع سفينة إلى البر، ومنه انطلقنا إلى منطقة (زواله) فوجدناها منطقة يسرف أهلها في شرب الخمر، ووجدنا المسلمين يقضون ليلهم في الخمارات وينامون إلى الظهر، فكنا نسجل أسماءهم ونذهب لهم ليلاً إلى الخمارات. والحقيقة أن عدد المسلمين في هذه المنطقة لا يزيد على المائتين، وفي هذه المنطقة رأينا هلال رمضان وأصبحنا صائمين، ولم يكن معنا فطور جيد بل لم يكن معنا في هذه الغابات غير طحين الذرة، فكنا نطبخ منها أقراصاً نفطر عليها ونترك جزءاً آخر نتسحر منه، حتى زارنا عدد من الإخوة من العاصمة فعززوا تغذيتنا قليلاً، ثم انضموا إلينا فوزعنا المسلمين حلقات مع كل

واحد عشرة، يعلمهم التوحيد والصلاة وقصار السور وما لا بد منه، ولم نخرج من هذه المنطقة حتى خرج معنا منهم جماعة. وفي هذه الغابات كنا أحياناً نصلي متيمين؛ لانعدام الماء وربما لم نذق الطعام يوماً كاملاً، بل إننا أحياناً لا نجد ماء الشرب، فمشينا حتى تجاوزنا الغابات فدخلنا إحدى المدن فرأينا حركة للناس غير طبيعية، فقبل لنا إن معهم انتخابات، ووجدنا قوات الاتحاد الإفريقي وفيهم جنود مصريون فاستدعيناهم إلى مكان إقامتنا وأكرمناهم، وكان بعضهم يتقن تلاوة القرآن فكان يصلي بنا، وقبل مغادرتنا طلبنا من المصريين إذا رجعوا إلى بلادهم أن يذهبوا إلى المركز العام للتبليغ هناك وواعدونا خيراً.

وهكذا تنقلنا من مكان إلى مكان حتى دخلنا جمهورية ملاوي في غاباتها، وهناك بدأنا ندعو إلى الله، فلم يغادر ملاوي إلا بإسلام خمسة نصارى، ووجدنا في ملاوي مسلمين مرتدين بيوتهم من قصب، فدعوناهم فعاد إلى الإسلام منهم جماعة. وبعد عشرين يوماً قضيناها في ملاوي اتجهنا إلى زامبيا، وفيها حصلنا على تأشيرة إلى السعودية للحج، ومن زامبيا ركبنا القطار يومين حتى تنزانيا ثم إلى كينيا، وفيها اشترينا تذاكر الحج، فطارت بنا الطائرة إلى الرياض ومن الرياض استأجرنا سيارة إلى مكة فاعتمرنا، ثم اتجهنا

إلى المدينة النبوية، وفيها وجدنا قادة الجماعة: الشيخ عبدالوهاب، والشيخ طارق جميل، والشيخ عمر بالمبوري، والشيخ محمد عمر، والشيخ أحمد باها ولبوري وغيرهم، وحججنا واعتمرنا ثم عدنا إلى كراتشي، ومنها برًا إلى المركز العام في رايبوند، وهناك جرى تشكيلنا أربعين يومًا قبل أن نصل إلى بيوتنا.

شكيل أحمد

زارنا وجلس معنا الأخ (شكيل أحمد)، وكان يكلمني بعربية واضحة ويبدو في كلماته وفكره الذكاء الحاد، وقد أخبرني أنه خرج قبل عشر سنوات دعوة إلى الصومال سنة كاملة، وهناك تعلم اللغة الصومالية، وكان يلقي كلماته بالصومالية، ثم أخذ يكلمنا بالصومالية، ويبدو أنه أتقنها إلى حد كبير، كما خرج سبعة أشهر إلى (جمهورية ملاوي)، وهناك أيضًا تعلم اللغة الملاوية، وأخبرنا أنه يتقنها ويخاطب أهلها بها، والعجيب أنه ليس من خريجي المدارس الدينية ليكتسب العربية منها بل قال إنه تعلم العربية بجهود شخصية، وساعده خروجه للصومال لأن العربية حاضرة أيضًا في الصومال. وآخر ما قاله: إذا وجد في القلب الشوق والرغبة فيستطيع المرء أن

يتعلم أي شيء.

فقلت:

ملك الملوك إذا وهب

لا تسألن عن السبب

نمر أبو علي

نزلنا مسجد رحمة للعالمين فلقينا الشيخ (نمر أبو علي) من الكرك الأردن، قدم هو وزوجته دعوة في سبيل الله تعالى.

وأبو علي عمره ٦٨ سنة، قضى معظمها في الدعوة، وزار ٣٧ دولة حول العالم، وقد بدأ مشواره في الدعوة عام ١٩٧١ م، وقد أكرمه الله في إحدى زيارته لفرنسا أن حوّل كنيسة إلى مسجد، وأسلم عليّ يديه عدد من الفرنسيين، وأصبحوا في التبليغ يطوفون العالم، كما حوّل كنيسة إلى مسجد في قبرص التركية.

وفي أمريكا خرج عدة مرات واهتدى عليّ يده الكثير من المسلمين الأمريكيين، منهم عدد من اليمينيين وتحولوا من الباربات إلى المساجد، وله أحوال كثيرة في طوافه ذلك، إلا أن ضيق الوقت لم يسمح لنا أن نسمع منه المزيد، ولكنه وعدنا بلقاء في رايوند نستكمل فيه الحديث، لكننا لم نره بعدها حتى سافرنا.

فرع جامعة رايوند

قبل صلاة الظهر جاءنا مولانا أيوب أبو خبيب مدير فرع جامعة رايوند في الملتان، وأخذنا بالسيارة إلى المركز العام الجديد الذي يقع فيه الفرع، وصلينا الظهر هناك، ثم تكلمنا مع الطلاب في التشويق لطلب العلم والدعوة إلى الله، وكان مولانا أبو خبيب يترجم الكلمة، وبعد الكلمة وقف كل الطلاب يصافحونا بحب وشوق.

والطالب في هذا الفرع يدرس خمس سنوات مختلف العلوم الشرعية، ثم ينتقل بعدها إلى جامعة رايوند ويكمل ثلاث سنوات. والطلاب من الملتان وخارجها، وبعضهم من بلوشستان، وكلهم يتلقى العلم مجاناً. ولا يسمح لهم باستخدام الجوال إلا ساعتين في الأسبوع يوم الجمعة، من التاسعة صباحاً حتى الحادية عشرة ثم يسلم الجوال للإدارة.

ويخرجون دعوة في الأسبوع يوماً واحداً، وفي الشهر ثلاثة أيام، وفي العام أربعين يوماً، وعند تخرجه يخرج سنة متواصلة. فأصبحت هذه الجامعات التي تتبع التبليغ تضح إلى الجماعة آلاف العلماء وطلاب العلم في شتى التخصصات الشرعية. ورغم إمكاناتهم المتواضعة

إلا أن مستوياتهم العلمية تبشر بخير لهذه الأمة الباكستانية.

ولي الله الكشميري

كان أصغر الخارجين معنا في الملتان هو الشاب ولي الله الكشميري، وهو مجاز في القراءات العشر، ويحفظ الشاطبية والدررة في القراءات، والجزرية في التجويد، والرائية في الرسم القرآني. وخروجه لمدة عام كامل، مضى منها ستة أشهر، تخرج من الجامعة الرشيدية حيث تلقى فيها القراءات والتفسير والفقه الحنفي، وقرأ على شيخه الأمهات الست بأسانيدھا، وحصل منه على سند فيها، كما درس النحو والصرف والأدب العربي وغيرها من العلوم.

قضينا معاً في مدينة الملتان نصف شهر، وكنا نسهر وحدنا ونتذاكر العلم والمسائل والحركة العلمية والثقافية في القارة الهندية، وكانت تلك الليالي من أجمل الليالي، وكنا لا نفترق ليلاً ولا نهاراً ويستعذب مني سماع الشعر العربي لاسيما أن عربيته قوية. غادرنا بعدها مدينة محمد بن القاسم (الملتان) عائدين إلى رايون د بلاهور وسنفترق حتماً، سيذهب هو ليستكمل ما عليه من الخروج في مدينة

أخرى، وسأمضي أنا إلى مدينة أخرى، ولا ندري هل سنلتقي ثانية
أم أنه الوداع الأخير.

سنفترق وقلب كل منا يحمل كل مشاعر الحب والإخاء،
وستكون تلك المشاعر هي زاد تلك الذكريات الجميلة في ليالي
الملتان وأزقتها ومدارسها ومساجدها وجامعاتها وأسواقها.

إن نفترق نسبا يؤلف بيننا

دين أقمناه مقام الوالد

شيخة قبيلة بين جبال إفريقيا

مما بلغني وأنا في مدينة ملتان خبر الشيخ محمود زكريا، والشيخ
محمود فلسطيني من عرب الداخل وبالتحديد من مدينة (اللد)،
وهذه المدينة يختلط فيها المسلمون واليهود والنصارى، وأغلب
سكانها من اليهود، وتعدُّ هذه المدينة أكثر مدن الداخل الفلسطيني
نشاطاً في التبليغ، وفيها أكبر مركز في فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨م،
ففي آخر مؤتمر للجماعة حضر في المركز أكثر من ستمائة من
الدعاة، ويخرج الكثير من هذا المركز دعاة إلى الله في كل الداخل
الفلسطيني، وكذلك إلى مدينة القدس، وقد جرى تشكيل أكثر من

خمسین شاباً في آخر خروج للجماعة إلى المسجد الأقصى، بل خرج إمام المسجد الأقصى مع الجماعة أربعة أشهر. وتخرج الجماعات الدعوية من الداخل الفلسطيني إلى معظم أنحاء العالم تحت غطاء الجواز الذي يحملونه.

وفي هذه القصة العجيبة جداً خرج ستة عشر داعية من (اللُد)، وأميرهم الشيخ محمود زكريا لمدة سنة، في الأردن وقطر وزامبيا وناميبيا وجنوب إفريقيا، وفي جنوب إفريقيا يوجد رابع أكبر مركز للتبليغ في العالم، فلما وصلوا هذا المركز قال الشيخ زكريا للإخوة في شوري المركز:

نحن لم نخرج من بلادنا للأكل والشرب والنوم والضيافة، بل نريد أن نخرج إلى مكان لم تطأه قدما مسلم قبلنا.

ف قيل لهم: إذن سنرتبكم إلى منطقة الجبال، وهي منطقة قبلية وثنية بعيدة، لكن لا بد أن نرسل إلى تلك القبائل من يستأذن لكم، ولا بد أن يخرج معكم عدد كبير منا.

فأرسلوا رسولا إلى تلك القبائل فعاد بعد أربعة أيام يحمل معه الموافقة، فتحرك ستون داعية إلى تلك الجبال الوعرة متوكلين على الله الواحد القهار، حتى نزلوا في إحدى تلك القبائل الوثنية البدائية، في بيوت من الحجارة المرصوفة والقش والحطب والأخشاب،

وكان معهم مترجم إفريقي أسلم منذ سنوات على يد جماعة باكستانية، وهذا المترجم ملم بأحوال القبائل وتركيبتهم وطريقة تفكيرهم، وكان الشيخ محمود زكريا يتكلم بالإنجليزية. فلما نزلوا هناك قيل لهم: لا بد أن يكون نزولكم عند (شيخة القبيلة)، قال الشيخ محمود: في الحقيقة أنا تفاجأت أن شيخ هذه القبيلة امرأة، فدخلنا بيتها فوجدناه بيتاً صغيراً مبنياً بالحجارة البسيطة، ومسقوفاً بالقش، ووجدناها تجلس على كرسي على اعتبار أنه عرش لزعيمة القبيلة، وقبل أن أبدأ الكلام معها قال لي المترجم: هذه المرأة هي المفتاح، فاصدق الله معها، فلو أسلمت ستسلم القبيلة كلها، وإن رفضت الإسلام فلن يسلم أحد، قال: فتذكرت قصة إسلام سعد بن معاذ وأسيد بن الحضير على يد مصعب بن عمير، فبدأت الحديث معها عن الخالق الواحد وعن عظمته وقدرته، واستطردت معها في التوحيد، وكلمتها عن حاجة البشرية للأنبياء والرسل، وعن المعاد وعودة الناس للحياة بعد الموت والجنة والنار والحساب... إلخ، وكان المترجم يترجم حتى شعرت أنني أرهقت فتوقفت، فوجمت المرأة وطال صمتها ثم قالت: منذ سنوات مات جد لنا وكان هو شيخ القبيلة، ولكنه قبل أن يموت وهو على فراش الموت دعا وجهاء القبيلة وكنت أنا وزوجي الراحل نسمع فقال:

إنكم تعيشون حياة بائسة فليس معكم دين ولا دنيا، وأنا الآن في آخر أيام حياتي، فإذا جاءكم دين مبارك ترون فيه خيرًا لكم فاقبلوه، ثم لم يلبث يسيرًا حتى مات، فخلفه زوجي على زعامة القبيلة ثم مات، فخلفت أنا زوجي على القبيلة، ومنذ ذلك الحين لم يأتنا أحد يدعونا إلى أي دين، وعلى هذا فأنا أقبل كل ما تفضلتم به من الشرح والبيان.

قال: فهل لنا وكبرنا، فشرحنا لها معنى الشهادتين ثم طالبناها أن تنطقها بالعربية فنطقتها، وكان مشهدًا لا يوصف، ثم قالت: أنتم انتظروا هنا وسأرسل إلى قومي ليجمعوا وأنتم اعرضوا عليهم كل ما تفضلتم بعرضه عليّ، ثم أرسلت من يدعوهم فجمعوا حول بيتها فوقف فيهم الشيخ محمود زكريا خطيبًا يدعوهم إلى الإسلام، والمترجم يترجم، فلما أكمل وقفت زعيمتهم فيهم خطيبة فقالت لهم: انظروا إلى حالنا وبؤسنا وحياتنا، هل تريدون أن نتقل من هذا البؤس إلى النار... وفي آخر كلامها أخبرتهم أنها أسلمت، وأنها قبلت كل ما قاله الشيخ العربي، ثم وقف الشيخ محمود في مكان مرتفع يردد الشهادتين وهم يرددون وراءه، وكانوا أكثر من ستمائة. قال الشيخ: شعرت أن الجبال كلها تردد الشهادتين معنا، ولم يبق أحد منا إلا سالت دموعه مدرارًا.

ثم تفرق الإخوة في الجموع يشرحون لهم الإسلام، وكان معنا من أحباب جنوبي إفريقيا أربعة وأربعون أخًا. ثم جلسنا مع الزعيمة فقالت: نحن نحتاج منكم دعاة من أهل بلدنا يقيمون معنا حتى نتعلم الإسلام، لأنني رأيتكم تفعلون أشياء تحتاج إلى معلم (تقصد الصلاة)، نحن قبلنا هذا الدين المبارك بكل تفاصيله، ونريد أن نتعلمه حتى نصبح مثلكم، ولو لكم زوجات وأخوات وبنات مسلمات مثلكم أحضروهن معكم ليعلمن النساء.

قال: فقلنا لها سنعود الليلة إلى المركز ونأتيكم غدًا ومعنا بعض النساء وما تحتاجون إليه من ثياب ساترة للصلاة.

فعدنا إلى المركز وكان يومًا مشهودًا. فتحمس الإخوة واصطحبوا زوجاتهم وبناتهم حتى عدتُ عشرين امرأة، وأخذوا معهم الكثير من الثياب النسائية. وخرج معنا آخرون حتى أصبحنا تسعين داعية، فأسسنا لهم مسجدًا، ومكثنا فيهم شهرًا كاملًا، فتعلموا الصلاة وأركان الإسلام وبعض السور، وقبل أن تغادرهم استدعتني الزعيمة وقالت: إن وراء هذه الجبال الكثير من القبائل مثلنا، والذين إن عرضتم عليهم ما عرضتموه علينا فلن يرفضوه، فلا يليق بكم أن تتركوا هؤلاء الناس يموتون على الوثنية.

فقلت لها: نحن العرب انتهت الآن مدة خروجنا ولنا ارتباطاتنا،

ولكن سوف يأتيكم الأحباب من المركز، وترتب من يقيم معكم إقامة دائمة، وأعدك أني سأعود إليكم المرة القادمة في عدد كبير من العرب.

فلما بدأنا نتجهز للعودة جاءت فتاة صغيرة سمينها مريم، جاءت تجري نحوي حتى وقفت أمامي فقرأت سورة الفاتحة باللغة العربية، ودموعها تجري على خديها.

قال الشيخ: ثم جرى تعيين طالبي علم وهما شابان سنغاليان للإقامة الدائمة مع القبيلة لإقامة الجمعة والجماعة وتعليم الإسلام والدعوة إليه، وجعل المركز من ضمن برامج متابعة هذه القبيلة.

من قصص الشيخ عبد الوهاب

وفي ملتان حدثنا الأمير غياث الدين وهو يحثنا على الرفق والصبر، كلمة سمعها مباشرة من الشيخ عبد الوهاب، ففي إحدى محاضراته في المركز العام برايوند كان الشيخ عبد الوهاب يتكلم عن الرفق في النصح والحرص على وصول النصيحة إلى قلب المنصوح حتى يتحقق المقصد من النصيحة.

قال: منذ سنوات طوال ألقىت بيانا (محاضرة) في المركز العام،

وكان من الحضور أحد علماء باكستان يقيم معنا في رايند، وهو مولانا (مياجي عبد الله).

ومن الغد جاني وأهداني طبقاً من الحلوى، وهكذا من بعد الغد وهكذا لمدة سبعة أيام، وفي اليوم السابع قال لي بنبرة هادئة مليئة بالأدب والحب والإشفاق:

حاج عبد الوهاب، لقد حصلت منك ثلاثة أخطاء في بيانك الأخير، وهي كذا وكذا وكذا، فأرجو من فضيلتكم أن تتكرم بتصحيحها في بيانك العام القادم، ذلك لأنك رجل كبير القدر ولك أنصار ومحبون يأخذون كلامك، فربما ينتقل هذا الخطأ مع السامعين حيثما ذهبوا. قال الشيخ عبد الوهاب: كانت تلك الهدايا من الحلوى في الأيام السبعة حتى يهبي نفسيتي لقبول نصحه، مع علمه أني لا أحتاج لكل هذا، ولكنها أخلاق العلماء ونفوسهم الكبيرة الحريصة على الحفاظ على الحق مع الحفاظ على القلوب، رحم الله الشيخين عبد الوهاب ومياجي عبد الله.

أيام الاختلاط

عدنا من مدينة ملتان فكما هو الترتيب المعتاد كان علينا البقاء في المركز العام برايوند عدة أيام قبل أن يجري تشكيلنا إلى مدينة جديدة، ولكن هذه المرة قبل تشكيلنا قررت إدارة المركز أن نكون في الاختلاط لعدة أيام.

والاختلاط في ترتيب جماعة التبليغ أن تحضر هدايات يقدمها بعض المشايخ المكلفين بذلك يشرحون لك من خلالها أهمية الاختلاط بالناس والجلوس معهم، وهي في الحقيقة تدريبات على الدعوة الفردية، ففي الصباح تتلقى دروسًا نظرية وبعدها تقوم بالتطبيق في المركز مع الوافدين على رايوند من جميع البلدان، ولا بأس أن يكون معك مترجم إن احتجت له، ثم يجري في الليل تقويم حركتك خلال اليوم وهكذا، بحيث يتمرن الداعية على ممارسة الدعوة الفردية التي هي جزء مهم من دعوة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام. وكان من ضمن المدربين في شعبة الاختلاط الدكتور أمجد تشودري.

ابن رئيس الوزراء

جلست بعد صلاة الجمعة إلى ثلاثة إخوة باكستانيين، فكنا نتحدث عن أهمية الدعوة إلى الله ونضرب في ذلك الأمثال والشواهد، وكان يجلس على كرسي قريب منا شيخ يقارب الثمانين من عمره، وسيم الوجه، أبيض وقور، فرأيته ينصت إلى حديثي بشغف، وينظر إليّ وهو يبتسم ويهز رأسه، فلما أنهيت الحديث مع الإخوة أشار إليّ الشيخ بالجلوس على كرسي بجانب كرسيه، فصافحني بكلتا يديه كعادة الباكستانيين، وكانت كفاه باردتين، فلم أنزع كفي من كفيه، ورأيت في وجهه كل معاني الصفاء والصدق والإخلاص والطيبة، فكان وجهه قطعة من نور.

سألني بلسان عربي فصيح: من الواضح أنك عربي، فمن أي العرب أنت؟
قلت: من اليمن.

قال: سبحان الله، أنا أيضًا أصلي من اليمن، رحل أجدادي إلى الهند قبل أربع مائة سنة، فلما وقع الانفصال أخذنا أبي إلى كراتشي، وكان عمري حينها سبع سنوات.

قلت: إلى أي بلاد من اليمن يرجع أصل آبائك؟
قال: لا أدري، ولكن ينتهي نسبنا إلى جد يقال له (الراعي).
ثم استطرده قائلاً: أنا الدكتور أمجد تشودري.
وأبي (تشودري محمد علي) هو رئيس وزراء باكستان من عام
١٩٥٥م إلى ١٩٥٦م، وهو ضمن اللجنة التي كتبت أول دستور
لباكستان، بل هو من اختار اسم جمهورية باكستان الإسلامية لهذا
البلد حين انفصاله.

قلت له: وأنت ما عملك؟ وكيف بدأت علاقتك بالتبليغ؟
قال أنا طبيب باطني وعميد كلية الطب كراتشي إلى عام ٢٠١٣م،
تخرجت من كلية طب كراتشي ثم سافرت للدراسة في الولايات
المتحدة الأمريكية، ثم إلى بريطانيا لمدة ثماني سنوات، وفي بريطانيا
زارني عدد من الدعاة الباكستانيين، وانخرطت من حينها بالتبليغ،
وجئت لقضاء فترة في رايوند ضمن شعبة الاختلاط.
ثم سألني على أحوال اليمن، فلما أردت أن أودعه، استأذنته أن
التقط له صورة ولكنه اعتذر بلطف.

ثم علمت بعد ذلك أن هذا الرجل يأتي نهاية كل شهر فيقطع
مسافة ٢٠ ساعة بالقطار من كراتشي إلى رايوند؛ ليقوم بأعمال
الدعوة، وكذلك هو مؤسس رياض ومدارس وجامعة ابن عباس في

كراتشي وصاحبها، وهي أفضل جامعة تعتنى باللغة العربية، وتتبعه رياض ومدارس وجامعة عاتشة للطلّابات.

أخونا سمير وجماعات البیدل

الأخ سمير الجدع أحد الإخوة القائمين على المركز الرئيس للتبليغ في الحديدية، خرج معنا إلى السند فكان بحق من خيار الدعاة -ولا نزكيه على الله- فلما عدنا من السند سجل مع (جماعات البیدل) التي تعني الخروج الدعوي مشياً على الأقدام في القرى والبوادي والجبال، وقد جرى تشكيلهم إلى منطقة (صوابي) في الشمال الباكستاني لمدة خمسة عشر يوماً، وعاد منذ يومين فأخذ يقص لنا عن أحوال الخروج فقال: بعد أن وصلنا إلى منطقة صوابي بالقطار جرى توزيعنا إلى منطقة جبلية، يستخدم الناس الحمير للوصول إليها حيث لا يمكن للسيارات أن تتسلق هذه الجبال، وكانت جبلاً يغطيها الضباب من شدة البرد.

بتنا أول ليلة في مسجد إحدى القرى فلم أذق النوم من شدة البرد، فلم ينفع لحاف ولا بطانية ولا غيرها، فكنت أجلس وأقوم وأخرج وأدخل حتى شعرت أن في بطني قطعة من الثلج، وفي آخر الليل

وضع الإخوة على جسدي فراشاً كبيراً من القطن، وكنت أتذكر كم وأقول ليتني معكم في الملتان، وذات صباح خرجنا من باب المسجد فأخذ الأمير يشير إلى جبل شاهق لا يكاد يرى من الضباب ويقول اليوم لازم علينا أن نتسلق هذا الجبل حيث تسكن بعض القبائل هناك، وكنت أقول في نفسي تستحق يا سمير قد كنت مع أصحابك وتركتهم، ولكني مع الأيام اعتدت على هذا الوضع.

وخلف هذه الجبال وجدنا ثلاث قرى، وكل سكانها يرجعون إلى جد واحد، وكل قرية لا تقل عن مائتي بيت، فلمست بينهم إخاءً ومحبة وولاءً شديداً إلى درجة أن كل واحد ينادي الثاني أخي وينادون الكبير أبي، ووجدناهم في الغاية من الجود والكرم والبذل للضيف، وقد استقبلونا وفرحوا بنا وأكرموا نزلنا ووجدنا فيهم الكثير من التبليغيين والمحبين، وقد أخذونا إلى شيخ كبير لا يستطيع القيام من الكبر فسلمنا عليه وجلسنا إليه، فحدثونا أن هذا أول تبليغي منهم يخرج سنة، وأنه هو من أدخل الدعوة إلى قراهم هذه، حيث كانوا جميعاً ينتمون إلى الطائفة (البريلوية)، وهي طائفة صوفية غالية تعتقد أن الرسول -صلى الله عليه وسلم- لم يخلق من تراب ولا من نطفة، بل خلق من نور الله، وأن له قدرة تساوي قدرة الله تعالى، وأنه يسمع ويرى ويطلع على أحوال أمته، وغير ذلك من

العقائد الغريبة.

حتى جاءهم هذا بدعوة التبليغ وصبر عليهم وأُذِي في سبيل الله سنين عديدة، وبفضل الله تعالى اليوم لم يعد فيهم بريولي واحد. ثم أخذ سميير يقص لنا عن تنقلاتهم مشياً على الأقدام لمدة نصف شهر في تلك الجبال والقرى حتى عادوا مشياً على الأقدام إلى مركز صوابي ومنها عادوا بالقطار إلى رايوند.

ثم ختم كلامه ضاحكاً: من بعد الآن لن أفارقكم وسأخرج معكم ولكن أفضل أن يكون خروجنا جنوباً؛ هرباً من البرد القارس.

كلمة (مهمان) هي الرمز السري

هنا في مركز رايوند يتواجد أكثر من عشرين ألف من الأحاب كل يوم، ولكنهم لا يقيمون في المركز أكثر من خمسة أيام في الأغلب، وربما غادر بعضهم في اليوم الثاني لقدمه، فهم مثل خلية النحل، جماعات قادمة وجماعات خارجة، ولو قدر لك أن تقف على إحدى البوابات لرصدت حركة دخول وخروج مستمرة لا تتوقف ليلاً ولا نهاراً.

ومن باب تنظيم العمل تم تقسيم الناس في المركز إلى قسمين:

الأول: الباكستانيون وهم الأكثر.

الثاني: (المهمان) وهم غير الباكستانيين، وكلمة مهمان أردية تعني (الضيوف)، وللضيوف أماكن للسكن والإقامة لا يسمح للباكستانيين الإقامة فيها، بل ولا دخولها إلا في حالات ضيقة وسريعة، وهناك مطبخ وصالة طعام للضيوف وأخرى للباكستانيين بينهما أكثر من مائتي متر، بل حتى الصلاة، وبسبب ترتيبات البيانات تجد الباكستانيين يصلون في الجامع الكبير؛ لأن البيانات تلقى هناك باللغة الأردنية بينما يصلي (المهمان) في المسجد أو الصالة الأخرى وبينهما حواجز، وذلك لأن مربع المهمان فيه أكثر من عشرة كراسي للترجمة، فهنا كرسي اللغة العربية وهناك الفارسية والإنجليزية والبورمية والإندونيسية والتايلندية وغيرها.

يحظى المهمان بترحيب وتقدير من جميع القائمين على المركز، حتى الحراس يتلقونك بالابتسامات التي تشع حباً ومودة، وكذلك أحباب الخدمة والاستقبال وغيرهم، وللضيوف استثناءات في كل القرارات.

في فترة الاختلاط هذه أردت أن أذهب إلى الخياط حتى أفصل لي ثوباً جديداً، وحتى أصل إلى الخياط خارج المركز عليّ الخروج من البوابة الرئيسة، والمسافة إليه عبرها طويلة، فقلت أختصر الطريق

وأستخدم البوابة الجانبية، وهذه البوابة عليها ثلاثة حراس ومغلقة بالقفل إغلافاً دائماً، وكأنها مخصصة لبعض المهام، فلما اقتربت من البوابة وجدت ما يزيد على عشرين من الإخوة الباكستانيين يتوددون للحراس ليفتحوا لهم الباب والحراس يرفضون أشد الرفض، ويشيرون إليهم أن يذهبوا إلى إحدى البوابات الرئيسة، ولكن بمجرد أن رأني الحراس حتى تحول العبوس في وجوههم إلى ابتسامات، ومدوا أيديهم إليّ يصافحونني، وأخرج أحدهم من جيبه حلقة مثقلة بالمفاتيح وفتح البوابة مبتسماً وسمح للإخوة بالخروج من تلك البوابة، فلما خرجنا ضحك أحد الإخوة وقال بعربية مكسرة: «هم القوم لا يشقى بهم جليسهم».

ثم تكرر المشهد نفسه عندما أحضرت الثوب من الخياط بالأمس ولكن من اتجاه البوابة الخارجية.

ولقد لاحظت في مواطن عدة ما تفعله كلمة (مهمان - مهمان - مهمان) من تسهيلات واستثناءات، ولا فرق في الضيف أن يكون عربياً أو غير عربي.

ملك في المنفى

ضحى أحد تلك الأيام وقف عند رأسي الأخ مصطفى شريف فقال:

هيا انهض، واذهب معي إلى السوق أريد بعض الأشياء المهمة، فتلفت بشالي البني ونهضت معه واتجهنا إلى السوق، فأنا أيضًا لي حاجة من هناك، وما كدنا نتحرك حتى قلت في نفسي أستفيد من الوقت وأسأله عن عمل الجماعة في المغرب وكيف كانت بداياته فقال:

في مطلع الخمسينيات كان ملك المغرب (محمد الخامس) منفيًا من قبل الفرنسيين في (مدغشقر)، وكانت جماعة باكستانية خارجة هناك، فصادف أن الملك دخل يصلي المغرب في أحد المساجد التي كانت فيها تلك الجماعة، فجلس يستمع إليهم، فلما أنهموا بيانهم سألهم: من أنتم؟ وماهي دعوتكم؟

فحدثوه عن الدعوة، التي لم يكن آنذاك قد مضى على موت مؤسسها عشر سنوات، فقال لهم الملك حينها: أنا محمد الخامس ملك المغرب، سأعود من المنفى قريبًا وأتسلم عرشي، وأريد أن

تزوروا المغرب وتنشروا هذه الدعوة هناك.

عاد الملك إلى الحكم عام ١٩٥٥م تحت الضغط الشعبي في قصة طويلة من نضالات الحركة الوطنية ضد الاحتلال الفرنسي، وفي عام ١٩٦٤م وصلت أول جماعة إلى المغرب ونزلت في طنجة، ومن يومها توالى الجماعات الدعوية على المغرب، والتحقت بالتبليغ أعداد كبيرة من المغاربة، وذهب بعضهم إلى أوروبا ونشروا الدعوة هناك، بل إن كثيرًا من المراكز الدعوية في أوروبا يقوم عليها المغاربة، ولعلك تعلم قصة الإعلامي الشهير (سعيد زيانى)، الذي عرف الدعوة في زيارة له إلى بلجيكا ثم عاد إلى بلده داعية، وزار معظم دول العالم حتى توفاه الله من مدة -رحمه الله- وقد ذكره الشيخ السعودي عبدالعزيز المسند في كتابه (العائدون إلى الله).

وكان الرجل الثاني في الدعوة هو أبي (شريف جنفودي) من وجدة، وقد قضى أكثر من أربعين سنة في الدعوة إلى الله، وزار معظم الدول الأوروبية والكثير غيرها.

والمركز الرئيس للدعوة يقع في الدار البيضاء، وكان يقام فيها الاجتماع السنوي الذي يحضره عشرات الآلاف، ولكن هذا الاجتماع نقل مكانه إلى مدينة (البئر الجديدة) التي تبعد ثمانين كيلو عن الدار البيضاء، وسبب نقله هو الفنان (عبد الهادي

بلخياط) مغني الملك الحسن الثاني، الذي اهتدى لهذا الجهد وفرغ نفسه للدعوة ولا يزال، وتنقل في الكثير من دول العالم وتبرع بهذا الميدان ليكون محلاً للاجتماع السنوي.

أكمل صديقي المغربي حديثه وقد وصلنا عند المغسلة (الدوبي)، ولكن تبين لي أي نسيت ورقة الملابس، ورفض الدوبي أن يعطيني ملابسي إلا بالورقة، ثم اتجهنا إلى محل الصرافة ليستلم صديقي حوالة له من المغرب، وعند البوابة تبين له أنه نسي بطاقته أيضاً، فكان علينا أن نعود أدرأنا إلى المركز.

في بور سعيد

كان بيان بعد العصر للعرب عند الشيخ إحسان الحق، وقد حدثنا عن أول خروج دعوي له إلى بلاد العرب، وكان ذلك عام ١٩٦١م.

الشيخ إحسان الحق شيخ هرم قد بلغ من الكبر عتياً، وهو عضو مجلس الشورى العالمي للجماعة، وأبوه هو الشيخ بشير مؤسس مركز رايوند، وأمير الجماعة في باكستان منذ انفصال باكستان حتى توفاه الله عام ١٩٩١م.

والشيخ إحسان الحق رغم كبره وعجزه عن المشي إلا بصعوبة

بالغة وبمساعدة رجلين وأغلب حركته بالكرسي المتحرك؛ إلا أنه ما زال إلى الآن أستاذًا في جامعة رايوند، فهو عالم ابن عالم وداعية ابن داعية.

والليلة بعد أن صلينا العصر جيء بالشيخ حتى أجلس على كرسي المحاضرات الخاص بالعرب، فبدأ بحمد الله والثناء عليه وكان يتكلم بصوت أنهكته عشرات السنين، ثم قال:

الأحباب اليمينيون يرفعون أيديهم، ورفع عدد لا بأس به من الحضور أيديهم، ثم قال أحباب مصر، ثم أحباب الصومال، وأحباب الجزائر، ثم توقف عن الكلام قليلاً، وأخذ ينظر في العدد الكبير من العرب الذين اجتمعوا لسماع البيان، ثم قال: في عام ١٩٦١م كان أول خروج لي إلى بلاد العرب، الذي استمر عامًا كاملاً، حيث انطلقت سفينتنا من كراتشي حتى أرسدت في ميناء بور سعيد بمصر، كنا مجموعة كلها من باكستان، وكنت أنا أصغر الخارجين، وبدأنا التجول في مصر من القاهرة إلى المحلة الكبرى والدقهلية وغيرها مما لا أتذكره الآن، وقضينا في مصر أربعة أشهر، وكنت أسمع المصريين يقولون كلمة (عايز إيه) فلما عدت إلى باكستان بحثت عنها في المعاجم فلم أجدها، وهم يقصدون (ماذا تريد)، وبعد مصر انتقلنا بحرًا إلى جدة ومنها إلى مكة فأدينا فريضة الحج، وبعد الحج

أبحرنا إلى فلسطين ونزلنا في المسجد الأقصى، وتجولنا في القدس ندعو الناس إلى الله تعالى، وقد صلينا في المسجد الأقصى ثلاث جمع، ثم انطلقنا إلى بقية بلاد الشام وقضينا فيها مدة، ثم خرجنا إلى العراق فنزلنا بغداد والبصرة وغيرها، وكانت خاتمة رحلتنا إلى بلاد العرب، فلما أنهينا حوّلًا كاملاً أبحرنا إلى كراتشي، ومن كراتشي سافرنا إلى الهند؛ لزيارة أمير الجماعة الشيخ يوسف - رحمه الله. أنهى الشيخ حديثه عن رحلته إلى بلاد العرب، ثم أبدى سعادته باهتمام العرب اليوم بالدعوة، ووجود العشرات والمئات بشكل يومي في باكستان وبانتشار مراكز التبليغ في معظم البلاد العربية، وأنهى لقاءه بحث العرب على حمل رسالة الإسلام والتضحية في سبيلها وبذل الغالي والنفيس، وختم كلامه بقوله للعرب: هذه بضاعتكم ردت إليكم.

الشاعر سعدي شيرازي

مما سمعته من الشيخ خورشيد في أحد البيانات في فترة الاختلاط
هذه القصة:

قام أحد أعيان شيراز بعمل وليمة كبيرة، دعا إليها عليّة القوم

ووجهاءهم وكان من ضمن المدعوين الشاعر سعدي شيرازي، فذهب إلى الوليمة بثياب بسيطة مما يلبس عامة الناس، فلما اقترب من القصر أوقفه الحارس ومنعوه من الدخول إلى الحديقة ومنها إلى القصر، فقال للحارس: أنا مدعو للوليمة؛ ولكون الحارس لا يعرفه منعه من الدخول دون أي تفاهم، فاضطر للعودة إلى البيت ليغير ثيابه، فلما عاد بثياب حسنة غالية مر بجانب الحارس دون أن يسأله الحارس عن اسمه، واستقبله صاحب البيت والوجهاء وقد علموا بقصة الحارس، فلما قدمت المائدة وبدأ القوم في تناول الطعام أخذ الشيرازي قطعة من اللحم فوضعها في جيبه وهكذا حتى حشاه باللحم، وحشا جيبه الآخر بالخبز والثالث بالأرز والرابع بالفاكهة ولم يذق لقمة، فلما رآه القوم تعجبوا منه وصرخوا في وجهه: هل جنت ما الذي تفعله؟

فقال: أنتم دعوتم ثيابي إلى الوليمة ولم تدعوني أنا، ولهذا لا بد أن تطعم ثيابي من وليمتكم حتى تشبع.

هل هو حضرمي؟

أخذت ملابسي المتسخة وانطلقت إلى السوق لأتركها في المغسلة عند (الدوبي)، ومنها أذهب إلى الحلاق فأحلق شعري وأصبغ هذا الشيب، وفي طريقي إلى هناك وبين زحمة الذاهبين والراجعين، سلم عليّ شاب باكستاني متجه مثلي إلى السوق، وأخذ يكلمني بلسان عربي فصيح، فأدركت أنه من خريجي المدارس الدينية، الذين يسعدهم أن يظفروا بعربي يحادثونه ليزكوا بحديثه لغتهم العربية. أخذنا نتحدث ونحن نسير إلى السوق، فلما قطعنا نصف مسافة الطريق قال: أنا أخوك في الله (هلال رحماني) من كراتشي، أستاذ في الجامعة الدينية وأحمل درجة (مفتي)، استكملت خروج سنة ولم تبق معي سوى ثلاثة أيام.

فقلت: أخوك في الله ناصر الوليدي من اليمن، فلما قلت (من اليمن) وقف وصرخ: أنت يميني؟ ثم طوقني بذراعيه واحتضنني وأخذ يضميني إلى صدره بقوة وهو يقول: حياك الله، حياك الله... ثم قال: أنا أصلي من اليمن، جاء أجدادي إلى إقليم أركان جنوب تايلند منذ قرون، ثم هاجر أحد أجدادي إلى الهند، ولما انفصلت

باكستان عن الهند هاجرنا إلى كراتشي.

فقلت له: إذن أنت حضرمي!!

قال: وكيف قدّرت ذلك؟

قلت له: لسببين:

الأول: أنها حصلت موجات هجرة للحضارم إلى جنوب شرق آسيا منذ عدة قرون، وانتشروا هناك ولايزالون في إندونيسيا وماليزيا وبروناي وتايلند وغيرها.

الثاني: سحتك ولونك وهيئتك وملامحك تتطابق تمامًا مع الإنسان الحضرمي.

ثم وجدته فرح بهذه المعلومات فرحًا شديدًا، فلما وصلنا عند المغسلة وناولت الدوبي ثيابي تكلم معه بلغته الأردية، فرفض بعدها الدوبي أن يأخذ مني أجره عمله، وكأن صاحبي تعهد له بأن يدفعها هو لاحقًا، ثم قال: تعال لنكمل حديثنا في المطعم على كأسين من الشاي، فولجنا أقرب مطعم فبكلمتين من صاحبي للجرسون قدم لنا فطورًا فاخرًا فأكلناه ونحن نتحدث.

وبعد خروجنا من المطعم ودعته خشية أن يمشي معي إلى الحلاق فيدفع أجره الحلاقة.

وقبل أن يفارقني قال: أريد أن ألقاك كل يوم حتى أسافر، ستجدني

دومًا في المسجد عند العمود رقم (٤٠).

نسمات من سلطنة عمان

شاء الله تعالى أن يكون مقامنا أنا والشيخ أبو بكر مدة أيام الاختلاط في الدور الثاني بجانب ثلاثة إخوة من سلطنة عمان، فوجدناهم كما وجدنا الإنسان العماني غاية في اللطف والكرم والشهامة وحسن الأخلاق، وشعرنا أنهم فرحوا بنا كثيرًا، وكانوا دومًا يسألوننا عن الأوضاع في بلادنا والفتنة التي تعصف بها. ومن كرم هؤلاء الإخوة أنهم جعلوا للأحباب من حولهم سفرة دائمة لا تخلو من الفاكهة والتمر والقهوة والشاي، حتى إنهم هم بأنفسهم من يطبخ الشاي والقهوة ويجهزونها ليل نهار، إلى درجة أنك تنهض قبل الفجر وتجدهم قد وضعوا على السفرة الشاي والقهوة الساخنة.

وقد قال لي أخي أبو عبد الله العماني يومًا: تصدَّق يا أبا زين أن حركتنا الدعوية نشطت بسبب الأحداث في اليمن، ذلك أنه غشينا الكثير من الفتن الدعوي، فلما وجدنا اليمنيين رغم حالة الحرب التي يعيشونها وأيضًا يضطرون عند سفرهم للمرور على عمان

فنستضيفهم حتى نرتب سفرهم فنراهم نشطين في الدعوة مع فقرهم وأوضاعهم وهذا حفزنا على أن نبذل المزيد من الجهد مع استقرار بلادنا وحسن أحوالنا المادية.

وكنت كثيراً ما أجلس إلى أخي أبي عبد الله الذي أحببته؛ لحسن خلقه وطيبته، وصدق حديثه، وحلاوة منطقه، فكان يحدثني عن رحلاته الدعوية في أوروبا وإفريقيا وأستراليا، وقد كانت آخر خرجاته الدعوية إلى هولندا فكان يقص لي منها أحاديث شيقة.

هولندا والعدل العمري

الشيء الذي لفت نظري في حديث أبي عبد الله هو حديثه عن العدل والتناصف والرحمة والتفاني الذي تقوم به الدولة الهولندية في خدمة الشعب الهولندي إلى درجة جعلته يكرر كلمة الإمام محمد عبده: «وجدت إسلامًا بدون مسلمين».

كحديثه عما تقدمه الدولة لذوي الاحتياجات الخاصة، إلى درجة أنها خصصت سيارات مجهزة ميكانيكاً وإلكترونياً مع تجهيز كامل بالسائقين والموظفين المختصين، فلا يحتاج المعاق غير إرسال رسالة على الجوال ليجد السيارة واقفة عند باب بيته تأخذه حيث

يريد.

ومما رواه لي متعجباً أن أحد التبليغيين الهولنديين من أصل عراقي مرض جاره التبليغي فأخذه إلى المستشفى وكان يجلس معه في المستشفى نهاية دوامه، وفي نهاية الشهر يتفاجأ العراقي أن الدولة صرفت له مكافأة قدرها ألف يورو؛ لأنه استقطع شيئاً من وقته لخدمة مواطن هولندي، وقد زار الأحاب هذا المريض بصحبة الأخ العراقي بعد خروجه من المستشفى.

ومما اطلع عليه أيضاً أن الحكومة قررت إزالة حي سكني بالكامل وإعادة بنائه؛ لأن البناء بدأت تظهر عليه بعض التشققات، ولكنها قبل ذلك أنزلت جميع السكان في حي آخر أجمل من حيهم، وبعد أن جهزت الحي الأول خيرت السكان، فمن أراد أن يعود إلى حيه الأول فليعد، ومن طاب له المقام في الحي الثاني فله الخيار.

وحدثنا عن الحليب البقري الطازج الذي يوزع للمواطنين مجاناً، وعن الرعاية الصحية والتعليمية والخدمية.

وكان يقص لنا بحضرة الدكتور أمجد تشودري، فذكر الدكتور حينها كلمة لابن تيمية تقول: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ويدمر الدولة الجائرة وإن كانت مسلمة».

ثم أضاف الدكتور أمجد: إن هذا الذي يقومون به هو

السياسة العمرية التي كان يسوس الناس بها عمر بن الخطاب
-رضي الله عنه.

قدر مقدور

حدثني أيضًا أبو عبدالله عن رحلته إلى هولندا هو وعدد من
الدعاة بصحبة زوجاتهم الداعيات، ولمست من حديثه الجهد
العظيم الذي يقوم به المسلمون في دعوة الأوربيين إلى الإسلام،
وقد أخبرني أنه زار هولندا وإسبانيا ووجد أن الجهد الدعوي هناك
يقوم على أكتاف الدعاة المغاربة، ومن ذلك أن الإخوة المغاربة هم
من أسس أول مسجد ومركز للتبليغ في هولندا، حيث إنهم اشتروا
كنيسة هجرها أهلها بسبب عزوف الهولنديين عن الدين، فاستطاع
هؤلاء الإخوة بجهودهم الخاصة أن ينقلوا ملكية هذه الكنيسة إليهم
ويجعلوها مسجدًا ومركزًا للتبليغ يقيمون فيه الصلوات والجمع
والأعياد والدروس واللقاءات الدورية والاجتماعات الدعوية
ويتحركون من خلاله في هولندا للدعوة إلى الإسلام.
وقد نزل أبو عبد الله ومن معه في هذا المركز وانطلقوا منه في
الأراضي الهولندية.

ومما حدثني به أنهم كانوا يوماً متجهين إلى زيارة بعض الدعاة هناك وكانت معهم زوجاتهم بلباسهن الإسلامي المعروف، وحين وصلوا إلى باب هذا الداعية مرت بالقرب منهم سيارة يقودها شاب هولندي من أصول باكستانية، وكانت معه زوجته الهولندية من أصول تركية، فلما رأهم اقترب منهم ثم وقف عليهم وقال هل تسمحون لزوجتي أن تدخل مع زوجاتكم؟

قال فرحبنا بهما وأدخلناهما معنا وكانت زوجته متبرجة تلبس ثياباً إلى نصف فخذيها ويظهر منها كتفاها وأعلى صدرها، فدخلت مع النساء وأدخلنا زوجها معنا في غرفة الرجال، وقد تحدثنا إليه فأخبرنا أنه لا يزال مسلماً يقيم الصلاة، وأخذ يشكو من زوجته أنها لا تصلي، وتشرب الخمر وترفض الحجاب، ولكنه يحبها حباً جماً، وكانت بينهما قصة حب تكلمت بالزواج، فنصحناه بالاجتهاد في العمل الصالح والذهاب إلى المركز والصبر على زوجته ودعوتها بالحسنى.

ولكن على الجانب الآخر من البيت حصل ما لم يكن في الحسبان: لقد اجتهدت الأخوات مع زوجته وأثرن فيها تأثيراً كبيراً حتى إنها وعدت أن تحافظ على الصلاة وتلبس الحجاب الشرعي وتحافظ على حضور الدروس في المركز، ثم إنها عندما أرادت مغادرة المنزل

إلى سيارة زوجها قالت: لا أستطيع الخروج إلى الشارع وأنا هكذا عارية، أرجو أن تعرنني ثيابًا ساترة وحجابًا شرعيًا حتى أشتري من السوق، فما كان من الأخوات إلا أن قدمن لها هدية (حجابًا شرعيًا وعددًا من الملابس الساترة).

قال أبو عبد الله: فلما خرج زوجها لم يكذب يصدق ما رأت عيناه فأخذ يعانقنا والعبرة تخنقه، ثم كنا نراه هو وزوجته المحجبة في اجتماعات المركز مدة بقائنا في هولندا.

الهولندية وصديقتها المغربية

ومن أعجب ما حدثني به أبو عبد الله:

أنها أسلمت على أيديهم شابه هولندية، فكانت تحافظ على زيارة المركز وتتلقى بعض الدروس عن الإسلام، ثم أخبرتهم أن لها صديقًا مغربيًا مسلمًا، ومع ذلك لم يدعها يومًا إلى الإسلام، ولم تره قط يصلي أو يصوم أو يقرأ القرآن الكريم، وأنه الآن يقبع بين جدران السجن بسبب إدمانه المخدرات.

ثم إنها كانت تذهب لزيارته إلى السجن بحجابها الشرعي، وأخبرته أنها اعتنقت الإسلام، وكانت تأخذ له بعض الهدايا

والكتيبات الإسلامية، وتطلب منه المحافظة على الصلاة وتلاوة القرآن الكريم، وبسبب ذلك تحسن حاله كثيراً؛ مما عجل بخروجه من السجن والتحاقه بالمركز الدعوي وحضوره الجمعة واللقاءات الدعوية، ثم تزوج صديقته الهولندية هذه.

ثم إن هذه الأخت الهولندية سعت لدعوة أبويها المسيحيين إلى الإسلام، وحاولت رأب الصدع بينهما؛ إذ كانا مطلقين، واجتهدت في خدمتهما وبرهما والإحسان إليهما، فكان أبوها يقول لها دوماً: «أي دين عظيم هذا يا ابنتي الذي اعتنقته فجعل منك هذه الفتاة العظيمة!»، وكان يعدها بالدخول في الإسلام.

رحلة عماني إلى جمهورية بورندي

ومما حدثني به أبو عبد الله العماني قصة خروجه منذ سنوات للدعوة إلى الله مع عدد من الأحباب إلى بورندي في قارة إفريقيا فقال: كان خروجنا لمدة شهرين، وقد تقرر أن نقضيها كلها في بورندي حسب ترتيب المركز العام في السلطنة، وكان معنا في الخروج الأخ (أ.م) وهذا الأخ عماني ولكن أصوله إفريقية وبالضبط من بورندي، وصلنا العاصمة وتجولنا فيها مدة ثم شكّلنا إلى منطقة

في الجنوب فنزلنا المركز هناك وبقينا عدة أيام وانتشر خبر وجودنا في تلك المنطقة.

وذات يوم وقفت امرأة نصرانية عند باب المسجد، وطلبت من أحد الداخلين أن ينادي لها أمير الجماعة العمانية، فلما خرج عليها أخبرته أنها نصرانية، وأن لها قرابة رحلوا إلى عمان في الزمن الغابر، فهي تسأل عنهم لعل أحداً منكم يعرفهم، قال: فقلت لها: نعم معنى الأخ فلان من أصول بورندية سأناديه فلعله يعرف قرابتك، فناديته وأخذا يتكلمان ويتذاكران حتى تبين أنهما قريبان، فهذه المرأة الواقفة على الباب هي قريبة الأخ أنور، وكانت المفاجأة كبيرة واللحظة مؤثرة.

ثم انصرفت وقالت سأتيكم غداً، ومن الغد جاءت مع بعض إخوانها وقرابتها وكانوا يقيمون في قرية خارج المدينة وكانوا جميعاً نصاري، فأنزلناهم غرفة في طرف المسجد وأكرمناهم، ثم طلبوا منا زيارتهم إلى قريتهم فوعدناهم بذلك وقلنا لهم: بعد ثلاثة أيام أرسلوا لنا من يأخذنا إلى قريبتكم، وفي اليوم الموعد انطلقنا إلى هناك يصحبنا رسولهم إلينا، واستقبلنا معظم من في القرية بالترحاب وذبحوا لنا عجلًا وأكرمونا وطلبوا منا البقاء في قريتهم أيامًا، وفي اليوم الأول أسلمت قرية أخين أنور وجميع أهل بيتها، وفي اليوم

الثاني حبزنا مكانًا بجانب بيتهم ونصبنا فيه بعض الأخشاب والقصب واتخذناه مسجدًا وبدأنا نؤذن فيه ونصلي ونقيم حلقات التعليم ونعلم المسلمين الجدد، وكان يجتمع حولنا أهل القرية وندعوهم إلى الإسلام ولا يمر يوم إلا ويسلم فيه عدد منهم حتى أسلم معظم من في القرية، فأرسلنا إلى العاصمة أن يوافقونا بأحد الدعاة من حفظة القرآن الكريم حتى نجعله إمامًا ومعلمًا للقرية، ولم نغادر القرية إلا وقد تركنا فيها مسجدًا وإمامًا، ثم ودعونا وهم يكون.

فلما عدنا إلى عمان عرضنا الموضوع على الإخوة في السلطنة، فجمعنا تبرعات وأرسلنا إليهم أخانا أنور فبنى لهم مسجدًا ومدرسة تحفيظ القرآن الكريم وبيتًا للإمام، فلما زارهم وجد جميع من في القرية قد اعتنقوا الإسلام، وما زلنا متواصلين معهم إلى الآن، وقد أصبحت معهم مدرسة دينية فيها عدد من المدرسين.

إلى مدينة جهنغ

بعد الاجتماع تقرر تشكيلنا إلى مدينة (جهنغ).

كنا خمسة يمينين، أنا والشيخ أبو بكر بلفقيه - رحمه الله - ورشيد عبد، ومحمد السعدي، وسمير جدع، وعدد من الباكستانيين أولهم أمير الجماعة وهو الدكتور عرفان وهو جراح عظام من لاهور، وابن أخته تابش، والمترجم حفيظ الله، والمترجم الآخر عبد اللطيف الكشميري، وأويس السندي، وحمزة، ورحمن غول.

وقبل صلاة الظهر حزمنا أمتعتنا مع حافلة نقل جماعي، وقد تعمدت الجلوس بجانب حفيظ الله لإتقانه العربية حتى يُعرّفني على الطريق.

حينما تنطلق بك السيارة في إقليم البنجاب فهذا يعني أنك تخترق الزروع والكروم والثمار والأنهار، فتمتع ناظريك بمناظر بهيجة تنعش وجدانك وتبث في روحك عطر الحياة، وكلمة بنجاب هي في الأصل مركبة من جزأين (بنج - آب) وتعني (الأنهار الخمسة)، فأنت ترى الأنهار والسواقي والترع طول مسافة الطريق، وتمر مركبتك على جسور يمر تحتها نهر (راوي) العظيم وإخوانه.

مع زخات مطر خفيفة ونسمات تحمل رائحة الأشجار والأزهار والحشائش.

وقفت الحافلة في الطريق، وهناك صلينا صلاة الظهر والعصر جمعًا وقصرًا، بينما يصلي إخواننا الأحناف كل صلاة في وقتها قصرًا.

ومع هبوط الليل وقفنا في مدينة فيصل آباد، وهي مدينة كبيرة وجميلة وحديثة، وكانت واجهات المولات والمعارض الكبرى تقف على جانبي الطريق. وهذه المدينة ثالث كبرى المدن الباكستانية، ويزيد سكانها على ثلاثة مليون نسمة، تأسست حديثًا، وهي مدينة صناعية، وكان اسمها (ليالبور) حتى غُيّر اسمها إلى فيصل آباد؛ تيمناً بالملك فيصل بن عبد العزيز، وفيها تقع جامعة الحسين التي أسسها ويديرها الشيخ طارق جميل، وقد زرت المدينة وجامعاتها فيما بعد وقضيت فيها ثلاثة أيام، وكانت لنا فيها ذكريات وأحباب.

وفي ليل البنجاب البارد كانت تظهر لنا أضواء المدن المتناثرة على طول الطريق وكأنها النجوم اللامعات في كبد السماء، وبعد حوالي ست ساعات وإلى الغرب من مدينة فيصل آباد ولجنا مدينة جهنغ، وفي شوارعها الضيقة تعرجت حافلتنا حتى أنزلتنا في المركز العام

للدعوة والتبليغ في طرف المدينة. ويبدو أنه مركز للمدينة والمدن والقرى المجاورة؛ حيث تجد فيه الجماعات ذاهبة وعائدة وخارجة وداخلة وكأنه خلية نحل. وكان البرد شديداً مع ريح باردة تزيد من وطأة البرد القارس، وصلينا المغرب والعشاء جمع تأخير، وأخذونا إلى غرفة الضيوف، ولم يكن لي هم إلا الجلوس إلى السخانة التي تعمل بالغاز، فجلست إليها حتى شعرت بشيء من الدفء، وخرج أصحابي لسماع درس في المسجد، أما أنا فقد آثرت الجلوس إلى المدفئة في ليل جهنغ القارس.

الطفل القندهاري

كان البرد في مدينة جهنغ شديداً، وكانت النار هي خير متاع، لم أذق حنان النار إلا تلك الليلة، كانت المدفأة هي معشوقتي الفاتنة، رأيت فيها أكثر مما رأى قيس في ليلى، وجميل في بشينة، وروميو في جوليت، شعرت بأمومتها وعطفها عليّ، يخيل إليّ أنّها تضمّني بجناحيها الدافئين، وذرات حرارتها تتسلل إلى جسدي حتى تستقر في عظامي؛ فتشعرنى بالسعادة والعافية والانتعاش.

هيه يا مدفتتي الجميلة! كم يطيب لي معك السمر في هذا الليل

القارس!

كان البرد يهز الستارة التي تغطي الباب؛ فتدفق موجات من البرد غضبى وكأنها لعنات الشياطين، ولكن أنى لهذا العاشق أن ينشغل بغير سميرته، وكلما هزت دفقات البرد الباب كانت مدفتي تبسم هازئة فترسل موجات دفئها بين ثنايا وجهها الجميل، كنت أناجيها وحدي في غرفة الضيوف، ولم يقتحم عليّ خلوتي تلك إلا ثلاثة من شباب أفغانستان، يبدو أنهم وصلوا للتو من منطقة بعيدة، إنهم مثلي يلتمسون الدفء في ليل جهنغ الغاضب.

جلسوا عن يميني وشمالي حتى أحطنا بالمدفئة كما يحيط الأطفال بأمهم في ليل الصحراء البارد.
- (نحن من أفغانستان)

ياااه! ماذا أثارت هذه العبارة من شجون.

أفغانستان؟!

وكأنني أبحث عن بقايا حلم أو بقايا ذكريات أو بقايا أطلال من أمل فقدته كما يفقد الأطفال الضعفاء أباهم وتسلمهم الحياة لليتم والفقير والعوز.

قفزت إلى ذاكرتي بقايا أناشيد الجبال، كانت لنا هناك آمال جرفتها عواصف الثلج وطمرتها سنون الانتظار.

أفقت على اهتزاز الباب وهو يحاول مقاومة موجات البرد العنيدة،
فرايت مدفتي تغني معي أغاني جهاد ذهب إلى أدراج الذكريات،
وحولي فنية من قندهار ينفخون في أيديهم؛ طلباً للحرارة وكأنهم
ينفخون رمالاً زحفت على حلمي الجميل.

- (هل أنت عربي؟)

نطق أحدهم بعربية مكسرة وبسمته الجميلة تعانق موجات الدفء
المتصاعد من بين ضلوع المدفئة.

ذهبت إلى الضفة الأخرى وأطلت في ذاكرتي عشرات السنين.

نعم أنا عربي إلى قحطان أنتسب.

قحطان؟ عدنان؟

رباه رحماك بقومي فقد رمتهم الأمم عن قوس واحد ونبت فيهم
مليون أبي رغال.

يا إلهي! ماذا يجري لوجداني الليلة؟

عليّ أن أكلّم هؤلاء الفتیان لأهرب من أسر الوجدان والذكريات.

- مرحبا بكم أيها الإخوة الأفغان، من أي مدينة أنتم من كابل أو

من قندهار أو هيرات أو قندوز أو مزار شريف أو كونر أو جلال

آباد؟

هل أنتم من البشتون أو الطاجيك أو الأوزبك؟

- ما شاء الله، يبدو أنك تعرف أفغانستان، هل خرجت في تشكيل إليها؟

- لا، لا أعرفها ولكني سمعت عنها، ولكن لم تخبروني من أي مدينة أنتم؟

- نحن من قندهار مدينة المدارس الدينية.

كان اهتزاز الباب يغازلنا بين الفينة والأخرى، وصوت الشيخ يصل إلى أسماعنا متقطعاً من داخل المسجد.

كان المتكلم أصغر الثلاثة، فتىً أبيض تعلوه حمرة البشتون، وله عينان كحلاوان ولحية شديدة السواد، وكان يلف رأسه بعمامة شديدة البياض.

- من أي بلاد العرب أنت؟ من مكة؟

- لا.. لست من مكة وإن كان قلبي يطوف حول كعبتها، أنا من اليمن.

- من اليمن؟ أنت يميني؟

أخذوا يتسمون وينظر بعضهم إلى بعض بفرح ثم مدوا أيديهم يصافحوني من جديد، وأخذ الفتى يدي ووضعها بين يديه وضمها إلى صدره بين ثيابه الكثيرة ثم رفعها إلى فيه ليلثمها عدة لثمات، ثم رفع إليَّ عينين لامعتين فقال:

أنا أسكن في قرية قريبة من قندهار وقد شهدت هذه القرية الكثير من المعارك أيام الغزو الروسي لبلادنا، كنت حينها طفلاً، وما زلت أتذكر ذلك اليوم الذي وصلت فيه الاشتباكات إلى أزقة قريتنا، كنت أتابع المشهد من فتحة في أعلى البيت، كان هناك شاب عربي يحتمي بمتراس قرب بيتنا، تسمرت عيناى عليه وهو يرمى الأعداء بوابل من الرصاص ثم يعود إلى متراسه غير مبال، تمنيت حينها أن يكون لي رشاش مثل رشاشه ومتراس مثل متراسه وأعداء مثل أعدائه، كان أبى وأمى ينزلانى من موقعى خلف الجدار ثم أستغفلهما وأعود لمشاهدة ذلك العربى وبنديته التى تزمجر كأنها أسد فى غابة كثيرة السباع، كنت أنظر إليه والرصاص يحيط بمتراسه من كل جانب ثم رأيتة ينزف دمًا على أحجاره وقد سقطت البندقية من يده وتمددت بجانبه.

وفى صباح الغد خرجت مع أمى وأبى تحت مطر خفيف للنظر إلى ما خلفته الاشتباكات، فرأيت صاحبى ممددًا هادئًا وقد تضررت جبهته وبنديته بدمه، فأحضرت أمى رداء كان يلبسه أبى للبرد فلفوا الشاب فيه، وبمساعدة بعض جيراننا حملوه إلى مقبرة العرب، كان أبى وجاراي يحملانه وأمى تقودني خلفهم، تحمل وعاء فيه قليل من الماء حتى دفنوه هناك بين الكثير من القبور، فأخذت أمى ترش

قبره بالماء وكنت أتناول بكفي الصغيرتين شيئاً من الماء وأضعه على قبره، لا أدري لماذا نرش قبره بالماء رغم أننا تحت المطر، لعلها عادة لم نرد أن نحرم منها ذلك الفتى العربي. أنهى الفتى القندهاري قصته ليثير تلك الشجون القديمة، فوجدتني أقلد الأفغان فأنفخ في كفي لأطرد منها غبار تراب ذلك القبر الذي دفنت فيه الكثير من أحلامنا الجميلة.

ومن أوغندا الخبر اليقين

بتنا ليلتنا في المركز العام وبعد الفراغ من صلاة فجر اليوم الثاني جلس بجانبني الشاب الباكستاني (رفيق)، وكعادة التبليغيين في التعارف أخذنا نتبادل الحديث، فتبين أنه ما زال قادمًا من أوغندا حيث قضى هناك سبعة أشهر داعية إلى الله تعالى، فكان له هذا الحديث:

اسمي رفيق من البشتون، أعمل في المملكة العربية السعودية بجدة، وعملي سائق (تريلاً)، وقد أخذت إجازة سنة من العمل حتى أخرج دعوة إلى إفريقيا، والحمد لله تحقق هديني وخرجت إلى أوغندا وقضيت هناك سبعة أشهر تجولت خلالها في ثلاث

محافظات وهي: (كامبالا ومويندي ومتيانة)، كانت جماعتنا مكونة من تسعة أحباب، فنزلنا في المركز العام للجماعة في العاصمة كامبالا ووجدنا هناك ست جماعات قد سبقتنا للوصول إلى أوغندا: مجموعة مصرية، وشامية، وبنغالية، وهندية، ومجموعة عربية من عرب الجزيرة يمنيون، وقطريون، وسعوديون.

وفي العاصمة زرنا مدرسة الشيخ فيصل الأوغندي وهو خريج جامعة دينية في كراتشي، وفي مدرسته أكثر من مائة وخمسين طالبًا وطالبة، ومدرسته تتبع الجماعة.

بعد أن أنهينا خروجنا في العاصمة جرى تشيكلنا إلى (متيانة)، وهناك وجدنا (الشيخ شعيب الأوغندي) وهو خريج من جامعة لاهور الدينية ويدير مدرسة هناك فيها أكثر من مائتي طالب وطالبة وهي أيضًا تتبع الجماعة، ثم قمنا بالتجوال في المساجد والأسواق، وبحمد الله تعالى وجدنا كثيرًا من المسلمين الذين تفاعلوا مع جهدنا وخرجوا معنا بل أسلم بعض النصاري، وقد ذهبنا إلى منطقة بعيدة تتبع هذه المحافظة فخرجنا نبحث عن المسلمين ولم نجد مسلمًا واحدًا. وذات يوم خرجت إلى السوق أسأل عن أي وجود للمسلمين فأخبرني رجل أن هناك مسلمًا واحدًا يعيش في قرية بأعلى الجبل تبعد عنا ثلاثة كيلو، فقلت له: هل تستطيع أن تأخذني

إليه وأعطيك أجرتك، فانطلقت معه مشياً على الأقدام حتى وصلنا قمة الجبل عند بيته، فأخذ رفيقي الأوغندي يناديه، فلما فتح الباب ورآني هرع نحوي وأخذ يحتضنني ويبكي ويقول: (مسلم باكستاني. مسلم باكستاني)، وأراد أن يدخلني بيته فاعتذرت له وقلت له: هيا بنا الآن، الأحباب ينتظروننا. فقال: أمهلني قليلاً حتى أغتسل وأغير ثيابي، فدخل وغير ثيابه ثم هبطنا من الجبل حتى وصلنا المدينة، وما إن دخلنا السوق حتى سمعت صوتاً ينادي: يا مسلمون، يا مسلمون، فإذا شاب أسمر يهرع إلينا ويسلم علينا بشدة ثم قال: أنا نصراني أحب الإسلام أريد أن أجلس إليكم، فأخذه معي إلى الأحباب وهناك اعتنق الإسلام، ومن الغد أخذني إلى بيته حتى أقنع زوجته بالإسلام فما لبثت زوجته حتى أسلمت مع أبنائه الأربعة. ثم انتقلنا إلى منطقة (موبندي)، وهناك تجولنا في المساجد والأسواق والقرى والجبال وشكلنا عددًا من المسلمين وأسلم بعض النصارى، فلما أنهينا المدة المقررة عدنا إلى العاصمة؛ استعدادًا للسفر إلى باكستان، فنظرنا في حصيلة خروجنا فكان بفضل الله تعالى:

إسلام ثلاثين رجلاً وأربع نساء.
وتشكيل مائتين واثنين من المسلمين.

وما زالت الجماعات تغادر وتصل إلى المركز العام حتى غادرنا البلاد.

يا يميني

في المركز العام للتبليغ هناك العشرات من الجماعات التي تجيء وتسافر إلى رايوند بعضهم أنهى تشكيله ومنهم من بدأه.

خرجت قبل صلاة الظهر اليوم الثاني إلى باحات المركز بحثاً عن دفء الشمس في هذا البرد القارس، ومن وسط الزحام أسمع صوتاً ينادي: يا يميني، يا يميني.

فتوقفت واتجهت إلى الصوت فرأيت شاباً أسمر أمامه شاي فقلت: هذا ما نبغي، شاي سليمان يطرده برودة الجو، فأقبلت نحوه وقبل أن أصفحه أو أسلم عليه قلت: معك سليمان وإلا لا تكلمني، فضحك وقال: اجلس اجلس سيأتي السليمان، فقلت ضاحكاً: الآن يمكن الجلوس والحديث.

فإذا به يكلمني بلهجة عدنية، ثم قال: أنت من عدن؟ قلت: نعم. قال: أين بالضبط؟ قلت: جولة السفينة. فهل تعرف عدن؟ قال: أنا صومالي كما تلاحظ من هيتي، كنت في عدن بمنطقة

البساتين وأعمل في جولة القاهرة، ولكنني غادرت عدن قبل سنوات الحرب وعدت إلى مدينتي مقديشو.

قلت: وكيف قدمت من الصومال؟

قال: بالطائرة فالمطار أعيد تأهيله وفتحه، وأنت ألم تأت عبر مطار عدن؟

فقلت: لو كنت تعرف اليمن احسب المسافة: انطلقنا من عدن إلى سيئون ومن سيئون إلى شحن ومن شحن إلى صلالة ومن صلالة إلى مسقط كل هذا براً.

قال: ومطار عدن ألا يعمل؟

قلت: ليتكم تبادلونا بالمطارات والطائرات... ثم استدركت وقلت: بإذن الله سيأتي الزمان الذي تكون فيه عدن مثل مقديشو فنحن متفائلون رغم قتامة المعطيات.

ثم قال: لهجتك بدوية هل أنت من لودر؟

قلت: لا، أنا من مودية.

ثم قال: أخوك في الله (مرسل عبد القادر)

قلت: أخوك في الله ناصر الوليدي.

ليلة رحلونا

كاد البرد يهشم عظامي وييبس أطرافي، وتمنيت أنني خرجت مع الخارجين إلى مدن الجنوب الدافئة، كان البرد شديداً غاضباً والشمس صفراء باهتة تبرقع بلفائف من الغيوم، كنت أتلفت يميناً وشمالاً ونحن نتجه إلى وسط المدينة، الشوارع ضيقة والبيانات قديمة والأسواق متداخلة، وفي الطريق تشعر أن هنا تنوعاً دينياً كبيراً، فهنا معابد للهندوس، وحسينيات للشيعة، ومساجد للسنة، وفي الإعلانات المعلقة على أبواب المساجد تشتم رائحة الصراع السني الشيعي، فهذه محاضرة بعنوان فضل الصحابة وحكم من طعن في عدالتهم، وهناك محاضرة عن عهد معاوية وكأن الصراع الذي نشب قبل أكثر من ألف سنة في جزيرة العرب ينتقل إلى هذه البلاد البعيدة.

وفي أحد المساجد كان نزولنا في حارة ضيقة مزدحمة السكان وعلى بوابة المسجد عدد من الإعلانات الملونة عن دروس ومحاضرات ولقاءات في عناوين مختلفة، وكان البرد سيد الموقف. أخذت أصعد إلى الدور الثاني على درج خشبي، وأفرش الشال

على السطح، وأستلقي عليه تحت الشمس؛ طلباً للدفع ولكن هيهات، وكان معظم الإخوة يفعلون مثلي، وبعضهم يأخذ البطانية معه ليتدفأ بها، وكنت أرفع يدي إلى السماء وأقول: (اللهم أخرجنا من هذه القرية القارس بردها)، فيضحك الإخوة على دعائي.

وفي اليوم الثاني وبينما كنا نغط في نوم عميق في المسجد بعد منتصف الليل وقد أطفأنا الأضواء؛ إذ اقتحم علينا المسجد عدد من الضباط برتب عالية ومعهم جنود يحرسونهم، فأضاءوا السرج وأيقظونا، وأخذ أحدهم ينادي بأسمائنا: ناصر محمد سالم الوليدي... أبوبكر محفوظ... رشيد عبد... محمد السعدي... سمير جديع... جلسنا على الفرش نمسح النوم من أعيننا فطلبوا من المترجم صور وثائقنا، ثم صورنا الجنرال بكاميرا هاتفه كل على حده، وكان كلما صور أحدنا يكتب بعض البيانات في الجوال وبيانات أخرى في دفتر كبير يحمله معه، كان الأمير يتخاطب معهم بلغتهم الأردنية، وطال الجدل والنقاش ورفع الأصوات وخفضها حتى أوشك الفجر على الطلوع، قام الأخ سمير وأخذ لفة في بهو المسجد ونظر من النوافذ، ثم جاء وجلس بجانبني وقال: المسجد محاط بالجنود، وقد عددت أكثر من عشرين جندياً مع أسلحتهم.

صلينا الفجر وأخبرنا الأمير أن هؤلاء هم ضباط الأمن والمخابرات

وقد وصلهم بلاغ بأسماء العرب اليمينيين ويبدو أنهم مصرّون على
ترحيلنا من المدينة والعودة إلى رايوند.

بقي بعض الجنود يحرسون المسجد وقد طلب الجنرال من الأمير
منع خروج اليمينيين من المسجد حتى يعود بعد الظهر.

عاد الضباط بعد الظهر وعاد معهم الجنود وجاء معهم بعض
قيادة الجماعة من المركز وطال بينهم الجدل بلغة لا نفهمها ولكن
الجنرال أصر على خروجنا من جهنغ هذه الليلة وأمر بأن نجتمع
أمتعتنا لنغادر المسجد بعد صلاة العشاء.

وبعد صلاة العشاء وصل الضباط ومعهم سيارة لنقلنا تحيط
بها خمس دراجات نارية يقودها ضباط يحملون مسدسات وقد
صحبتنا هذه الدراجات إلى المركز العام ومعها سيارة الشرطة،
وصلنا المركز العام الساعة التاسعة فتناولنا العشاء وأخذت أكل
المسؤول العام عما يحدث.

فقلت له: هل أخرجنا من المدينة لأننا عرب؟

قال: هنا الكثير من العرب خارجون في المدينة، ولكن يبدو أن
هناك إشكالاً والجنرال يقول إن التوجيهات وصلتهم من إسلام آباد
بضرورة مغادرتكم المدينة الليلة.

فقلت: دعونا نبات في المركز ومع الصباح نستطيع المغادرة، الآن

ليل والجو بارد والطريق قارس.

قال: ليس الأمر بأيدينا، التوجيهات واضحة بمغادرتكم الليلة وسيصحبكم أحد الضباط حتى يسلمكم إلى رايوند.

قام الضباط بالتقاط صور لنا ونحن نلج المركز ثم ونحن في المركز ثم ونحن في السيارة مغادرون ثم للسيارة وهي تغادر المركز.

وانطلقت بنا السيارة في سواد الليل حتى وصلنا رايوند حوالي الساعة الثالثة قبل الفجر.

وهناك وجدنا عددًا من المشايخ في انتظارنا فاستقبلونا استقبالا حسنا، وقبل أن يعود الضابط إلى جهنغ التقط لنا صورًا ونحن في المركز.

قدم لنا المشايخ الشاي والمكسرات والتمر والقهوة ثم أخذوا يعتذرون لنا عما جرى ويبدون أسفهم، وبعد أن تناولنا ما قدم لنا سألت مسؤول الاستقبال:

هل نستطيع أن نفهم لماذا أخرجنا من المدينة بهذه الطريقة الغريبة؟

فقال: لأنكم يمنيون، المدينة تشهد صراعًا سنياً شيعياً، والشيعية في المدينة أكثرية، والأحداث المحتمة في اليمن ألفت بظلالها على الصراع في جهنغ، والأمن تخوف من أي اعتداء عليكم، فهم لا

يريدون أن يتحملوا أي مسؤولية عن أي حادثة في المدينة، وجاءتهم توجيهات بمعالجة الموضوع فأرأوا أن أسهل طريقة هي مغادرتكم للمدينة.

وفي ضحى اليوم التالي جلس معنا مسؤول التشكيل في المركز وقدم لنا اعتذاره واعتذار الضباط ثم قال: وتكريماً لكم سنخبركم المدينة التي تحبون الخروج إليها، فقلت له: أرى أن نساغر إلى كراتشي بعيداً عن البرد وهي فرصة لتتعرّف على كبرى المدن الباكستانية، ثم أضاف الشيخ أبوبكر ولنا طلب آخر وهو أن تخرج معنا الجماعة الباكستانية نفسها والأمير نفسه.

وبعد المشاورات صدرت الموافقة على خروجنا إلى كراتشي لنقضي هناك أكثر من شهر..

شهر في كراتشي

كراتشي هي كبرى المدن الباكستانية على الإطلاق، وهي عاصمة إقليم السند الواقع جنوب البلاد، يقال: إن تعدادها يزيد على ثلاثين مليون نسمة، وهي مدينة كبيرة مزدحمة مترامية الأطراف، تقف على ساحل بحر العرب، ومناخها إلى حد ما يشبه مناخ مدينة عدن، وحينما وطأتها قدماي لحظة هبوطنا من القطار شممت منها عبير عدن.

وقد كانت بعد الاستقلال عاصمة لباكستان قبل أن تنقل العاصمة إلى مدينة إسلام آباد عام ١٩٥٨م، وهي اليوم العاصمة التجارية، ففيها الميناء والمؤسسات التجارية الكبرى، وكانت تسمى قديمًا مدينة الديبل، فتحها المسلمون في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان.

وصدق من قال: من لم يزر كراتشي لم يزر باكستان، وترى ذلك جليًا في سعة المدينة وكثرة سكانها وشوارعها وحركة الحياة فيها، ما إن وقعت أقدامنا في محطة القطارات حتى نقلنا مباشرة إلى (مكي مسجد)، وهو أول مركز بُني للتبليغ في باكستان وذلك بعد الاستقلال

مباشرة، وفي المركز جرى استقبالنا والاحتفاء بنا، وهناك وضعنا أمتعتنا واسترحنا حتى صلينا الظهر وتناولنا وجبة الغداء لننتقل بعدها إلى المركز العام الجديد للجماعة المسمى (مدني مسجد)، وهو مسجد واسع يتسع لأكثر من ثلاثين ألف مصلي، وكان يوم وصولنا هو يوم الخميس الذي يجتمع فيه التبليغيون من كل أحياء المدينة، وكان الحضور كبيراً مهيباً يشبه اجتماع المصلين لصلاة العيد، وفي تلك الليلة وجدت عددًا من الإخوة العمانيين الذين تحدثت عنهم سابقاً، فقد جرى تشكيلهم إلى كراتشي أيضاً ولقيت بعض الإخوة الشاميين الذين تعرفت عليهم في مركز رايوند.

شارع الزبيري في كراتشي

كنت في السيارة لحظات انتقلنا من مركز (مكي مسجد)، وكنت أردد والسيارة تسير بنا في شوارع كراتشي قصيدة الزبيري:

سجل مكانك في التاريخ يا قلمُ
فهاهنا تُبعثُ الأجيالُ والأممُ

كنت أرددُها متأولاً فيها وضع باكستان، ففي هذه الدولة حركة دعوية كبيرة وحماس شعبي للدين عارم، هل خابت توقعات

الزبيري في انبعاث الأجيال والأمم وهو يرى عاصمة ثورته التي سُرد من أجلها وقُتل من أجلها قد أصبحت اليوم في يد الكهنوت نفسه، ليس من السهل أن نقول ذلك الآن، فالوضع تغير ولولا ظروف داخلية وخارجية لما انكسرت جمهورية الزبيري.

كانت السيارة تخترق الشوارع والكباري وتقف عند السراج وقد استبدت بذهني تلك السنون الأربع التي قضتها أبو الأحرار هنا في كراتشي بعد فشل الثورة الأولى على الإمامة عام ١٩٤٨م، لا أدري هل هو الشعور بالغرابة في مدينة يسكنها أكثر من ثلاثين مليون إنسان، مما جعلني أستأنس بذكرى الزبيري؟

هل مر الزبيري هنا؟

هنا كانت صحبته الحميمة للشاعر والسفير السوري عمر بهاء الدين الأميري صاحب قصيدة: (أين الضجيج العذب والصخب). في أي شارع اكتشف الأميري صاحبه الزبيري وهو يبيع الأقفال والمفاتيح والخردوات مستخفياً بسواد الليل، الزبيري الشاعر المناضل الذي ضحى بكل شيء من أجل شعبه لا يجد ما يقيم أوده، ولم يتنبه إليه أحد فيسد عوزه وحاجته، لم يذهب يشحت بنضاله

وتضحيته، ولم تسمح له نفسه الكريمة أن يمد يده لأحد، فاستعان بسواد الليل ليتخفى بين أعطافه ويبيع الخردوات في صندوق صغير يحمله بين يديه.

بلغ الخبر ملك الأردن الملك عبد الله الأول فراسل الإمام الجديد أحمد بن حميد الدين في العفو عن الزبيري والسماح له بالعودة إلى وطنه، فوافق الإمام ووعد بتعيين الزبيري في منصب يليق به، لكن الزبيري رفض هذا العرض مع شكره للملك عبد الله، واشترط على الإمام إطلاق سراح جميع السجناء، وعودة جميع المنفيين، والبدء في عملية إصلاح شاملة.

وصلنا قرب الساحل فتذكرت جلسات الزبيري مع الكثير من الزعماء والأدباء بما فيهم عبد الرحمن عزام الأمين العام للجامعة العربية، وانعقاد المؤتمر الإسلامي وخطاب الزبيري وقصائده.

بعدها تحسن وضعه قليلاً وعمل في إذاعة باكستان الناشئة، وكان من مؤسسيها، ثم سُمح له بالتدريس في جامعة كراتشي، وهنا انتقل نقلة نوعية وأصبح معروفاً.

كنت أقص لأصحابي الباكستانيين عن الزبيري ونحن في السيارة متجهين إلى الساحل، فقال أحد الإخوة من أهل كراتشي: في حي كورانجي البعيد قليلاً من هنا يوجد شارع يخرج على الكورنيش

اسمه (شارع الزبيري) يقال إنه نسبة إلى شاعر يماني، كما توجد هنا حديقة جميلة تسمى حديقة الزبيري، وكثير من شوارع كراتشي سميت بأسماء شعراء باكستان، وفي الأيام القادمة سأخذك إلى شارع الزبيري إن شئت، فقلت: ليس شيء أحب إليّ من ذلك. وصلنا إلى بحر العرب حيث تقف كراتشي، فشممت منه رائحة قومي العرب، رائحة الأدب والنضال التي تركها الأميري والزبيري، ورائحة الحرب والبارود التي تصلني مع الرياح القادمة من بلاد العرب.

واقعتان من حب العرب

أول تشكيل لنا في كراتشي كان في حي يسمى حي (شيرين جناح)، ومعظم سكانه من البشتون الذين قدموا من شمال البلاد طلباً للرزق والدفع في فترات متتابة، وهؤلاء البشتون كما قال أخي حفيظ الله هم (مجانين دعوة)، يحبون الدعوة والدعاة إلى الله ويناصرونهم ويبدلون لهم الغالي والنفيس، وقد جرت في هذا الحي حادثة تدل على شدة حب أهل هذه البلاد للعرب، وقد ذكرتني بحادثة أخرى شبيهة والواقعتان هما:

الواقعة الأولى:

يقول لي أحد الإخوة اليمينيين العائدين من منطقة (صوابي):
كنا جماعة من العرب والباكستانيين نتنقل من منطقة إلى منطقة
حتى وصلنا منطقة في قرية جبلية، وهناك استقبلنا أحد الإخوة
التبليغيين المقاميين وأصر أن نتعشى في بيته، فأجبنا دعوته وأكرمنا
غاية الإكرام، فلما ارتفعنا من المائدة وغسلنا أيدينا وجلسنا نتحدث
قال لنا:

حين دعوتكم للعشاء رجعت البيت فأخبرت زوجتي وبناتي أن
العرب سيكونون ضيوفنا الليلة على العشاء، فلما سمعت بذلك
أمي العجوز نهضت وأسرعت إليّ وقالت: والله لا يطبخ عشاءهم
غيري ولا يشاركني أحد، فحاولت زوجتي وبناتي أن تثنيها عن
قرارها بحكم أنها عجوز ولها مدة طويلة لم تعد تطبخ، ولكنها أبت
وقامت إلى المطبخ وطبخت كل شيء بمشقة كبيرة وكانت ترفض
أن تقرب لها ابنتي الماء حتى جهزت هي وحدها كل هذه الوجبة
بتفاصيلها.

الواقعة الثانية

لما كنا في كراتشي خرج بعض الإخوة يتجول في السوق والحارات حسب الترتيب، وكان معه دليل باكستاني من أهل المسجد، فما زالا يتجولان حتى وصلا عند بيت الأخ الباكستاني، فقال لليمني: انتظرنى هنا حتى أدخل البيت وأعود إليك سريعاً قبل عودتنا إلى المسجد، فما أن ولج البيت حتى خرج وقال للأخ: لو سمحت ارجع للخلف قليلاً حتى تكون بجانب الجدار حتى تراك أمي العجوز، فإني لما دخلت البيت وكنت مستعجلاً أخبرتها أن معي عربياً يقف عند الباب فقالت: أرجو أن تجعله في مكان يمكنني من رؤيته من النافذة، فإني أريد أن ترى عيني رجلاً من العرب أحفاد الصحابة والتابعين.

بروفسور يماني باكستاني

نزلنا ضحى الجمعة في حي (يفرن زون) وسط كراتشي، وبعضهم يسميه حي (ناظم آباد)، ويبدو الحي راقياً منظماً، الطرق والشوارع واسعة ونظيفة، والسكان يظهر عليهم الرقي، سواء كان في هيئاتهم أو بنيانهم أو سلوكهم، حتى المسجد الذي نزلنا فيه (مسجد بيت المكرم) تراه يعكس وضع الحي وأهله، فهو كبير ونظيف، وبنيتة جميلة، ومرافقه واسعة.

صلينا الجمعة والتقينا بعد الصلاة للاستماع للدرس الذي كلف به أحد الإخوة، وشاء الله أن يكون جلوسي ملاصقاً لكرسي يجلس عليه شيخ قد تجاوز الثمانين من عمره، وما إن أكملنا الدرس حتى وجدت يداً بيضاء ضعيفة مرتعشة تمتد لتصافحني ثم يسألني ذلك الشيخ بعربية ضعيفة:

هل أنت عربي؟

قلت: نعم، من اليمن.

فضحك وأخذ يتكلم بلغته الأردية مما جعلني استدعي الأخ الترجمان (حفيظ الله) فأخذ يترجم بيننا الحديث.

فأخذ الشيخ يعرف بنفسه مفتخرًا بعروبته ويمينته فيقول:
أنا الدكتور أحمد كمال الأنصاري، برفسور في الطب تخصص
وظائف الأعضاء، وأستاذ في ثلاث جامعات (جامعة كراتشي،
وجامعة ملتان، وجامعة باول بور).

أنا يماني من الأنصار من الخزرج من بني النجار، خرج أجدادي
من المدينة مع الفتح الإسلامي حتى أقاموا في مدينة هيرات الأفغانية،
وجدي هو أبو إسماعيل الهروي (مؤلف «منازل السائرين» الذي
شرحه ابن القيم في مدارج السالكين)، ثم انتقل أجدادنا إلى الهند
فتفرقوا فيها.

أما أنا فقد ولدت في ٢٣ أبريل عام ١٩٣٦م في الهند، ثم انتقلنا
بعد الانفصال إلى كراتشي وذلك عام ١٩٥٠م. وأبي أنصاري
وأمي هاشمية وعمي هو مولانا (سيد الأنصاري) مؤلف كتب: سير
الصحابة وسير الصحابيات وقدوة الصحابة وسير الأنصار.
وخالي هو (مولانا عبد الوحيد صديقي) أمير جماعة التبليغ في
(فتح بور) بالهند.

أما خالتي فهي زوجة مولانا العلامة (أندر شاه كشميري) ابن
العلامة الشهير (أنور شاه كشميري) صاحب المصنفات وأحد
أشهر علماء المدرسة الديوبندية.

وعبر خالي تعرفت على جماعة التبليغ صغيراً والتحقت بدعاتها، وقد أكرمني الله بالخروج إلى كثير من دول العالم؛ دعوة إلى الله تعالى كالبرتغال والمغرب والسودان وبنجلاديش وإندونيسيا وغيرها. وخرجت دعوة مع مولانا يوسف، ومولانا أنعام الحسن أميرى جماعة التبليغ، وكذلك مع مولانا زكريا مؤلف (فضائل الأعمال).

عندي أربعة أبناء، ولدان وبتان، بناتي كلهن عالمات تخرجن من الجامعات الدينية، أما أولادي فأحدهما مفتٍ والآخر هو هذا الذي عند السارية وهو طبيب، وهناك عدد من أحفادي يحفظون القرآن الكريم.

كنت أستمع إليه وهو يسرد هذا الفخر الكبير والشرف الرفيع فربما استفسرت عن بعض التفاصيل، ووجدتني أتذكر قول الشاعر:

تلك المكارم لا قُعبان من لبني

شيبا بماءٍ فعادا بعد أبوالا

ثم قلت له: تتكلم الأردية والإنجليزية وشيئاً من العربية، الأردية لغتك والإنجليزية بحكم دراستك وعملك ولكن كيف اكتسبت شيئاً من العربية؟

فقال: في الدعوة حيث كنت حريصاً على صحبة إخواني العرب.

أما الأردنية فلي ديوان شعر صغير بالأردنية يحوي عدة قصائد جميعها في مدح الرسول -صلى الله عليه وسلم- والشوق إلى المدينة.

فقلت: هل ممكن أن تنشدنا شيئاً من شعرك؟

استوى على الكرسي ثم أخذ يفتح زرار الكوت، ثم أخرج عدة أوراق، فأخذ يقرأ من إحدى الأوراق والمترجم يترجم لي ما يقول. ثم قال المترجم: أجد صعوبة في ترجمة القصيدة ترجمة مباشرة؛ وذلك لأن لغتها أردنية قوية، وهكذا الكبار الذين قدموا من الهند أرديتهم قوية، ضف إلى ذلك أنها شعر ولغة الشعر جزلة، وأيضاً الرجل فصيح ومعانيه عميقة، لهذا سنأخذ منه الورقة ونسهر على النظر فيها.

فطلبت منه الورقة فبادر إلى إهدائي القصيدة، ثم انتزع قلماً من جيبه ووضع الورقة على فخذة وأخذ يكتب لي فيها (إهداء)

هدية للأخ ناصر الوليدي

من: د. أحمد كمال الأنصاري.

زيارة جامعة دار العلوم كراتشي

في تاريخ ١٦ يناير صحبني أخي حفيظ الله وأخي تابش لزيارة جامعة دار العلوم كراتشي، وهي من أكبر الجامعات الدينية إن لم تكن أكبرها، وقد أسسها فضيلة الشيخ محمد شفيع المفتي العام لباكستان، وهو أحد مؤسسي دولة باكستان، وله تفسير مشهور يسمى (معارف القرآن) يقع في ثمانية مجلدات، ولا أدري هل ترجم إلى العربية، توفي الشيخ -رحمه الله- عام ١٩٧٦ م.

كان في استقبالنا هناك شاب يدعى حماد القرشي يقول إنه من أصول عربية جاء أباه إلى القارة الهندية مع الفتح الإسلامي، وهو يدرس في معهد القراءات التابع للجامعة، الذي يدرس فيه آلاف الطلاب. وأخونا حماد يحفظ القرآن بالقراءات العشر المتواترة، ويتكلم العربية بوضوح، وقد طاف بنا في أروقة الجامعة ومبانيها وملاحقها، وهي جامعة كبيرة تقع على مساحة واسعة، وفيها مبان ومرافق ضخمة. يزيد عدد طلاب الجامعة على خمسة عشر ألف طالب وطالبة غير آلاف الطلاب المنتسبين إلى معهد القراءات، وفيها غير كلية العلوم الدينية كلية الهندسة، وكلية الإعلام، وكلية

العلوم الإدارية، وفيها مصرف تجاري، ومسجد كبير يتسع لسبعة وثلاثين ألف مصلي، يخطب فيه نائب رئيس الجامعة الدكتور محمد تقي عثمانى العالم المصرفي المعروف، صاحب المؤلفات في المالية الإسلامية وعضو مجمع الفقه الإسلامي في جدة. أما رئيسها فهو العلامة رفيع العثماني

ويلحق بالجامعة دار الإفتاء والبحوث. وقد زرناها وكان في استقبالنا رئيسها مولانا عبد المنان الذي أفنى عمره باحثاً في هذه الدار، وقد طاف بنا في الدار وأطلعنا على مراجع الفقه الإسلامي المتنوعة التي يعتمد عليها الباحثون والمفتون، وهي كتب فقهية لجميع المذاهب والمدارس الفقهية القديمة والمعاصرة، وقد رأيت كتب الشوكاني نيل الأوطار والسييل الجرار وغيرها، وكتب الموسوعات الفقهية المعاصرة، كما تتبع الجامعة أكثر من مائتي مدرسة دينية ودار حديث، يدرس الطالب فيها ثماني سنوات ثم تأتي بعدها سنوات التخصص والعالمية، وقد يصل عدد سنوات الدراسة إلى خمس عشرة سنة .

زيارة جامعة العلوم الإسلامية

أسسها العلامة محمد يوسف عام ١٩٥٤م، ويوجد لها في كراتشي اثنا عشر فرعاً، ويزيد طلابها على عشرة ألف طالب وطالبة، ورئيسها الحالي هو الدكتور عبد الرزاق إسكندر، وقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر كان يدرس فيها طلاب من خمسة وثلاثين دولة، ثم حصل شيء من التضييق بعد ذلك.

مع د. سلمان آصف

استدعاني أمير المجموعة الدكتور عرفان وكلفني مع الترجمان مولانا حفيظ الله بزيارة الدكتور سلمان آصف.

تحركت بنا السيارة من مسجد بيت المكرم حتى وقفنا أمام بيته الجميل وهناك وجدناه ينتظرنا مع اثنين من أصدقائه أحدهما يتكلم العربية، فاستقبلنا بحفاوة ثم أدخلنا إلى بيته، وأخذنا إلى صالة كبيرة مقسومة نصفين، يقسمها جدار من الكتب وجميع الجدران مغطاة برفوف الكتب، حتى جلسنا على كراسي حول طاولة زجاجية

جميلة وكانت تحيط بنا الكتب من كل مكان.

سألت الدكتور عن مكتبته وكتبه فقال: إن معظم هذه الكتب في علم التربية وعلم النفس، فأنا متخصص في علم تربية الأطفال، وأستاذ علم التربية في الجامعة، ولي برامج في تربية الطفل في عدد من القنوات الفضائية وعلى اليوتيوب، ولي كتابات في الصحف والمجلات وصنفت في مجالي هذا عدة كتب.

ثم أخذنا نتبادل أطراف الحديث فحدثهم عن مراحل انتشار الإسلام في القارة الهندية منذ محمد بن القاسم مرورًا بالسلطان محمود بن سبكتكين إلى عهد السلطان جهان شاه والسلطان أورنكزيب آخر السلاطين العظام، وكان حديثًا شيقًا استمر ساعات، مع ما أكرمنا به من الشاي والعصائر والمكسرات.

وفي آخر اللقاء طلب منا أن نجيب دعوته على الغداء في الأسبوع القادم، وقبل أن نودعه أهداني بعضًا من كتبه وكتب لي إهداء في أحد الكتب كعربون محبة وصداقة، وأخذ رقمي ووعدي بترجمة الكثير من حلقاته على اليوتيوب إلى العربية لتعم بها الفائدة.

وفي آخر اللقاء أكد علينا بضرورة تكرار الزيارة، ثم ودعنا بحفاوة تفوق حفاوة الاستقبال.

وعندما كنا في اليوم الثاني عائدين من جامعة دار العلوم كراتشي

لمحنا صور الدكتور معلقة في الشارع، لا ندري هل هو إعلان محاضرة له في إحدى الجامعات أو غير ذلك.

والليلة بعد صلاة العشاء جاءني أحد أصدقائه ومعه المترجم وقال: أرسلني إليك الدكتور سلمان آصف لأنه رتب لك محاضرة في قاعة خاصة يوم الأحد القادم سيحضرها الكثير من الطلاب وأساتذة الجامعة.

فقلت له: لا بد من مشاورة الأمير في ذلك وسنرد لكم الخبر غداً بإذن الله تعالى.

الوفاء بوعد الدكتور سلمان

انطلقت بنا سيارة أختينا زيد أبي صفوان، وكان معي الترجمان مولانا حفيظ الله، فاخترقنا الكثير من الشوارع الجميلة والكباريات، وبين زحمة السيارات والدراجات النارية أخذ أختونا زيد يخترق الزحام، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى المكان المحدد، فوجدنا الدكتور ينتظرنا في صالة مجهزة لمثل هذه اللقاءات وقد حشد فيها عددًا من الأساتذة والتربويين والآباء والأمهات والشباب والشابات فلم يلبث حتى أجلسنا والمترجم في صدر القاعة ثم جلس بجانبنا

وألقى كلمة ترحيبية بالضيف اليميني والمترجم، ثم أذن لي بالكلام وأتاح لنا فرصة طويلة للحديث، وأخبرنا أن الحضور جاءوا متفرغين لحضور هذا اللقاء وبإمكانكم التحدث إليهم ساعات. وقد كانت كلمتي لهم بعنوان (الإسلام بين الانتشار والانحسار) ورأيت التفاعل والتأثير على الحاضرين.

وفي آخر الكلمة حدثتهم عن تاريخ الإسلام في الهند وذكرت بعض أعلام الهند وكان مفاجئاً لهم أن يجدوا عربياً ملمّاً بتاريخ الهند وأعلامه، بل إن بعضهم قال بعد المحاضرة أنه يجهد الكثير من هذا التاريخ وهؤلاء الأعلام.

وقبل انتهاء المحاضرة وجهت نداءً إلى محمد بن القاسم فرأيت بعضهم تسيل أعينه من الدمع منهم الدكتور سلمان. وختمت المحاضرة بشعر للعلامة محمد إقبال فرأيت القوم أصابتهم سكرة شديدة فلإقبال عندهم منزلة عظيمة.

انتهت المحاضرة وجاء وقت المصافحة والترحاب من القلوب الباكستانية النقية، وودعونا بالأحضان كما استقبلونا بالأحضان، إلا أن الدكتور حبسنا على وجبة غداء فاخرة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين.

مع النخبة

كنت في لقاء مع جمع من العلماء خريجي الجامعات الإسلامية، وقد كرموني تواضعاً منهم بتوجيه كلمة لجمعهم في لقاءهم الدوري هذا، وهم من مدن شتى كراتشي ولاهور وغيرها وكانوا ٢٥ عالمًا، وقد استمعنا لبعض تجاربهم في الدعوة والتعليم والتربية وهي تجارب تشرح الصدور وتبهج النفوس وتملأ القلوب بالأمل. وكانت كلمتي لهم باللغة العربية دون الحاجة إلى ترجمان.

الرحالة نور محمد

انتقلنا من حي شمال كراتشي إلى حي (سكة ٩) مسجد باب الإسلام، وهو مسجد ضخم وجميل ومنظم ونظيف، وتتبعه مدرسة لتحفيظ القرآن الكريم ومبادئ العلوم الإسلامية، وهي مدرسة ضخمة تتكون من دورين وفصول إضافية، يدرس فيها ثمانمائة طالب وطالبة، تأسست هذه المدرسة قبل عشرين سنة ليتخرج منها آلاف الحفاظ والحافظات، أسس هذه المدرسة مولانا محمد عمر

فاروقي ولا يزال يديرها إلى اليوم، ولقد استقبلنا أحسن استقبال، وفرح بقدمنا، وطوفنا في مدرسته، ورأينا ما تقربه عيون الموحدين. وقبل صلاة المغرب جاء إلى باب الغرفة التي نزلنا فيها مولانا محمد عمر فاروقي وهو يدفع كرسيًا متحركًا يقعد عليه شيخ بهي الطلعة عليه سيما الصالحين قد تجاوز السبعين من عمره، فقال: هذا أبي نور محمد يريد أن يسلم على الضيوف اليمنيين، فهرعنا إلى خارج الغرفة لنسلم عليه، وكان يتكلم العربية، فأخذ يرحب بنا جذلًا مسرورًا ويسألنا عن أحوال اليمن، حتى قطع حديثنا أذان المغرب، فدفع الابن كرسي الوالد حتى أدخله المسجد، وبعد الصلاة جلسنا إليه فحدثنا أنه خرج داعية إلى الله في اليمن عام ١٩٩٢م، وقال: زرت عدن وأبين والبيضاء وإب والحديدة، ولم أعد أتذكر من الأحباب إلا اسم الشيخ صالح مقبل ثم سأله عنه وعن أحواله.

قال: ثم خرجنا من اليمن إلى الصومال، وكانت الحرب فيها مستعرة وطلبنا من الدعاة هناك أن يوصلونا إلى الرئيس، فأخذونا إلى رجل يقيم في كهف في إحدى الغابات، ووجدناهم يمضغون القات فنصحناهم بالعودة للشريعة وتحكيم القرآن الكريم فيما شجر بينهم.

وسألناه متى كان أول خروج لك للدعوة خارج باكستان؟
قال: منذ زمن طويل وكان عمري حينها ٢٦ سنة، وقد أدركت
أمير الجماعة الشيخ إنعام الحسن والشيخ عمر لالمبوري وكبار
مشايخ الدعوة.

سألته: ماهي الدول التي خرجت إليها داعية منذ ذلك الوقت؟
فقال: لا أتذكر بالضبط ولكنني زرت معظم دول العالم ماعدا
القارتين الأمريكيتين لم أزرها.

أما إفريقيا فأحسب أنني زرت معظمها، والكثير من دول آسيا،
وبعض الدول الأوروبية وأستراليا وجزر فيجي وما لم أعد أتذكره،
وقد أصبت قبل أكثر من عام بجلطة في القلب ونحن في منى في
موسم الحج قبل الماضي مما أقعدني على الكرسي ومنعني من
الخروج في سبيل الله تعالى. ثم أخذ يسرد لنا الأحاديث النبوية في
فضل اليمن وأهلها.

زيارة جامعة الرشيد

وهي ثاني أكبر جامعة في كراتشي، وفيها آلاف الطلاب والطالبات،
تقع على مساحة واسعة، وفيها مبان ضخمة، وحدائق جميلة. وقد

طفنا فيها وزرنا دار الإفتاء والبحوث العلمية، وكان في استقبالنا المفتي العلامة حكيم شاه، وهو رجل كثير الفضائل، جم التواضع، واسع المعارف، كأنه بحر زخار، وعربيته قوية جداً. وفي باحات الجامعة التقينا الدكتور نعيم أستاذ فقه الأموال والمصارف في الجامعة، وقد أهداني أحد مؤلفاته المقررة على طلاب الجامعة.

وتتبع الجامعة كلية للإعلام ومبنى للإذاعة ومركز إعلامي يصدر مجلة اقتصادية وصحيفة أسبوعية، وقد طلبوا مني عددًا من مقالات الرحلة هذه لترجمته إلى الأردية ونشره في الصحيفة.

أخونا أبو قدامة يوسف زيد

شاب باكستاني من مدينة كراتشي، كان صديقاً معي على الفيس، وكان يتابع كتاباتي حتى هبطت كراتشي، فتواصل معي مع صديقه جميل الرحمن وهما خريجا جامعة إسلامية ومدرسان في مدرسة دينية.

قضى معنا أكثر من ثلاث ساعات ووصلني معنا الجمعة وتغدينا معاً وأخبرني أنه رغم كونه من كراتشي إلا أنه لأول مرة يزور هذا الحي.

وقد أهداني كتابًا للعلامة طيب القاسمي، المدير السابق لدار العلوم في كراتشي عن (المدرسة العلمية الديوبندية)، أم المدارس الدينية في القارة الهندية.

وهو يتكلم العربية بطلاقة، وأخبرني أنه يقرأ هذه الأيام ذكريات علي الطنطاوي، وقبلها قرأ نظرات المنفلوطي. وقد وجدته كإخوانه الباكستانيين متين الديانة، نديّ الأخلاق، كريم النفس، شديد التواضع، مع غزارة العلم والحبّ الشديد للعرب والعربية. وقد وعدني بالخروج دعوة أربعة أشهر في اليمن على أن أصحبه في كل خروجه ذلك.

زيارة جامعة ابن عباس

مؤسس جامعة ابن عباس هو الدكتور الطبيب أمجد تشودري الذي سبق الحديث عنه، وقد حرص على أن تكون هذه الجامعة عربية خالصة لا تدرس فيها غير الكتب العربية، ولا يتكلم فيها الطلاب غير العربية، وقد زودها بمكتبة عربية ضخمة، واستقدم إليها بعض المدرسين العرب على رأسهم الأستاذ محمد حمداوي القيرواني التونسي الذي كان في استقبالنا هناك، وقد فرح بزيارتي فرحًا شديدًا

وكأني من أهله أو كأنه يطفىء برؤيتي أشواق قلبه إلى قومه في بلاد العرب، وقد شرح لنا شرحاً تفصيلياً عن مناهج الجامعة واعتمادها على الطرق الحديثة في التربية والتعليم، وتركيزها على تعلم العربية، ثم أخذنا إلى المكتبة الضخمة التي لا تكاد ترى فيها غير الكتب العربية، وفيها شتى أنواع الكتب: من التفسير، والفقه، والحديث، والأصول، واللغة، والأدب، وقد رأيت كتب العقاد، وطه حسين، والطنطاوي، والزيات، والرافعي، والمنفلوطي، وغيرهم.

تتبع الجامعة جامعةً عائشة، وهي مثلها تمامًا، ولكنها مخصصة للطالبات.

وهناك دار الأرقم للأطفال، يتعلم فيه الطفل اللغة العربية بأساليب حديثة.

زيارة دار الأرقم

قمنا بزيارة إلى روضة دار الأرقم ومدرستها التابعة لجامعة ابن عباس، وتقع دار الأرقم في حي (نورث كراتشي) سكة ٩.

كنت بصحبة مولانا الترجمان حفيظ الله وأخينا (تابش)، وكان في استقبالنا جميع الإخوة المدرسين.

جلسنا مع الأخوة فقدموا لنا شرحاً مفصلاً عن الدار ومنهجها

وأساليبها التربوية والتعليمية.

تأسست دار الأرقم عام ٢٠٠٥م على يد الدكتور أمجد شودري، وهو طبيب جراح قلب، وعميد سابق لكلية طب كراتشي، ومحاضر في عدد من الجامعات الباكستانية، وهو أيضًا مؤسس جامعة ابن عباس وجامعة عائشة.

التركيز في هذه الدار على تعلم اللغة العربية وإتقانها مع مبادئ العلوم الإسلامية، بحيث يستطيع الطالب بعدها أن يلتحق بجامعة ابن عباس، والطالبة تلتحق بجامعة عائشة، أو الالتحاق بالمدارس والجامعات الحكومية بعد إتقان العربية، مع حصيلة لا بأس بها من العلوم الإسلامية.

والتعليم في الدار ينقسم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: (الروضة) ومدتها أربع سنوات.

ويكون عمر الطالب أو الطالبة من ثلاث إلى أربع سنوات، يتعلم الطالب فيها مبادئ اللغة العربية وقصار السور باستخدام الصور والرسومات والبورجوكترو وغيرها من الوسائل. وهناك كتب معدة لذلك تتناسب مع أعمار الطلاب.

المرحلة الثانية: ومدتها أربع سنوات.

يحفظ فيها الطالب القرآن الكريم مع مواصلته الترقى في اللغة العربية.

المرحلة الثالثة:

ويحفظ فيها الطلاب موطأ الإمام مالك برواية محمد بن الحسن الشيباني، وتحفظ فيها الطالبات (الجمع بين الصحيحين) لليحيى. مع مواصلة الترقى في اللغة العربية. كان عدد الطلاب والطالبات هذا العام يزيد على ثلاثمائة طالب وطالبة. أما عدد المدرسين والمدرسات فثلاثون، وجميعهم خريجو جامعات إسلامية ويتقنون العربية، وهذا هو شرط قبول المعلمين في الدار، وتوجد في كراتشي خمس مدارس بالنموذج نفسه. وبعد أن أنهينا زيارتنا في دار الأرقم، وطفنا على الصفوف، واطلعنا على بعض الوسائل التعليمية، وعرضت علينا نماذج من امتحانات الطلاب والطالبات؛ أعطانا أحد المدرسين سيارته لنكمل بها التطواف في جامعات كراتشي وشوارعها ومعالمها.

تطواف

خرجت أنا وأخي (تابش) بسيارة أحد الإخوة لزيارة بعض الجامعات والمدارس الدينية، وكان خروجنا بعد العصر ولم نرجع إلا ليلاً؛ فكراتشي مدينة كبيرة جداً مترامية الأطراف، وعدد سكانها

يزيد على ثلاثين مليون نسمة، وكان أخي تابش لا يعرفها جيداً، فهو من لاهور ولكنه يستخدم الجوال عبر خدمة (اللو كيشن) أو الخريطة للوصول إلى الموقع. ثم تأخرتُ عودتنا وكنا قد استخدمنا الجوال في التصوير والتسجيل، لهذا نفذ شحن البطاريات ولم نستطع العودة إلى مكاننا، والسيارة قديمة ليس فيها شاحن، فلم يكن لنا بد من النزول عند صاحب محل والبقاء عنده حتى نشحن هواتفنا شحنًا كافيًا لتتمكن من العودة، وهذا يحتاج منا انتظارًا.

وقفت سيارتنا عند تاجر بشتوني يبيع الأواني المنزلية، وكلمناه عن مشكلتنا فرحب بنا، ووضع هواتفنا في الشواحن، وأحضر لنا كرسيين؛ لنستريح عليهما، ثم أخذ يحدثنا مبتسمًا مرحبًا، وبدون أن نتنبه كان قد غمز للعامل الوحيد الذي يساعده فأقبل ذلك العامل يحمل في يديه عشاءً وعصائر وشايًا وحلويات ومكسرات ووضعها بين أيدينا وجلس صاحبنا يأكل معنا وهو في قمة السعادة، فلما ودعناه مشى معنا إلى السيارة وقال: إذا كنتم تجدون صعوبة في العودة إلى مكانكم سأذهب معكم أو أرسل معكم العامل، ولكننا شكرناه وانطلقنا وهو يقول: تكموا بزيارتي مرة أخرى.

توديع

مولانا عبد الوهاب من أهل كراتشي، وهو إمام وخطيب مسجد، وخريج جامعة إسلامية، ويتقن العربية، خرج إلى اليمن داعية عام ٢٠٠٣م، وزار عدن ويافع وغيرها من مناطق اليمن.

لما علم عبر صديق له في اليمن بوجودنا تواصل معنا وزارنا إلى شهر مورو مسافة خمس ساعات شمال كراتشي، حاملاً معه وجبة غداء مكتملة، هذا لما كنا في شهر مورو، فلما علم بنزولنا كراتشي زارنا مباشرة والمسافة بيننا وبينه ساعة بالسيارة، ثم جاء يودعنا لأننا سنغادر كراتشي بعد ثلاثة أيام، جاء حاملاً معه الفاكهة والحلويات والكيك، فجلس معنا وتعشينا معاً ثم ودعنا والدموع تملأ عينيه.

وداعاً كراتشي

أكثر من شهر قضيناها في كراتشي، هي أجمل وأعذب أيام رحلتي إلى باكستان، زرت فيها الكثير من شوارع المدينة ومراكزها وجامعاتها، وزرت مع بعض الإخوة شاطئ البحر، ومن هناك

شممت رائحة قومي العرب، وفي هذا الشاطئ هياً لي أني وجدت آثار الزيري وبهاء الدين الأميري وعبد الرحمن عزام وكل من سهر هنا في هذا الشاطئ يتنسم نسيمات العرب القادمة من سواحل عمان. ولن أنسى إن نسيت أخي أويس الذي كان لنا خير رفيق فقد كان يتفاني في خدمتنا وكأنه يحمل لنا بين جنبيه قلب أم رحيمة وأب شفيق، إلى درجة أنه جعلنا نتجه إليه في أي حاجة لنا، حتى لو أن أحدنا فقد ثوبه أو حذاءه وكأنه يشعر أن أويس هو وحده من يستطيع إيجاده.

وأخونا أويس شاب سندي تخرج من جامعة رايوند وهو خارج سنة في سبيل الله، وكان من حسن حظنا أن كان آخر شهر له هو هذا الشهر الذي يقضيه معنا، فسلام عليك يا أويس حيثما كنت. بعد أكثر من شهر قضيناه في كراتشي عدنا إلى رايوند استعداداً لعودتنا إلى بلادنا، فلم يتبق لنا إلا عدة أيام من الأربعة الأشهر التي قضيناها في باكستان.

زيارة لاهور

بعد أن عدنا إلى مركز رايوند كنا في حالة استعداد للعودة إلى بلادنا، فرأيت أن أستفيد من هذه الأيام القليلة بعد أن أنهيت التزامات الخروج الدعوي، فاستأذنت الإخوة المرافقين لي في أن أقوم بزيارة استطلاعية في مدينة لاهور التاريخية الكبيرة.

في سيارة أخي تابش وبصحبة أخي المترجم حفيظ الله انطلقنا إلى لاهور نطوف في شوارعها وأسواقها ونتعرف على نهرها ومعالمها. ومدينة لاهور مدينة عظيمة ومتجدرة في التاريخ، تقع على ضفاف نهر راوي، وتخرقها الكثير من الترع والقنوات المائية التي تضي عليها جمالاً إلى جمالها، وهي مدينة كثيرة السكان، بل هي ثاني أكبر مدينة بعد كراتشي، حيث يزيد عدد سكانها على العشرة ملايين نسمة، وهي بالحق قلب باكستان وعاصمة إقليم البنجاب، وفيها كان الشاعر والفيلسوف والكاتب والسياسي العلامة محمد إقبال، وفيها ضريحه - رحمه الله -.

كنا نطوف في المدينة والأخوان يُعرّفاني بمعالمها، وقد مررنا بالمدرسة التي تخرج منها معظم قادة باكستان ونبلاؤها، وتسمى

(سانتر اسكول) أي المدرسة المركزية، وهي تحوي مدرسة أساسية وثانوية، وهذه المدرسة تخرج منها درة الهند الشيخ طارق جميل - حفظه الله - وسيأتي الحديث عنه.

ومع الظهر عرجنا على أحد المولات الضخمة واشترت بعض الهدايا، ثم كان الغداء في مطعم كنتاكي بطلب مني؛ لأنه الطعام الذي يمكن أن يناسبني، فالبديل هو الزيت والفلفل التي تزخر بها الوجبات الباكستانية.

منارة باكستان التاريخية

وقد قمنا في هذا اليوم بزيارة منارة باكستان التاريخية. وقد بُني هذا البرج بين عامي ١٩٦٠ و١٩٦٨م في الموقع الذي أصدرت فيه العصبة الإسلامية قرار لاهور في ٢٣ مارس ١٩٤٠، وهو أول دعوة رسمية لإقامة وطن مستقل لمسلمي الهند البريطانية. وقد ساعد القرار في النهاية على ظهور دولة باكستانية مستقلة عام ١٩٤٧. وضع حجر الأساس لهذه المنارة في ٢٣ مارس ١٩٦٠م وقد استغرق البناء ثماني سنوات، وانتهى في ٢١ أكتوبر ١٩٦٨م.

مسجد وقلعة أورنكزيب

كما قمنا بزيارة مسجد وقلعة السلطان المغولي المؤمن أورنكزيب الذي يقول فيه علي الطنطاوي في كتابه رجال من التاريخ: «هو بقية الخلفاء الراشدين».

كان المسجد كبيراً وواسعاً وزوّاره كثر، وقد طفنا في أروقته، والتقطنا بعض الصور مع طلاب الجامعات العلمية الباكستانية،

ووجدنا هناك الكثير من الزوار الأجانب، ثم عرجنا بعدها لزيارة ضريح الشاعر محمد إقبال ورفعنا له خالص الدعوات، وقبل مغادرتنا المسجد عرجنا على متحف صغير خلف باحة المسجد ورأيت فيه عددًا من المصاحف التي كتبت بالخط كتابة يدوية بصورة عجيبة، وقد قيل إن المرأة التي كتبتها أهدتها للرئيس ضياء الحق فوضعها في هذه المتحف.

وبعد خروجنا من المسجد قمنا بزيارة القلعة وهي قلعة كبيرة بناها هذا السلطان العظيم، وقد تطوفنا فيها مستخدمين السيارة الكهربائية وجلسنا في حديقته الجميلة التي تتقافز فيها السناجب. وعلى ذكر السناجب فقد رأيتها منتشرة في باكستان حتى في شقوق البيوت وفي الأزقة والجدران، وقد كنت في البداية أظنها فئران تختلف عن فئران بلادنا في شكلها وحجمها، ثم فهمت فيما بعد أنها السناجب، وهي المرة الأولى في حياتي التي أرى فيها سنجابًا.

وقد لفت نظري أن جميع الكتابات القديمة في المسجد والقلعة مكتوبة باللغة الفارسية، ثم علمت فيما بعد أنها لغة القارة الهندية أيام حكم المغول المسلمين لها، ولا يزال للفارسية وجود كبير في باكستان إلى اليوم.

عدنا أدراجنا مع غروب الشمس إلى لاهور، وبتنا في مسجد

الحي الذي يسكن فيه أخونا تابش، وهذا المسجد ملاصق لبيته، وقد بناه آباؤه، وهناك تعرفنا على أخيه الأصغر تيمور الضابط في الجيش الباكستاني، وقد أعدت لي أم تابش عشاء خاصًا خاليًا من الزيوت والفلفل التي أدمن عليها الباكستانيون، وفي صباح اليوم الثاني عدنا إلى مركز رايوند استعدادًا للسفر إلى مدينة تلمبة لزيارة الشيخ طارق جميل.

إلى طارق جميل

ولد الشيخ طارق جميل بن (الله بخش) بن عناية الله في شهر أكتوبر عام ١٩٥٣م في قرية تلمبة إحدى قرى مديرية خانيوال في إقليم البنجاب.

ينتمي الشيخ إلى قبيلة (سهو)، وكانت قبيلة سهو قبيلة هندوسية كافرة من أبناء (بهرتوي راج) أحد كبار زعماء الهندوس في زمانه. هاجرت أسرة سهو بعد انهزامها من المجاهد البطل شهاب الدين الغوري إلى تلمبة في عهد شيرشاه سوري أحد ملوك الهند، ثم أسلمت هذا القبيلة على يد الشيخ المصلح الكبير المجدد للدعوة الإسلامية في الهند بهاء الدين زكريا.

النشأة

نشأ الشيخ في أسرة غنية تملك المال والعقار مع الرخاء والنخوة والأنفة، قضى طفولته في قريته حتى أكمل مرحلة المدرسة الابتدائية الحكومية، ثم أرسله أبوه للدراسة الثانوية في مدينة لاهور في مدرسة (سنتر اسكول)، فلما أكمل الثانوية التحق بعدها مباشرة بكلية الطب بلاهور، وكان يقيم في السكن الجامعي، وكان في ذلك الوقت تعد مشاهدة السينما وحضور الحفلات الغنائية من علامات التثقف والتطور، فكان هو وأصدقائه يواظبون على مشاهدة السينما وحضور الحفلات الغنائية.

وبينما هو كذلك يدرس في الكلية التقى طالباً بنغالياً ينتمي إلى جماعة التبليغ، فكان يدعو الشيخ إلى الاهتمام بالصلاة، فغضب منه الشيخ وأساء معه التصرف، فلما انصرف الطالب ندم الشيخ على ما كان منه؛ وذلك بسبب حسن خلق زميله البنغالي، فالتقاه مرة أخرى واعتذر منه، فاستغل الطالب ذلك فدعاه للخروج مع الجماعة ثلاثة أيام وهي أول لحظات التقاء الشيخ بجماعة التبليغ، فخرج معهم ثلاثة أيام بغير علم أبيه، ثم حُبب إليه الخروج، فقرر

الخروج أربعة أشهر؛ رغم اعتراض أبيه وجميع عائلته، وفي أثناء تطوافه هذا سأله شيخ كبير عن عمله ودراسته، فأخبره أنه يدرس الطب، فقال له الرجل العجوز: الأطباء كثر في هذا البلد، ومثلك لم يخلق ليكون طبيًا، بل خلق للدعوة إلى الإسلام، وكانت هذه الكلمة هي نقطة التحول في حياته، فقرر الالتحاق بجامعة رايوند الإسلامية التابعة لجماعة التبليغ، ولكن ذلك وُوجهَ بمعارضة من أهله جميعًا، وبسبب رفض الوالد فقد اعتذرت جامعة رايوند عن قبوله؛ لأن الجامعة لا تقبل الطالب إلا بموافقة والديه، ولهذا قرر الالتحاق بمدرسة دينية صغيرة في قريته، وهنا قامت قيامة عائلته؛ لأنها تعدّ هؤلاء (المولويين) أناسًا ضعفاء صعاليك.

إلى الشيخ

لم تبق لي سوى أيام قليلة على العودة إلى بلادي، وكنت قد أكملت مدة خروجي الدعوي، حيث كان آخرها التشكيل إلى كراتشي، وكنت حريصًا أشد الحرص على زيارة الشيخ طارق جميل - درة تاج القارة الهندية- الذي ملأ الدنيا وشغل الناس، وبلغت قدماء معظم دول العالم، وطاف قارات الدنيا، وكانت له زيارة إلى مدينة الحديدية أيام الاجتماع لم يكن لي شرف حضورها، ولهذا طلبت من الإخوة المشرفين أن يتيحوا لي فرصة زيارة الشيخ إلى قريته (رئيس آباد) التابعة لمدينة (تلمبة)، والمسافة بين لاهور وتلمبة تزيد على خمس ساعات.

انطلقت صباحًا بصحبة أخي حفيظ الله وأخي تابش صاحب السيارة التي ستقلنا إلى هناك، ورجوت أخي تابش أن يخفف سرعة السيارة حتى لا يفوتنا التمتع بجمال الطريق.

كانت الأجواء خرافية، السماء تتبرقع بالغيوم، وترسل علينا زخات من رذاذها، والطريق مزين بالمزارع والترع والأزهار، كنا ثلاثة وكان كل حديثنا بالعربية، نتبادل الأحاديث ونشد الأشعار

العربية، وتحدث عن الأدب العربي والأدب الأردني، حتى وصلنا إلى حديقة (بوتكي)، وهي حديقة بديعة لبيع الزهور في جانبي الطريق تزيد مسافتها على عدة كيلوهات فأخبرني الإخوة أنها أجمل حدائق بيع الزهور في باكستان، كان منظر الزهور مبهرًا باختلاف أنواعها وتوزع ألوانها وبديع أشكالها.

وما زالت السيارة تهوي في طريقها والشوق إلى لقاء الشيخ يهز قلوبنا والغيوم تظلنا والمزارع تطارد حركتنا حتى وقفنا على مدينة (أوكارا).

وفي مدينة أوكارا نزلنا لصلاة الظهر، وكان في استقبالنا الأخ أويس وهو صديق لرفيقي سفري، حيث كان طالبًا معهما في بعض المراحل الدراسية، وبعد صلاة الظهر أخذنا بسيارته إلى مطعم في أطراف المدينة يملكه رجل بشتوني، ويعدّ فيه طعامًا يشبه إلى حد كبير طعام العرب، وهناك قدم لنا لحم الماعز والخبز والرز والمقبلات، فأكلنا حتى شبعنا ثم قدم لنا كاسات الشاي الأحمر، وعرفت فيما بعد أنهما نسقا معه في الترتيب لهذه الوجبة ومكانها، التي قد تناسبني؛ لخلوها من الزيوت والفلفل والبهارات التي هي الأساس في وجبات باكستان، ثم أخبروني أن هناك تشابها كبيرًا بين عادات البشتون وعادات اليمينيين، وهذا ما جعل بعض البشتون

يزعمون أنهم يعودون إلى أصول يمنية.

واصلنا مسيرنا حتى أطلت لنا مدينة تلمبة بعد صلاة العصر وقد بدأ الاصفراء يتغشى وجه الشمس الذي يتطلع خجلاً من بين الغيوم، ومن بين هذه الخيوط الصفراء كانت سيارتنا تخترق المدينة حتى وقفت أمام مبنى جامعة (الحسين) لترجل هناك، حيث كان في استقبالنا في جامعة الحسين بتلمبة عدد من المدرسين والطلاب على رأسهم الشيخ وقاص، الذين فرحوا بمقدمنا فرحاً شديداً؛ وذلك أن رفيقِي حفيظ الله وتابش كانا طالبين في جامعة الحسين ولهم علاقة ودٌ مع الكثير من المدرسين في الجامعة، وبعضهم أساتذتهم وآخرون زملاؤهم، ضف إلى ذلك وجود ضيف عربي، وللغرب مكانة في قلوب الباكستانيين.

أنزلونا في ديوان الضيوف، وجلس إلينا الشيخ وقاص والشيخ محسن وعدد قليل من الطلاب أذكر منهم طالباً من ملتان اسمه عبدالله، وكان كل حديثنا باللغة العربية، فجامعة الحسين بكل فروعها تهتم اهتماماً كبيراً بالعربية، وأحسب أنها هي وجامعة ابن عباس في كراتشي لا تتفوق عليهما جامعة في الاهتمام باللغة العربية، ولقد كانت سعادة الإخوة لا توصف وهم يتبادلون الكلمات والأحاديث والأشعار مع عربي لديه شيء من الإلمام

بالأدب العربي، فكانوا يتداعون للجلوس وخاصة الطلاب النوابغ، وأذكر منهم شابًا نابغة سيكون له شأن مع العربية اسمه (حنظلة)، الذي قرأ قوائم كثيرة من الكتب العربية. قطع علينا أذان المغرب الحديث الذي سواصله ليلاً مع هذه الثلة الطيبة.

بعد صلاة المغرب كان عليّ أن ألقى محاضرة قد رُتّب لها من قبل، حضرها المدرسون والطلاب وعدد من أهل الحي، ولكن أهم الحاضرين هو الشيخ طارق جميل الذي صلى صلاة المغرب جالسًا متلفعًا بملحفة، ثم جلس ينصت للحديث العربي عن انتشار الإسلام في الدنيا، وأهمية الدعوة إلى الله، رغم أنه لا يزال يعاني من آثار ذبحة صدرية كادت تودي بحياته.

لم نستطع لقاء الشيخ والتسليم عليه تلك الليلة حيث غادر المسجد في آخر المحاضرة بسبب مرضه، وقد أخبرني المدرسون أن الشيخ ليس من عادته أن يحضر بيانات الضيوف، إلا أنه تحامل على نفسه؛ إكرامًا للضيف العربي واستطيابًا لسماع لسان عربي قدم من قلب جزيرة العرب.

أخبرني الإخوة أن الشيخ طلب منهم أن يأخذوني بعد صلاة العشاء مباشرة إلى حي (إيدكه) وتعني بالعربية حي (مصلّي العيد) حيث

تقع الجامعة القادرية، وهناك وجدنا الطلاب والمدرسين ينتظروننا، وكانت لنا كلمة لا تختلف كثيراً عن الكلمة السابقة، وكانت أيضاً حفاوة الطلاب والمدرسين لا تقل عن سابقتها، ثم أخذنا إلى غرفة خاصة وتحادثنا مع بعض المدرسين عن الاهتمام باللغة العربية.

الشيخ المكتبة

وصلنا إلى (تلمبة) فبدأنا نستشق عبير شيخها وهلالها ونورها وجمالها الشيخ طارق جميل، وكان الشيخ مريضاً، فاستقبلنا الأساتذة والطلاب في جامعة الحسينين، وفرحوا بنا كثيراً، والتف حولنا الكثير منهم، وكانوا جميعاً يتكلمون العربية بطلاقة وفصاحة، وينشدون الأشعار وكأنهم في بادية نجد أو في خيام هذيل، فجلس معنا في غرفة الاستقبال بعض الأساتذة الذين تتزين بهم المجالس وكان منهم الشيخ (وقاص).

قضيت مع الشيخ وقاص أياماً في الجامعة فرع (تلمبة)، ثم فرع (إيد كه)، وفي المزارع والسوق، جلست معه كثيراً وسهرنا طويلاً، وتنقلنا في أروقة الجامعة وفصولها ومكبتها، فوجدت بحق أنني لا أقف أمام شاب لا يزيد عمره عن ست وثلاثين سنة، بل أمام مكتبة

بشرية متحركة، شاب يعشق العربية حتى الثمالة، ويتكلم بها أفضل من أكثر أبنائها، فهو يحفظ أكثر من ثمانية آلاف بيت من الشعر العربي، ويُدرّس في الجامعة النحو والصرف العربي، وقد درّس الطلاب المعلمات السبع وديوان المتنبي، وقرأ من الكتب العربية في الأدب العربي والمذكرات والنحو والصرف والتفسير والأصول والفقه ما لا يكاد يصدق، وهو يتعمد قراءة الكتب باللغة العربية ويؤثرها على لغته القومية الأردنية، فضلاً عن أنه من أصل بشتوني من مدينة (ديرة إسماعيل خان)، فلغته الأم البشتونية مع إتقانه للغة السريكية والبنجابية، وهو أيضاً حاصل على الإجازة في اللغة الإنجليزية، ويحمل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية.

سألته عن قراءاته العربية فقال: لديّ مذكرة أسجل فيها الكتب التي قرأتها في العربية، ثم مدّ يده فأخرج مذكرة كبيرة رأيت فيها قوائم طويلة من العلوم والفنون، فهذه قائمة بالكتب التي قرأها في التفسير: تفسير ابن كثير والكشاف وزبدة التفاسير وتفسير النفسي أيسر التفاسير. إلخ

وهذه قائمة بما قرأه في الأصول وهي عشرات الكتب، كما علمت أنه يحفظ قاموس (عربي - أردني) يزيد على أربعمئة صفحة، غير ما قرأه في الأدب العربي وأصول التفسير والرسائل المتنوعة، ولقد

علمت أيضًا أنه قرأ لأحمد أمين: فيض الخاطر عشرة مجلدات، وفجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام خلال ثلاثة أشهر فقط، وقرأ كثيرًا من كتب علي الطنطاوي، وقرأ بالعربية للعلامة أبي الحسن الندوي (١٠٨) كتب وهي جميع ما ألفه الشيخ الندوي، وقرأ للعقاد وطه حسين وغيرهم.

بدأت علاقته بجماعة التبليغ عام (٢٠٠٠م)، فخرج ثلاثة أيام حتى عام (٢٠٠٤م)، ثم خرج أربعة أشهر، ثم خرج سنة متواصلة معظم المدن الباكستانية.

وقد كونت منه هذه القراءات المتعددة عالمًا متعدد المعارف، شديد الرسوخ، مع الديانة والتواضع والشغف المعرفي، فأفاد الطلاب وانتفع به التلاميذ وشُرِّفَتْ به الجامعات.

وحين التقيت الشيخ طارق جميل سألتني:

من لقيت من المدرسين؟

فقلت: لقيت بعضهم عرضًا ولكني جلست كثيرًا إلى الشيخ وقاص فوجدته مكتبة متحركة، وفرح الشيخ فرحًا شديدًا وأخذ الجوال فاتصل بوقاص وحادثه باللغة الأردنية.

وللشيخ وقاص عدة كتب:

- كتاب (التاجر المسلم)، وقد طبع منه ألف نسخة نفدت خلال

- شهر، ثم طبع منه ألفا نسخة نفذت خلال ثلاثة أشهر.
- وكتاب (إن من الشعر لحكمة).
- وكتاب (إن من البيان لسحرا).

نسيم الطارق الجميل

كنت صباح اليوم التالي بصحبة أخي الشيخ وقاص لزيارة مزارع الشيخ والتطواف في بعض أحياء المدينة، وكان جل حديثنا عن أعمال الشيخ ومنهجه الدعوي والإصلاحي وخطه الطموحة في الإصلاح والتغيير.

فقد جاء الشيخ من وسطٍ عصريٍّ، فحياته الخاصة في عائلة إقطاعية ثرية ووجهة كان له أثره في تكوينه الوجداني، ودراسته الأساسية والثانوية وسنوات عدة في كلية الطب كونته تكويناً عصرياً مستنيراً، ضف إلى ذلك أنه فنان صاحب صوت جميل، ولولا تحوله الدعوي لربما أصبح من أشهر فناني القارة الهندية، وميوله الفنية أكسبته علاقات كثيرة بالفنانين والفنانات والمخرجين والمهتمين بالفن عموماً، كما أن وجاهة عائلته أكسبته علاقات متينة بأهل الحكم والسياسة، ولهذا كان من أهم أسباب رفض

عائلته لتوجهه الدعوي هو المكانة الكبيرة التي تتمتع بها العائلة الإقطاعية في إقليم البنجاب، فكان صادمًا لهم أن يكون ولدهم (مولويًا) يأكل في المساجد، ويتنقل فيها كما يفعل المساكين، وهم العائلة التي يعرف لها الساسة منزلتها ومكانتها.

هذه الظروف العصرية التي أحاطت بنشأة الشيخ كانت لها آثارها الإيجابية في توجهه الدعوي ومشروعه الإصلاحية، وإذا كان الشافعي قد أصلح بين مدرسة الأثر ومدرسة الرأي، فإن الشيخ قد أصلح بين المدارس الدينية والمدارس العصرية، حتى إنك لتجد أثر ذلك الإصلاح والتأثير في طلابه، ومما أذكره أنني تعرفت على شاب في رايوند اسمه محمد جاويد إقبال وكان يجلس إلي كثيرًا، فوجدت عربيته عالية وثقافته واسعة، فلمست فيه بصمة الشيخ طارق جميل وفهمت أنه من طلاب جامعة الحسين قبل أن يخبرني. ومن ذلك أن الشيخ لم يقطع علاقته بالوسط الفني، بل حافظ على صداقاته المتينة معهم، فكان يزورهم ويلقي عليهم المحاضرات، ويعقد لهم لقاءات موسمية، ويتواصل معهم تواصلًا مستمرًا مما جعل بعضهم يتحولون إلى دعاة إلى الله، ومنهم الفنان الشهير (جنيد جمشيد) الذي مات في حادثة تحطم طائرة مدنية ودفن في كراتشي، وقد زرت قبره وسمعت قصته من رفاق رحلتي، وهذا

الفنان أصبح منشداً كبيراً لا يكاد يغيب وجهه عن القنوات الفضائية الأردنية، وعلى يد هذا الفنان اهتدى الممثل الكوميدي الذي سبق الحديث عنه في قصة خروجنا إلى (ديالبور)، وليس هؤلاء فحسب بل هناك عدد من المغنيات والفنانات كانت هدايتهن على يد الشيخ طارق جميل، ولا يزال مستمراً في لقاءاتهم ودعوتهم والتواصل معهم، ومما أعانه على ذلك أنه صاحب كرم حاتمي يقضي حوائجهم ويكرمهم بالهدايا والعطايا، ومما حدثني به بعض الإخوة الباكستانيين أن الشيخ كان مسافراً في الطائرة بصحبة زوجته، وقبل أن تقلع الطائرة سعدت فنانة مشهورة كانت مسافرة لإحياء حفلة فنية، وكانت لها مفاجأة جميلة أن ترى الشيخ فصرخت بفرح غامر «مولانا الشيخ طارق جميل، أرجو أن تغمرني بدعواتك» في كلام طويل يدل على حبها للشيخ وإجلالها وتقديرها له، فلما جلست في مقعدها بحث الشيخ عن شيء يهديه لها إكراماً وتألِفاً ولأنه في الطائرة لم يجد شيئاً عينياً مناسباً فطلب من زوجته أن تخلع (أقراطها) الذهبية ليهدئها إليها، ففرحت الفنانة فرحاً شديداً وكأنها تبرك بهذه الهدية من مولانا الشيخ، وبهذا الأسلوب المرن والطريقة الدعوية الرحيمة مع المقصرين استطاع الشيخ بفضل الله أن يلحق الكثير منهم بحظيرة الإيمان والدعوة.

وقد علمت أن بعض المشايخ احتجوا على الشيخ في تواصله مع المغنيات والفنانات وأكثرهن لا يلتزم الحجاب الشرعي، فقال لهم: سأحتج عليكم بالمذهب الحنفي: ألم يُجوز العلماء النظر إلى عورة المرأة للطبيب عند الضرورة؟

قالوا: نعم

قال: إن الطبيب يريد أن ينقذ المريضة ويبقيها على قيد الحياة، بينما الداعية ينقذ المرأة المبتلاة بالمعصية من نار جهنم، وهو أصلاً لا يحتاج إلى النظر في عورتها.

وللشيخ أيضاً علاقته بالسياسيين التي يستخدمها في الدعوة إلى الله والتقليل من المفسد وتكثير المصالح الشرعية، فهذا (المولوي) الذي كان أبوه وعمه يتحسسون من توجهه الإسلامي أصبح رقماً صعباً في باكستان كلها، حيث يزوره الوزراء والبرلمانيون ورؤساء الأقاليم والساسة وزعماء الأحزاب إلى ديرته في رئيس آباد، ويذهب هو إليهم للنصح والتوجيه والإرشاد، حيث يلقي محاضرات دعوية في مجلس النواب، بل إن رئيس الوزراء الحالي عمران خان استدعاه حينما انتخب في منصبه وطلب منه المشورة والنصح والدعاء، وأخبرني بعضهم أن أحد الوزراء رفض أن يؤدي اليمين الدستورية إلا بحضور الشيخ طارق جميل.

ما أريد قوله هنا إن نشأة الشيخ العصرانية وعقليته المستنيرة فتحت للدعوة آفاقاً كبيرة في أوساط الساسة والفنانين والأكاديميين وهي تجربة جديدة بالاستفادة منها.

ومن نباهة الشيخ إدراكه لأهمية الدراسة في المدارس الحكومية التي يسميها الدعاة هناك المدارس العصرانية، فيزهدون فيها ويجنبون الأبناء الدراسة فيها، ولهذا أنشأ الشيخ عددًا من المدارس الأهلية الملتزمة بمعايير المدارس الحكومية؛ ليلتحق بها الكثير من الطلاب والطالبات برسوم زهيدة تصل أحياناً إلى المجان.

أما الجامعات الدينية فقد أنشأ الشيخ خمس عشرة جامعة في طول باكستان وعرضها، منها ثمان جامعات للطلاب وست للطالبات، وجامعة في ولاية تكساس بالولايات المتحدة الأمريكية، وأصل هذه الجامعات وأما هي جامعة الحسين في مدينة فيصل آباد، وجميع هذه الجامعات تُدرّس باللغة العربية، ولها اهتمام كبير بالثقافة العربية، وإذا زرتها لن تحتاج فيها إلى مترجم، وقد نهض باللغة العربية في هذه الجامعات شاب تونسي اسمه (رمزي الحبيب).

ومعظم نفقات هذه الجامعات من مال الشيخ الخاص، وقد بارك الله له في ماله؛ لما ينفقه في وجوه الخير من التعليم والدعوة والصدقات والإصلاح.

وعلى ذكر هذا فقد خرجت مع الشيخ وقاص وتعمد أن يمر بي في شارع معين، ثم أخبرني أن هذا الشارع كان سابقاً شارعاً للبغايا، وهو حيّ أصوله شيعية أو باطنية، فاجتهد الشيخ على هؤلاء البغايا بالدعوة والإكرام والبذل، وكان يصرف للتائبات راتباً شهرياً ويعمل لهن الولائم الكبيرة التي تطعمهن من الجوع وتغنيهن من المخمصة، ثم قال لي الشيخ وقاص: أما اليوم فهذا الشارع تقام فيه حلقات التعليم وتجتمع فيه الداعيات، فقد تحول كل من فيه إلى السنة والدعوة، وهناك عدد من العائلات تأتي شهرياً تسلم مخصصاتها من المال والمواد الغذائية من نافذة قريبة من الجامعة.

اللقاء

عدنا من المدينة والمزارع إلى الجامعة واسترحنا ثم تجهزنا للقاء الشيخ فاتجهنا إلى ديرته (ديوانه) أنا وأخي حفيظ الله حوالي الساعة الحادية عشر قبل الظهر، وهناك وجدنا عدداً كبيراً من الزوار ينتظرون خروج الشيخ لاسيما أنه تماثل للشفاء من ذبحة صدرية خطيرة، وكان من الموجودين شيخ كبير يتهادى متكئاً على ولده الشاب، وقد جاء من مدينة ملتان البعيدة لكي يزور الشيخ ويطمئن

عليه، وكان جالسًا على الأرض لم يستطع الجلوس على الأرائك، فلما أقبل الشيخ ترك الكل وجلس على الأرض بجانب ذلك العجوز وأخذ يعانقه ويحتضنه ويلطفه حتى انصرف ثم أقبل علينا وصافحنا، ودعاني للجلوس بجانبه، وأخذ يسألني عن أحوال اليمن وعن الدعوة إلى الله، وما رأيت في باكستان، ثم سألني عن الجامعة والمدرسين، وحدثته عن (الشيخ المكتبة)، ففرح فرحًا شديدًا وطلب مني زيارة بعض الجامعات لاسيما جامعة الحسين في فيصل آباد. ثم اعتذر لي بانشغالاته ومرضه وطلب لقائي مرة أخرى قبل سفري.

لم يطل لقائي بالشيخ فقد كان الزوار كثر وكل يريد حظه من لقاء الشيخ وهو يتحامل على نفسه رغم آثار المرض البادية عليه.

وغادرنا تلمبة

يومان ونصف اليوم قضيتها في رحاب جامعة الحسين فرع تلمبة لقيت فيها الشيخ طارق جميل وتلاميذه، ولمست عن قرب مناقب الرجل ومنهجه الإصلاحية، وذلك من خلال الاطلاع على أحواله ومشاريعه وعلاقاته وزيارة جامعته وقاعاتها الدراسية ومكاتبها وما حدثني عنه المشايخ، سواء كان الشيخ وقاص أو الشيخ محسن أو حفيظ الله أو بعض الطلاب، وأدركت حقاً أنني إزاء مصلح ديني سيكون له أثره المبارك على الدعوة الإسلامية في شبه القارة الهندية، وقوام مشروعه الدعوي يرتكز على الاهتمام الكبير بالتعليم الديني غير التقليدي، والاهتمام باللغة العربية والنهوض بالدعوة على أساس العلم والتزكية والتضحية وحسن العلاقات مع المجتمع بكل مكوناته، يصاحب كل ذلك الرفق والرحمة وتذويب الحواجز وإشعار الآخر بقيمته الدينية والبشرية، وتبديد هواجس التوتر بين الداعية ومخالفيه من جميع الفئات بما في ذلك القادة والساسة والفرقاء الدينيين والسياسيين، حتى إن الشيخ يقيم علاقات دافئة مع زعماء الأديان والمذاهب غير الإسلامية الهندوس والإسماعيليين

وغيرهم مما يتيح لهم فرصة التعرف على الإسلام بصورته الجميلة الصافية التي يقدمها الوحي، وأنت تستمع إلى أحاديث الطلاب والمدرسين عن شيخهم تتجلى لك شخصية الرجل الراسخة في الديانة والعلم والحكمة والعمق وبعد النظر والوعي الكامل بحقيقة المرحلة ومتطلباتها.

فالرجل صالح في نفسه كثير التعبد والتأله، مقبل على نفسه منشغل بالصلاة والذكر والتزكية والترقي في منازل السائرين، ومما علمته أن الشيخ لا يترك قيام الليل مهما كانت الظروف، بل إنه يصلي عن أبويه الراحلين لكل واحد منهما اثنتي عشرة ركعة، وإذا عجز عن القيام في الليل لأمر قاهر يقضي صلاته عن نفسه وصلاته عن أبويه في وقت الضحى.

مع الإقبال على العلم، سواء كان إقباله على كتب التفسير والسنن وشرحها مع همة عالية في القراءة والتدبر، ومما أخبرني به الإخوة أن الشيخ قرأ كتاب البداية والنهاية بنسخته العربية أربع مرات، وقرأ كتاب حياة الصحابة ست مرات، وهو كذلك مجاز في الكتب الستة وموطأ مالك، كثير القراءة لدواوين السنة وشرحها.

ومما حدثني به الشيخ وقاص أنه كان يقرأ عليه من سنن الترمذي حتى بلغ حديث «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما

سقى كافرًا منها شربة ماء» فرأى عينيه تذرفان فتوقف الشيخ وقاص
عن القراءة، ثم قال له الشيخ ما معناه: إنه رغم غناه لا يدخر من
المال إلا مثل أحد المدرسين في الجامعة.

مع ما عنده من المزارع وما يملكه من مصنع للمعدات الزراعية.
غادرت تلمبة متوجهًا إلى فيصل آباد لزيارة جامعة الحسين هناك
ورؤية باعث العربية في باكستان الشيخ رمزي الحبيب التونسي
ولقاء المدرسين والطلاب، وخلفت ورائي شيخ القارة الهندية
ودرة تاجها ونورها وهلالها يعاني آثار الذبحة الصدرية كما يعاني
آثار المرض الذي تعانيه أمة الإسلام في المشرق والمغرب، غادرته
وهو في تلك المدينة الصغيرة وكأنه يجلس في غرفة عمليات يدير
من خلالها مشروعه الإصلاحية الذي تتحرك من خلاله جيوش
الدعاة والمعلمين والطلاب، وهناك أكف المساكين والفقراء من
جهة وممن لفحتهم نيران الذنوب من جهة أخرى ترتفع إلى السماء
تلهج بالدعاء لهذا (القديس) المجاهد المتبتل.

إلى فيصل آباد

كنت قد مررت بهذه المدينة الجميلة في خروجي الأول إلى مدينة جهنغ، وها أنا اليوم أعود إليها من جديد، وكما مررت عليها في المرة السابقة ليلاً ها أنا الليلة أصلها بعد صلاة العشاء في ليلة مطرة غسلت المدينة وروت الأرض، وفي مدخل مبنى الجامعة كان في انتظارنا عدد من الطلاب منهم الطالب عمران عزيز الذي يجري على لسانه الشعر العربي وكأنه من إحدى البوادي في جزيرة العرب، حتى إنه لا يكاد يتكلم في لحظة استقبلنا إلا شعراً، أخذونا إلى غرفة الضيوف حتى استرحنا ثم اتجهنا إلى مكتب الشيخ رمزي الحبيب التونسي، فلما أقبلت نحوه فتح ذراعيه مبتسماً وكأنه يرى أخاً له يشم فيه بلاده فكان يردد: (أفاح الوجه، أفاح الوجه) ثم عانقني وطوقني بذراعيه وهو يلهج بعبارات الترحيب فجلست معه قليلاً ثم قال: الترتيب أن تتحركوا الآن إلى فرع الجامعة في (شاه كوت) فالمشايخ والطلاب ينتظرونكم، وعند العودة ستجدونني في مكثبي هذا.

وبعد مسافة نصف ساعة من فيصل آباد تقريباً وصلنا إلى منطقة

شاه كوت وولجت سيارتنا جامعتهما الجميلة، الجميلة في بنائها وتخطيطها وحديقتها ومرافقها، فيبدو أنها قد بنيت حديثاً على طراز جميل جداً، وفي إحدى القاعات وجدنا المدرسين والطلاب ينتظرونا بشغف وعشق للسان العربي، فتكلمت معهم عن التغيير الهائل الذي أحدثه الإسلام في المجتمع والنفوس، والتغيير الكبير الذي حول رعاة الغنم إلى رعاة أمم، وكيف استطاع هؤلاء الأميون أن يتحولوا إلى أمة حضارية نشرت الدين والعلم وكونت المدارس وبنيت العواصم والحواضر، واستشهدت لهم بالصحابي الجليل عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه- الذي تحول من (رويعي غنم) إلى أستاذ كبير يجلس على ميراث الدولة الفارسية في العراق، ويصبح مدرسة في القرآن الكريم والحديث والفقه، وعلى أصول مدرسته وتلاميذه تكونت مدرسة فقهية ومدرسة حديثة ومدرسة في القراءات، وكيف عاش حياته الأولى وهو لا يفقه من الدنيا إلا أحاديث الغنم والمراعي والحظائر ثم جاء الزمن الذي يقول فيه عمر بن الخطاب لأهل العراق: «لقد آثرتكم بآبن مسعود على نفسي»، شعرت أن الحديث استهواهم حتى إنها كانت ترتفع صيحات التسبيح والتكبير في تلك القاعة، ثم طلبوا مني حث الطلاب والمدرسين على الاهتمام بالعربية. وفي آخر اللقاء طلبوا

إلقاء أبيات من الشعر العربي.

بعد هذا الحديث سلمت على الحضور وصافحت معظمهم ثم خرجت أتجول في باحة الجامعة، حيث تظهر على أضواء الكهرباء ورودها وزهورها وأشجارها الجميلة، وعلى بعض الكراسي في هذه الحديقة جلسنا نتحدث ونشرب الشاي نحن وبعض المدرسين.

لقاء حبيب

عدنا ليلاً لنجد الشيخ رمزي الحبيب ينتظرنا في مكتبه الجميل، وسألني عن أخبار اليمن وأبناء الحرب والربيع الذي تحول إلى خريف عاصف، وأخبرني أنه زار صنعاء داعية إلى الله ضمن جماعة باكستانية في السنوات المنصرمة، فزار منطقة الروضة في صنعاء حيث يقال إنها وقعت قصة (أصحاب الجنة) المذكورين في سورة القلم، ثم أخبرني أنه ضمن ترتيب الجماعة في زيارة العلماء زاروا عددًا من علماء صنعاء ومشايخها ومنهم الشيخ عبد المجيد الزنداني.

ثم سأل عن جامعة الإيمان وشيخها وطلابها فقلت له:

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجُّونِ إِلَى الصِّفَا

نَيْسٌ، وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَامِرٌ

ثم حدثته عما حل بصنعاء المليحة التي داهم وجهها السل والجرب والرفض والخرافة، ثم أكدت له:
لكنها رغم بخل الغيث ما برحت
حبلئ وفي بطنها قحطان أو كرب
رأيت التأثير الممزوج بالأمل يعلو وجه الشيخ، فأردت أن أحول الحديث عن اليمن فسألته عن بلده تونس فقال: غادرت تونس وعمري أربع عشرة سنة؛ هرباً من بطش النظام السابق، فالتحقت في كراتشي بجامعة دار العلوم، ودرست هناك العلوم الشرعية، وتخصصت في الأدب العربي حتى حصلت على شهادتي الماجستير والدكتوراه، ولي كتابان إلى الآن، ولم أزر تونس مدة طويلة حتى سقط نظام بن علي، فسافرت بعد الثورة ولقيت الأهل والأصدقاء، وطفت في بلدي وقمنا مع عدد من التبليغيين هناك بالتشاور حول العمل في تونس، وتمكنا من زيارة راشد الغنوشي ودار بيننا وبينه بعض الحديث، وكان مما قلت له: إذا كنتم أنتم في ميدان الجهاد السياسي فنحن في عريش الدعوة، هذا العريش الذي يشبه العريش الذي صنع للنبي -صلى الله عليه وسلم- يوم بدر، فاستظرف الشيخ المثال وطلب منا الدعاء، وتشاورنا معه حول فتح مراكز الدعوة والتبليغ في البلاد.

كان الشيخ رمزي يتكلم عن بلده وهو مستوعب أن الأوضاع فيها غير مستقرة، وأن الأمور تحتاج إلى الكثير من الصبر والحكمة، حتى إنه أخبرني أن جماعة التبليغ وبعد مشاورات كثيرة رأت أن تؤجل فتح مراكزها حتى ترى كيف سيكون وضع البلاد في الأيام المقبلة.

عمران عزيز البلوشي

قررنا المبيت في فيصل آباد فأنزلونا في غرفة الضيوف، وكان معي أخي الشيخ حفيظ الله وأخي تابش، فلما تمددتُ على السرير جاء بعض الطلاب للسمر معنا، ولقد أذهلني اهتمامهم باللغة العربية وإتقانهم لها وحفظهم للكثير من الأشعار العربية، وأظن أن بعضهم يحفظ المعلقة السبع والكثير من الأشعار القديمة.

أما عمران عزيز فقد جلس معي على السرير، فلما أردت أن أستوي جالسًا أقسم بالله ألا أجلس، فبقيت متكئا وهو جالس في طرف السرير، وأخذ يدلك ركبتي، وحاولت أمنعه ولكنه أقسم عليّ ثم قال: أريد أن أسامرك وأثاقفك في العربية، فأنا أحب أن أسمعها من أهلها. فقضينا الليلة في الأشعار وأخبار العرب وطرائفهم الأدبية وتاريخ الشعر والأدب، وكان عمران عزيز يتكلم بعربية فصيحة،

ويكثر من الاستشهاد بالشعر الجاهلي، وقضينا على ذلك جل الوقت، وكان الحديث بيننا لا ينقطع، فكان كلما خرجت أو دخلت يستقبلني بالشعر، ويوم سفرنا سار معي إلى السيارة وهو ينشد أشعار التوديع، وعانقني والدمع يملأ عينيه، حتى انطلقت السيارة وهو يتبعنا في الوحل تحت المطر ويشير إلينا وينشد الأشعار.

رأيت في هذا الشاب مخايل النجابة والذكاء والنبوغ، وتوقعت أن سيكون له مستقبل في العلوم الشرعية وعلوم العربية، فقد قرأ الكثير من كتب الأدب القديمة والحديثة، حتى قرأ للرافعي والعقاد وطه حسين والطنطاوي والمنفلوطي وغيرهم.

وكان لي شغف أن أعرف سبب تميز هذا الشاب، فسألته عن بداياته، فقال: أنا بلوشي أقيم في قرية قريبة من كويتا، وأتقن لغتي البلوشية فضلاً عن الفارسية والأردية والعربية، أما أبي فهو رجل من عامة الناس، ينفق علينا من مجزرة (ملحمة)، ولكنه رغم انقطاعه عن التعليم فهو شاعر مشهور من شعراء اللغة البلوشية، وله خمسة دواوين، ويستضاف في القنوات الفضائية، وقد كُرم من بعض الجهات الثقافية في إقليم بلوشستان، وكانت الكراسيات لا تفارق أبي حتى ونحن نتناول الطعام، فربما مسح يده وأخذ القلم وكتب في الكراسية ثم يرجع للطعام وهكذا ربما يتكرر ذلك منه

عدة مرات، وحتى عندما ينام يضع عند رأسه كراسة ومصباحًا، وربما رفع الغطاء عن وجهه وأخذ المصباح وكتب شيئًا ثم يعاود النوم، بل كان يأخذ الكراسة معه إلى المجزرة ليكتب الخواطر التي يبنى عليها أشعاره، وكان يفرح بي كثيرًا عندما أعود إلى البيت في الإجازات فيطلب مني أن أنشده أشعار العرب ثم أترجمها له إلى البلوشية حيث إنه لا يفهم العربية، وأذكر ليلة أننا تسامرنا إلى قرب الفجر وأنا أنشده من شعر المتنبي فكان يتمنى أنه يتقن العربية ليستمتع بشعر المتنبي، وترجمت له إلى البلوشية شيئًا من أشعار عنتره وزهير وأبي تمام والبحثري وغيرهم.

من هذا علمت أن عمران عزيز نبت نباتًا حسنًا في مناخ أدبي بين يدي أب عاشق متذوق.

عدتُ إلى اليمن وكنت كلما راسلت أحد الإخوة من طلاب فيصل آباد أسأله عن عمران عزيز وتبادل التحايا، وهو يرفض أن يستخدم (جوال اللمس) لكيلا يُحمّل الفيس بوك والواتساب، ويرى أنها ستشغله عن الترقى في العلم والمعارف.

ثم علمت بعد عودتي أنه خرج دعوة إلى كشمير في عدد من الطلاب، وبينما هم نائمون في المسجد داهمتهم السيول من كل مكان وجرفت المسجد بمن فيه ودمرت أكثر من مائة بيت، وفي

تلك الليلة لقي عمران عزيز ربه شهيداً خارجاً في سبيل الله مع سبعة من إخوانه رحمهم الله جميعاً.
لقد خسرت بموته جامعة الحسينين وبلوشستان وباكستان رجلاً عظيماً كنت أتوقع أن يحجز له مقعداً مع العظماء، ولكن الله اختاره ليحجز له مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وداعا باكستان

وفي مطلع شباط/ فبراير حزمنا أمتعتنا في رايوند مغادرين هذا المركز الذي يعج بالآف الدعاة، منهم المقيمون ومنهم القادمون ومنهم المغادرون مثلنا، كان الجو بارداً وأصوات المشايخ كأنها دوي النحل، والقادمون والراحلون يملؤون ردهات المركز وطرقاته، والحراس يُقسّمون ابتساماتهم الجميلة كأنها زخات المطر التي تداعب الحقول اليابسة.

أخذت الأصوات تخفت رويداً رويداً، وسيارة أخي تابش تخترق المارة وتتهادى كالناقة العشاء في رمال الصحراء، ومن الطريق نفسه الذي عبرناه قبل أربعة أشهر قادمين من بلادنا نتجه الليلة مغادرين، وفي ليل لاهور البارد المليء بالأشواق تخترق سيارتنا

الشوارع والقرى حتى تقف بنا على أبواب مطار (العلامة إقبال)، حيث ينتهي اللقاء، ويقف المودعون، وتذرف العبرات، ويتعانق المحبون وهم لا يدرون هل هو الوداع الأخير الذي لا لقاء بعده؛ أم أن السنين ستجود لهم بلقاء جديد يوماً من دهرها.

أقلعت بنا الطائرة ليلاً لتخترق السماء والغيوم والرذاذ مخلقة وراءنا بلداً أحببناه، شعرنا بانتمائه إلينا وانتمائنا إليه، كانت الطائرة تمخر عباب السماء، وكانت باكستان كالمغناطيس الذي يجذب قلبي إلى ترابها، كانت الطائرة تقطع أجواء معشوقتي باكستان وخيالي يرى من تحت الطائرة الأنهار تتدفق، والمنارات تعانق السماء، والسهول الخضراء يراقصها النسيم، والأطفال يلعبون، والمدارس مكتظة بالطلاب، والأمة الباكستانية تدب على هذه الأرض مستمسكة بها معتصمة بدينها وترابها ولغتها.

كان خيالي يحوم في مدينة ملتان وقد وطئت قدماي نهر السند حيث وقف محمد بن القاسم حاملاً الهدى والنور، فقفزت إلى خيالي الطفلة (الرميصاء) ذات العشر السنوات وهي تتعثر في جلابيتها حاملة مصحفها وقد ترك البرد حمرة شديدة في خديها الصغيرين، وذلك الشيخ الكبير (محمد جاويد) وهو يتحامل على منساته متجهاً إلى المسجد على أنوار الفجر، وتلك المنارة الباسقة

التي تهتف بلا إله إلا الله محمد رسول الله، طاف خيالي في طول هذا البلد وعرضه، وفي وجداني يتدافع الأمل والقلق، الأمل بما رأيت في هذا البلد من حماس للدين، وما لمست من مظاهر التمسك بشعائره، وما زرت من المدارس والجامعات ودور التحفيظ، وما رأيت من خيرات طبيعية تكفي للنهوض بهذا البلد الطيب، ولكن كان يختلج في قلبي قلق، فهذا البلد يخفي خلف هدوئه تناقضات واختلافات مع تربص الأعداء وتآمر الجيران، وقد شعرت أن هذا البلد يقف وحيداً بعد جراحات الصراع في أفغانستان، ودخول العرب في دهاليز مظلمة، واستعداد الهند للتحرش به، وترقب إيران واستخدامها للأقلية الشيعية.

ما زالت هذه الخيالات تستبدّ بي حتى هبطت بنا الطائرة (ترانزيت) في مطار الدوحة، وهذا المطار عبارة عن مدينة تقنية يتيه فيها الخريّيت، ولولا طول فرصة الانتظار لأقلعت الطائرة قبل أن ينتظم شملنا.

وفي مطار الدوحة رأيت منظرًا اشمأزت منه نفسي، فقد رأيت أكثر من مائة (جارية) - عفواً أعني شغالة - فلبينية، يُحشرون في طابور مزدحم؛ ليتوجهن إلى إحدى دول الخليج للعمل في خدمة البيوت، رأيت ازدهامهن وجدلهنّ بهذه الفرصة، وكأني أفق في سوق الرقيق

لأرى جوارى مسلمات قذف بهن الفقر والقهر إلى مغادرة بلدهن
وأهلهن وبيوتهن للبحث عن فرص للحياة، كنت أقف مع عدد من
المسافرين المتجهين إلى صلاة وفي قلبي غصة قد عبثت بنشوة
فرحة العودة التي تختلج في صدري.

ومع خيوط شمس الصباح كانت الطائرة تفتح جناحها فوق جبال
ظفار، فتبدو لنا الوديان والشعاب والقرى والسهول حتى تتجلى لنا
صلاة كأنها العروس في صباحية زفافها، فيجذب الشوق طائرنا في
أرض المطار فتقف على المدرج بجانب أخواتها كأنهن الصافنات
الجياد، فنهرع من بطنها إلى دنيا صلاة وقد تركنا مزعاً من قلوبنا
هناك بين الأنهار الخمسة في بلاد البنجاب.

إلى مدينة الغيضة

من مطار صلاة اتجهنا إلى مركز أبي أيوب الأنصاري في
أحد أحياء المدينة، وهناك استرحنا من إرهاق السفر حتى
أذن لصلاة الظهر، ثم استضافنا إخواننا العمانيون، فقدموا لنا
وجبة غداء متنوعة بلحم الإبل، وبعد الغداء والراحة والتشاور
قررنا مواصلة السير عبر منفذ (صرفيت) بعد صلاة العصر،

فاستقلينا سيارة انطلقت بنا -على بركة الله- تحملنا أجنحة الشوق ولهفة العودة، فكانت الشمس تزحف نحو الغروب صفراء ضاحكة، وسيارتنا تطاردها في طريق متعرج بين الجبال في تحد يشبه تحدي الأطفال، حتى وصلنا المنفذ مع سدول الليل، وفي المنفذ وقفنا للتفتيش وتختيم الجوازات، وكنت أشعر بألم شديد في أسفل عمودي الفقري؛ مما اضطرني إلى الاسترخاء على كرسي بجانب مكتب الجوازات مباشرة، فمر بجانب ضابط عماني وكأنه شعر بألمي فوق يصابحني ويسأل عن صحتي وإن كنت أحتاج إلى مساعدة، فشكرته كثيراً ولكنه أصرّ أن يأخذني إلى غرفة قريبة فيها فرش حتى أستريح إلى وقت المغادرة، وفي هذه الغرفة وجدت امرأة ومعها ولدها الشاب مستلقياً على فراش وهو يبكي بحرقة ويتقلب على الفراش كأنه ملدوغ وأمه تمرر يدها عليه، وبكاؤها يختلط ببكائه وهي تقول: «حبيبي يا نوفل يا روح أمك تحمل فديت عمرك...»، فأنساني هذا المشهد تعبي وآلامي، ووددت أني لم أدخل هذه الغرفة، فسألت المرأة عن ولدها فقالت: «ادع له يا ابني فهو مصاب بالسرطان وحالته متقدمة...» فنهضت نحوه ووضعت كفي على رأسه ورقيته ودعوت له ولاطفته بكلمات

مليئة بالأمل وحدثتهم أن الموت والحياة بيد الله وهو وحده الشافي والقادر على كل شيء وما زلت الأطفهما حتى ناداني أحد رفاق رحلتي، فودعتهما ونهضت إلى السيارة واتكأت على مقعدي، فولجنا الحدود اليمنية تحت جناح الليل، وصدى بكاء نوفل وأمه يتردد في أذني.

أيام في الغيضة

نزلنا جميعاً في مسجد الدعوة بالغيضة، فاستأذنت رفاقي أن أفرقهم حيث إنني قررت البقاء في الغيضة عدة أيام، فودعتهم وكان آخر من نهض لتوديعي الشيخ أبو بكر بلفقيه، وأخبرني بأنه سيسافر في الغد إلى المكلا وينزل هناك ليزور ابنته ويبقى عندها يومين قبل أن يعود إلى عدن، ثم نبهني إلى أن رسالة وصلته من شركة سبأ فون تؤكد أن طيران السعيدة سيستأنف رحلاته من الغيضة إلى عدن بعد انقطاع دام سنوات الحرب، ونصحني بالسفر عبر الطيران؛ لأن السفر عبر البر ربما يشق عليّ فشكرته وودعته. وعند باب المسجد وجدت أخي أوسان الفضلي ينتظري بسيارته ليأخذني إلى بيته. وكانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها مدينة الغيضة، رغم أن لي فيها الكثير من الأقارب بحكم وجودهم كعسكريين يتبعون اللواء ١٢٣

مشاة الذي يقوده العم عبد الله منصور الوليدي، فشاء الله أن يكون أول نزول لي في محافظة المهرة في بيت أخي أوسان، وقد فرح بي كثيراً وتسامرنا إلى قرب الفجر رغم تعب وإرهاق السفر.

وفي صبيحة اليوم الثاني تسامع بوجودي الأقارب والأصدقاء في الغيضة، وكلهم يريد أن أنزل عنده، وكلهم يريد أن يستضيفني، ولكن سبقهم بها أوسان وأقسم أن يكون مقامي عنده مدة وجودي في الغيضة، إلا أن الشيخ محمد عيضة (وزير الأوقاف الحالي) استأذنه أن أبقى معه يومين وهي مدة بقائه في الفندق، ومن ثم سيغادر إلى صلالة، وفي أول أيام صلالة استضافني أوسان ودعا الشيخ محمد عيضة ومرافقيه إلى وليمة الباذخة.

وفي اليوم الثاني جاءني أخي جمال سليمان الوليدي ليكون هو وسيارته تحت تصرفي مدة بقائي في الغيضة، فأخذني إلى البحر والأماكن القريبة، وطاف بي في المدينة وأراد أن يستضيفني فاعتذرت له بأن الأخ عبد الله مقصع قد سبقه إلى ذلك، فكان غداؤنا عند أخي عبد الله مقصع، وقد بالغ في إكرامنا بما لا مزيد عليه.

وفي عصر ذلك اليوم كانت لي زيارة للشيخ والعم عبد الله منصور الوليدي قائد اللواء ١٢٣ مشاة وقائد محور الغيضة، فوجدت في ديوانه الكثير من المعارف، فاستقبلنا استقبالاً كريماً وسألني عن باكستان وأحوالها، وطلب أن نكون ضيوفه في اليوم الثاني وهو ما كان.

كان أخي جمال سليمان يمر عليّ كل يوم ليأخذني بسيارته ويطوف بي في مدينة الغيضة، وأخبرني أن القائد طلب من بعض ضباطه أن يأخذ جوازي ويقطع لي تذكرة سفر إلى عدن عبر طيران السعيدة.

ومما أتذكره أن أحد المؤرخين من آل كلشات تواصل معي وزارني وطلب مني التنسيق للقاء بعض مؤرخي المهرة وأدبائها ومثقفها، فاتفقنا على ذلك ولكن لم يتيسر الأمر؛ لظروف سفري وانشغالاتهم.

في اليوم الرابع كنا في ضيافة الأخ أحمد محمد سالم مسر، وهو ضابط في اللواء وكان زميل دراسة في الأساسي والثانوي، وبالغ في إكرامنا كما بالغ الذين من قبله.

وفي اليوم الخامس قدم عمي العبد (شقيق أبي) من مديرية حات حيث يقع مركز اللواء وهو يشغل منصب الضابط الإداري في اللواء، فقضيت في ضيافته يومين كريمين، واعتذرت لكثير من الإخوة وتهربت منهم حتى جاء موعد سفري فأخذني الأخ علي حيدرة أخو أوسان إلى المطار، فكنت أول مسافر إلى عدن عبر طيران السعيدة بعد سنوات الحرب، وبعد ساعة وعشرين دقيقة قضيناها في سماء بلادنا هبطت بنا السعيدة في مطار عدن لأجد أبنائي ينتظروني في صالة المطار.

وبهذه الحروف ينتهي تسجيل رحلتي إلى باكستان التي استمرت أربعة أشهر.

والحمد لله أولاً وآخراً

فهرس المحتويات

3	إهداء
4	كلمة الشيخ طارق جميل
5	رسالة الأستاذ بسام الحامد
6	بسام بن علي الحامد
7	«الرحلة»
8	الطريق إلى سيؤون (2 أكتوبر 2018م)
20	أربعة أيام في سيؤون
22	زيارة تريم
30	زيارة الشيخ علي بكير
35	تعريف بالشيخ بكير
40	في دار المصطفى
44	تعريف موجز بدار المصطفى
45	أقسام الدار
46	حادثتان
48	إلى الحدود العمانية
50	في رماة
51	في منفذ شحن
53	مذهب الشيخ يوسف
54	إلى سلطنة عمان
55	اللغة الشجرية
56	في صلالة

57	جولة في صلالة
58	لما غلبني الهوى
60	الدكتور صادق النهاري
62	إلى السوق المركزي
64	إلى مسقط
67	كيف لقيني منذر؟
70	إلى باكستان
70	تعريف موجز بباكستان
74	المغادرة
76	في مركز رايوند
77	يوم حافل
79	جولة في رحاب المركز
89	منهجية
91	صديقي شهزاد
92	الطريق إلى ديالبور
99	أول ليلة في ديالبور
103	في حي خليل آباد
105	مع مودودي
106	في رياض الجنة
107	في حي السوبر
111	أعجب ما رآه الشاب نويد
114	مع هارون
116	ليلة ليلاء

118	العودة إلى المركز العام في ديالبور
119	ممثل كوميدي يلقي محاضرة الأسبوع
125	قصة تكتب بماء العيون
127	في حي ضياء الدين
128	فتيات الفجر
131	العودة إلى رايوند
138	قبل الاجتماع
139	مع الأفغان
144	أيام الاجتماع
146	لو كانت جماعة التبليغ تنصيرية
148	من قصص الأحاب
150	أبو صنعاء التونسي
152	دموع المترجم
154	فيلسوف الحركة
154	(عبد الرحمن بومباي)
155	عبد المجيد شهرت
156	أسير في الاجتماع
157	حكمة سودانية
160	مصنع الدعاة
162	دموع على خرائب الرملة
166	وفي باريس كانت قصة
169	عجائب اللغات في باكستان
176	إنصاف جماعة التبليغ

182	إلى إقليم السند
183	في مسجد الفتح
184	خبر الأم المسيحية
187	في مسجد عباد الرحمن
189	إلى حي الأخضرى
190	في بيت صديق رئيس الوزراء
192	على أطلال مدرسة غلام الله
198	العلاج فوق الطبيعي
200	في جيده خيط أسود
203	وقد كراتشى
204	جلد الفاسق وضعف الثقة
205	ثروة
207	مع غلام مرتضى
208	عن الصديق الأكبر
208	الوسطية والاعتدال
211	جهده وتضحياته
212	وفاته
212	زيارة نهر السند
213	قرية سردار خان لنب
214	دموع السندي
215	إلى رايوند من جديد
216	حصاد (شهر مورو)
217	في المركز

218	ماذا صنع كرت الدعاية؟
222	47 سؤالاً
223	إلى مدينة ملتان
227	جامعة عمر بن الخطاب
229	جامعة (خير المدارس)
230	المدرسة الرحيمية
232	رحلة مشتاق في الآفاق
240	شكيل أحمد
241	نمر أبو علي
242	فرع جامعة رايوند
243	ولي الله الكشميري
244	شيخة قبيلة بين جبال إفريقيا
249	من قصص الشيخ عبد الوهاب
251	أيام الاختلاط
252	ابن رئيس الوزراء
254	أخونا سمير وجماعات البديل
256	كلمة (مهمان) هي الرمز السري
259	ملك في المنفى
261	في بور سعيد
263	الشاعر سعدي شيرازي
265	هل هو حضرمي؟
267	نسمات من سلطنة عمان
268	هولندا والعدل العمري

270	قدر مقدور
272	الهولندية وصديقها المغربي
273	رحلة عماني إلى جمهورية بورندي
276	إلى مدينة جهنغ
278	الطفل القندهاري
283	ومن أوغندا الخبر اليقين
286	يا يماني
288	ليلة رحلونا
293	شهر في كراتشي
294	شارع الزبيري في كراتشي
295	هل مر الزبيري هنا؟
297	واقعتان من حب العرب
298	الواقعة الأولى
299	الواقعة الثانية
300	بروفسور يماني باكستاني
304	زيارة جامعة دار العلوم كراتشي
306	زيارة جامعة العلوم الإسلامية
306	مع د. سلمان آصف
308	الوفاء بوعد الدكتور سلمان
310	مع النخبة
310	الرحالة نور محمد
312	زيارة جامعة الرشيد
313	أخونا أبو قدامة يوسف زيد

314	زيارة جامعة ابن عباس
315	زيارة دار الأرقم
317	تطواف
319	توديع
319	وداعا كراتشي
321	زيارة لاهور
323	منارة باكستان التاريخية
323	مسجد وقلعة أورنكزيب
326	إلى طارق جميل
327	النشأة
329	إلى الشيخ
333	الشيخ المكتبة
336	نسيم الطارق الجميل
341	اللقاء
343	وغادرنا تلمبة
346	إلى فيصل آباد
348	لقاء حبيب
350	عمران عزيز البلوشي
353	وداعا باكستان
358	إلى مدينة الغيضة
358	أيام في الغيضة

بين الأنهار الخمسة

(أربعة أشهر في باكستان)

كلمة الشيخ طارق جميل

الحمد لله والصلاة والسلام على عبده ورسوله
وبعد

فإن الأخ الأستاذ ناصر الوليدي عرفته وعرفت فيه
رجلا يحب العلم وأهله، يحب نشر الدين في صورة
سليمة: دعوة وتبليغا وتأييغا وتصنيفا، يملك قلبا
يخفق بحب الإسلام والمسلمين، زارنا قبل سنوات خلال
خروجه في باكستان بصفة الدعوة والتبليغ، فزار
رجال الدين والعلم ومراكز الدعوة والمدارس الدينية،
لم ألتق به طويلا، ولكن الأثر الذي خلفته زيارته في
المدارس التي تعمل تحت إشرافي كان طيبا ومباركا.
وأنا لم أستطع مطالعة الكتاب "بين الأنهار الخمسة"،
لشدة ما أعاني من المرض، ولكني أرجو الله سبحانه
وتعالى أن يكون الأستاذ قد وفق تماما في التعبير عما
في الضمير.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

طارق جميل